الأحاديث القدسية

للإمام المحدث محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي

المتوفى سنة ٦٧٦ هجرية

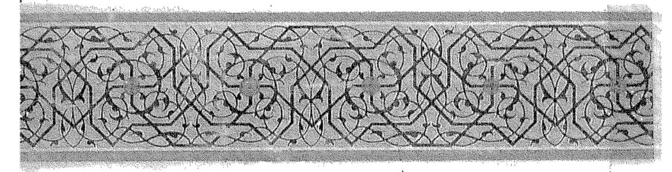
تحقيق وتعليق وتقديم

مصطفى عاشور

طبع على نفقة

إدارة إحياء التراث الإسلامي

بدولة قطر







للإمام المحدث محيى الدين أبو زكريا

يحيى بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ

تحقيق وتعليق وتقديم

مصطفى عاشور

مكتبة القرآن

للطبع والنشر والتوزيع

٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق

القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة للمحقق.. ومنهج التحقيق

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله..

وبعد..

تحتل الأحاديث القدسية وأحاديث الرسول -ﷺ- عموماً مكانة كبيرة فى قلب كل مسلم.. ذلك لأن لها أثر السحر فى النفوس، والأخذ بمجامع القلوب.. ولا عجب فقد أوتى -ﷺ- جوامع الكلمة.. وهى قبل هذا وبعده المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم.. ومن أجل هذا كانت السنة النبوية الشريفة- وعمادها هذه الأحاديث- كعبة الطلاب ومقصد الفقهاء.. يتوجهون إليها لينهلوا من نهرها العذب نوادر الحكم.. وبديع الأحكام.. وجمال التشريع.. ويستخرجون منها العلوم والكنوز.. ليجعلوا منها تراثاً خالداً.. يضىء الطريق للأجيال التالية على مر العصور والأزمان.. من أجل هذا فكرنا فى إخراج كتاب يضم «الأحاديث القدسية ليكون للقارىء المسلم مرجعاً أميناً صحة وضبطاً.. وتعليقاً وشرحاً، ورواية وإخراجاً، بحيث ينتفع به الخاصة

والعامة، ويكون على الصورة اللائقة بما للأحاديث القدسية من مكانة فى نفوس المسلمين جميعاً.

ولقد طوفت بكثير من كتب الحديث ، واطلعت على ما تضمنته أمهات الكتب من شروح الأئمة الأعلام ، متوخيا فى ذلك الأحاديث الصحيحة ، ومستبعداً الضعيف منها .

ووجدت فى نهاية المطاف أن أيسر الكتب شرحا وتعبيرا ، وأغناها بالعلم والفقه هى مؤلفات الإمام النووى وبخاصة « شرح صحيح مسلم » وعند ذلك عرفت الطريق إلى إخراج هذا الكتاب بهدى من الله وتوفيقه ، وكانت خطتى فى إخراج هذا العمل المتكامل إلى حيز الوجود هى :

١ – أن أقتصر على شرح « الأحاديث القدسية » للإمام النووى.
٢ – أن أضيف إليها من الكتب الأخرى إذا كان ذلك لازما .
٣ – أن أوضح بعض عبارات الشرح وأقدمها في أسلوب سهل ميسر لتعرف طريقها إلى الأذهان والقلوب ولينتفع بها الخاصة والعامة .
٤ – أن أقوم بضبط الحروف والكلمات ضبطا أمينا صحيحا يساعد على فهم المعنى ، ويتيح لغير المتخصصين النطق السليم ، والضبط القويم .

٥ – أن أقتصر على رواية واحدة للحديث القدسى الواحد ــ تجنبا للتكرار والإطالة ، إلا إذا تضمنت الرواية الأخرى إضافة جديدة ، يرجى للقارى أن يحيط علما بها .

٦ – ذيلت الشرح بتعليق موجز إتماما للفائدة وزيادة فى الإيضاح وإسهاما بالرأى عند تعدد وجهات النظر والآراء .

٧ – قدمت بين يدى هذه الأحاديث تعريفا بالإمام مسلم ، لينهل من علمه من يبتغى المزيد .

٨ – قدمت دراسة مركزة موجزة عن الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسى وبين الحديث القدسى والحديث النبوى .

... هذا وسوف يلحظ القارىء أن أغلب أحاديث هذا الكتاب رواها الإمام مسلم . وكلها صحيحة .

ولعلى بهذا أكون قد وفقت فى إبراز الكتاب إلى حيز الوجود على الصورة التى تلائم مضمونه وتناسب محتواه .. ولا أبتغى من وراء ذلك إلا وجه الله .

نسأله ــ سبحانه ــ أن يتقبل منا هذا العمل .. إنه سميع مجيب الدعاء ،

مصطفى عاشور

التعريف بالإمام مسلم

نسبه :

هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى — من بنى قشير قبيلة من العرب معروفة — النيسابورى إمام أهل الحديث .

شيوخه :

سافر — رضى الله عنه — إلى كثير من الأقطار طلبا للعلم ، فرحل إلى خُراسان وسمع الحديث من يحيى بن يحيى واسحق بن راهويه وآخرين . ورحل إلى الرَّىّ وسمع الحديث من محمد بن مهران وأبى غسان وآخرين . ورحل إلى العراق وسمع من ابن حنبل وعبد الله بن مسلمة وآخرين ، ثم رحل إلى الحجاز وسمع من سعيد بن منصور وأبى مصعب وآخرين . وإلى مصر وسمع من عمرو بن سواد وحرملة بن يحيى وآخرين وخلائق كثيرين .

وروى عنه جماعة من كبار الأئمة فى عصره منهم أبو حاتم الرازى والترمذى وغيرهم .

مصنفاته :

صنف مسلم ــ رحمه الله ــ فى علم الحديث كتبا كثيرة أشهرها « صحيح مسلم » ومنها كتاب « المسند الكبير على أسماء الرجال » وكتاب « الجامع الكبير على الأبواب » وكتاب « العلل » وكتاب « التمييز » وكتاب « من ليس له إلا راوٍ واحد » وكتاب « طبقات التابعين » وكتاب « المخضرمين » وغير ذلك .

والذى يحقق النظر فى « صحيح مسلم » ويطلع على ما أودعه فى إسناده وترتيبه وحسن سياقه ، وبديع طريقه من نفائس التحقيق وجواهر التدقيق . وأنواع الورع والاحتياط . والتحرى فى الروايات ، وتلخيص الطرق واختصارها ، وضبط منفرقها وكثرة اطلاعه واتساع روايته ، وغير ذلك من المحاسن واللطائف التى يزخر بها الكتاب ــ الذى يحقق النظر ويطلع على كل ذلك ــ يعلم أنه إمام قل من يساويه أو يدانيه من أهل دهره . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وفاته :

توفى ــ رحمه الله ــ فى نيسابور سنة إحدى وستين ومائة ،

عشية الأحد ودفن يوم الاثنين لخمس بقين من رجب فى نفس العام ، وهو ابن خمس وخمسين سنة رضى الله عنه .

التعريف بالإمام النووى

نسبه ، ومولده ، وعلمه :

هو الإمام الحافظ الأوحد القدوة شيخ الإسلام محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى الحزامى الحوارنى الشافعى صاحب التصانيف النافعة .

ولد فى المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة وقدم دمشق سنة تسع وأربعين فسكن فى الرواجية يتناول خبز المدرسة فحفظ « التنبيه » فى أربعة أشهر ونصف ، وقرأ ربع « المهذب » حفظا فى باقى السنة على شيخه الكمال بن أحمد ، ثم حج مع أبيه وأقام بالمدينة شهراً ونصفاً ، قال الشيخ أبو الحسن العطار : إن الإمام النووى ذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثنى عشر درسا على مشايخه شرحا وتصحيحا : درسين فى « الوسيط » ، ودرسا فى « المهذب » فى « الجمع بين الصحيحين » ، ودرسا فى « صحيح مسلم » ، ودرسا فى « اللمع » لابن جنى ، ودرسا فى « إصلاح المنطق » ودرسا فى « التصريف » ، ودرسا فى

« أصول الفقه » ، ودرسا فى « أسماء الرجال » ، ودرسا فى « أصول الدين » .

ويقول النووى : وخطر لى أن أشتغل فى الطب فاشتغلت فى كتاب « القانون » وأظلم قلبى ، وبقيت أياما لا أقدر على الاشتغال فأشفقت على نفسى وبعت « القانون » فنار قلبى .

اجتهاده وحفظه وزهده :

قال ابن العطار (أحد تلاميذه) : ذكر لى شيخنا ــ رحمه الله تعالى ــ أنه كان لا يضيع له وقت لا فى ليل ولا فى نهار حتى فى الطريق ، وأنه دام ست سنين ثم أخذ فى التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق ، وكان حافظا للحديث وفنونه ورجاله وصحيحه وعليله ، وكان يمتنع عن أكل الفواكه والخيار ويقول : أخاف أن يرطب جسمى ويجلب النوم ، وكان يأكل فى اليوم والليلة أكلة ويشرب شربة واحدة عند السحر ، قال ابن العطار : كلمته فى أكل الفاكهة ، فقال دمشق كثيرة الأوقاف وأملاك من تحت الحجر ، والتصرف لهم فكيف تطيب نفسى بأكل ذلك . وقد جمع ابن العطار سيرته فى ست كراريس .

تصانيفه :

من تصانيفه : « شرح صحيح مسلم » و« رياض الصالحين » و« الأذكار » و« الأربعين » و« الإرشاد فى علوم الحديث » و« التقريب » و« المبهمات » و« تحرير الألفاظ للتنبيه » و« العمدة فى تصحيح التنبيه » و« الإيضاح فى المناسك » وله ثلاثة مناسك سواه ، و« التبيان فى آداب حملة القرآن » و« الفتاوى » و« الروضة » أربعة أسفار ، و« شرح المهذب » فى أربعة مجلدات ، وشرح قطعة من البخارى ، وقطعة من الوسيط ، وعمل قطعة من الأحكام ، وجملة كثيرة من الأسماء واللغات ، ومسودة فى طبقات الفقهاء ، ومن التحقيق إلى باب صلاة المسافر .

ورعه :

كان لا يقبل من أحد شيئا إلا فى النادر ممن لا يشتغل عليه ، أهدى له فقير إبريقا فقبله ، وعزم عليه الشيخ برهان الدين الاسكندرانى أن يفطر عنده فقال : أحضر الطعام إلى هنا ونفطر جملة فأكل من ذلك وكان لونين ، وربما جمع الشيخ بعض الأوقات بين إدامين .

قال الشيخ ابن فرح : الشيخ محيى الدين قد صار إلى ثلاث مراتب ، كل مرتبة لو كانت لشخص لشدت إليه الرحالُ : العلم والزهد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وفاته :

سافر الشيخ فزار بيت المقدس وعاد إلى نوى ، فمرض عند والده فحضرته المنيّة ، فانتقل إلى رحمة الله فى الرابع والعشرين من رجب ، سنة ست وسبعين وستمائة ، وقبره ظاهر يزار .

قال الشيخ قطب الدين اليونينى :

كان النووى أوحد زمانه فى العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش ، وولى مشيخة دار الحديث سنة خمس وستين إلى أن مات قدس الله سره .

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسى

تمهيد :

للعلماء آراء كثيرة فى الفرق بين الحديث القدسى والقرآن الكريم

وقبل عرض هذه الفروق سوف أعرف أولا كلا من القرآن الكريم والحديث القدسى على حدة .. ليتضح الفرق بينهما .

تعريف القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو اللفظ العربى المنزل على سيدنا محمد ـ ﷺ ـ المنقول إلينا تواترا المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه .

تعريف الحديث القدسى :

الحديث القدسى هو ما يرويه الرسول ـ ﷺ ـ عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ تارة بواسطة جبريل ـ عليه السلام ـ وتارة بالوحى أو الإلهام أو المنام ، مفوضا إليه التعبير بأى عبارة شاء ، من أنواع الكلام . أى أن الحديث القدسى لفظه من عند رسول الله ـ ﷺ ـ ومعناه من عند الله سبحانه وتعالى .

رواية الحديث القدسى :

ولرواية الحديث القدسى صيغتان :

إحداهما : أن يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما يرويه عن

ربه ، وهى عبارة السلف ، واختارها الإمام النووى رحمه الله .

والثانية : أن يقول : قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله — ﷺ — والمعنى واحد .

مقارنة بين الحديث القدسى والقرآن الكريم :

١ – القرآن معجز والحديث القدسى غير معجز .

٢ – القرآن تصح به الصلاة بخلاف الحديث القدسى بل هو يبطل الصلاة .

٣ – منكر القرآن كافر ، ومنكر الحديث ليس بكافر وإنما هو فاسق .

٤ – القرآن لفظه ومعناه من عند الله ، والحديث القدسى لفظه من عند الرسول — ﷺ — ومعناه من عند الله سبحانه وتعالى .

٥ – القرآن لا تصح روايته بالمعنى بخلاف الحديث القدسى فيجوز روايته بالمعنى دون التقيد باللفظ .

٦ – لا يمس القرآن إلا طاهر ، والحديث القدسى يجوز مسه من المحدث .

٧ – لا يجوز للجنب قراءة القرآن أو حمله بخلاف الحديث القدسى .

٨ – كل حرف من القرآن يعطى قارئه عشر حسنات والحديث القدسى ليس كذلك .

٩ – القرآن لا يصح بيعه (أحمد بن حنبل) أو يكره بيعه (غيره من الأئمة) والحديث القدسى يجوز بيعه .

الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى :

قدمنا أن الحديث القدسى يرويه الرسول – ﷺ – عن ربه ، والحديث النبوى ليس كذلك فليس مرويا عن الله سبحانه وتعالى ولا يصح إضافته إليه .

والسؤال الآن هل الأحاديث القدسية فقط دون الأحاديث النبوية ودون بقية السنة المطهرة هى التى جاءت بوحى ؟

الواقع أن هناك خلافا فى هذه النقطة والصحيح أن الأحاديث النبوية وبقية السنة قد جاءت بوحى أيضا ودليله قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى » وقوله – ﷺ – « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » والله أعلم .

بسم اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

« وما آتاكم الرسول فخذوه .. وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ... »

(من الآية السابعة من سورة الحشر)

١٠ – مَن همّ بحسنةٍ أو سيئةٍ :

عن أَبى هريرةَ رضى اللّٰهُ عنه قالَ : قالَ رسولُ اللّٰهِ ــ ﷺ ــ قال اللّٰهُ ــ عزَّ وجلَّ « إذا همَّ عبدِى بسيئةٍ فلا تَكتُبوها عليه ، فإنْ عَمِلَها فاكتُبوها سيئةً وإذا هَمَّ بحسنةٍ فلَم يعملْها ، فاكتُبوها حسَنةً ، فإن عَمِلَها فاكتُبوها عَشْرًا » .

رواه مسلم

قال الإمام المازرى رحمه الله فى تفسير هذا الحديث : مذهب القاضى أبى بكر بن الطيب أن من عزم على المعصية بقلبه ووطن نفسه عليها أثم فى اعتقاده وعزمه ، وأما ظاهر الحديث فمقصود به من لم يوطن نفسه على المعصية ، وإنما مر ذلك بفكره من غير استقرار ويسمى هذا هما وليس عزما . ويرى كثير من الفقهاء والمحدثين خلاف ذلك حيث يأخذون بظاهر الحديث .

ويعلق القاضى عياض على الرأى الأول فيقول : عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين على ما ذهب إليه القاضى أبو بكر للأحاديث الدالة على المؤاخذة بأعمال القلوب لكنهم قالوا : إن هذا العزم يكتب سيئة وليست السيئة التى هم بها لكونه لم يعملها ، لكن لو تركها خشية لله تعالى كتبت حسنة ، كما فى الحديث ، فصار تركه لها لخوف الله تعالى ومجاهدته نفسه الأمارة بالسوء فى ذلك وعصيانه هواه حسنة ، وأما الهم الذى لا يكتب فهى الخواطر التى لا توطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية ولا عزم ، وهناك بعض النصوص التى تؤيد القول الذى يرى أن هناك مؤاخذة بعزم القلب المستقر ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إن الذين يُحبون أن تَشيع الفاحشةُ فى الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ اجتَنِبُوا كَثيراً مِنَ الظنِّ إنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ ﴾ .

وقد اتفقت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوى رحمه الله فى هذا الحديث وأمثاله إنه دليل على أن الحفظة يكتبون أعمال القلوب وعقدها خلافا لمن قال : إنها لا تكتب إلا الأعمال الظاهرة .

٢ – الإسراءُ برسولِ اللهِ ﷺ وفرضُ الصلاةِ :

عن أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ :

« أُتِيتُ بالبُرَاقِ وهُوَ دابَّةٌ أبيضُ طويلٌ فوقَ الحِمارِ ودُونَ البَغْلِ يضَعُ حافرَه عِندَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ قال : فَرَكِبْتُهُ حتى أتيتُ بيتَ المَقْدِسِ ، قالَ : فَرَبَطْتُهُ بالحَلْقَةِ التى يَرْبِطُ بِهَا الأنبياءُ ، قالَ : ثُمَّ دخلتُ المسجدَ فصليتُ فيه ركعتينِ ثم خرجتُ فجاءنى جبريلُ عليه السلامُ بإناءٍ من خَمْرٍ وإناءٍ مِنْ لبَنٍ ، فاخترتُ اللبنَ فقالَ جبريلُ ﷺ : اخترْتَ الفِطْرَةَ ثُمَ عُرِجَ بِنَا إلى السماءِ فاستفتحَ جبريلُ فقيلَ : مَنْ أنتَ ؟ قال : جبريلُ ، قيلَ ومَنْ مَعَك ؟ قال محمَّدٌ قيلَ : وَقدْ بُعِث إليْهِ قالَ : قَدْ بُعِثَ إليهِ فَفُتِحَ لَنَا فإذا أَنا بآدمَ فرَحَّبَ بِى ودعَا لِى بخيرٍ ثم عَرَجَ بِنَا إلى السماءِ الثانيةِ فاستفتحَ جبريلُ عليه السلامُ فقيلَ : من أنتَ قالَ : جبريلُ ، قيلَ : ومَن معَكَ ، قالَ مُحَمدٌ قيلَ وَقَدْ بُعِثَ إليهِ ؟ قالَ : قدْ بُعِثَ إليه ، فَفُتِحَ لنا فإذا أَنا بابنِ الخالةِ عيسى ابنِ مريمَ ويحيى بنِ زكريا صلواتُ اللّهِ عليهِمَا فرحَّبَا ودَعَوَا لى بخيرٍ ،

ثم عُرِجَ بِي إلى السماءِ الثَّالِثةِ ، فاستفتحَ جبريلُ فقيلَ : من أنتَ ؟ قال جبريلُ ، قيلَ : ومَنْ معَك ؟ قالَ : محمدٌ ﷺ ، قيلَ : وقَدْ بُعِثَ إليهِ ؟ قالَ : قدْ بُعِثَ إليهِ ففتحَ لنا فإذا أنا بِيُوسفَ ـ ﷺ ـ إذا هوَ قد أُعطىَ شَطْرَ الحُسْنِ فرَحَّبَ ودَعَا لى بخيرٍ ثم عُرِجَ بِنا إلى السماءِ الرابعةِ فاستفتحَ جبريلُ عليهِ السلامُ قيلَ : مَنْ هذا ؟ قالَ جبريلُ ، قيلَ : وَمَن مَعَك قالَ : مُحَمَّدٌ ، قيلَ : وقَدْ بُعِثَ إليهِ ؟ قالَ : قَدْ بُعِثَ إليهِ فَفُتِحَ لَنَا ، فإذا أَنا بإدريسَ فرَحَّبَ ودَعَا لِى بخيْرٍ ، قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا ﴾ ، ثم عُرِجَ بِنَا إلى السماءِ الخامسةِ فاستفتحَ جِبريلُ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قال : جِبريلُ ، قيل : ومن مَعَكَ ؟ قالَ : مُحَمَّدٌ ، قيلَ وَقَدْ بُعِثَ إليهِ ؟ قال : قد بُعِثَ إليهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فإذَا أَنَا بهارونَ ـ ﷺ ـ فرحّبَ ودَعَا لِى بخيرٍ ، ثم عُرِجَ بِنَا إلى السماءِ السادسةِ ، فاستَفْتَحَ جبريلُ عليهِ السلامُ ، قيلَ : من هذا ؟ قالَ : جبريلُ قيلَ ومَنْ مَعَكَ ؟ قال : محمدٌ ، قِيلَ وقد بُعِثَ إليه ؟ قال : قد بُعِثَ إليه ، فَفُتِحَ لَنا ، فإذا أَنَا بموسَى ـ ﷺ ـ فرَحَّبَ وَدَعَا لِى بخيرٍ ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى

السماءِ السابعةِ ــ فاستفتحَ جبريلُ ، فقيل مَنْ هذا ؟ قال : جبريلُ ، قيلَ : ومن مَعَك ؟ قال : محمدٌ ــ ﷺ ــ قيلَ : وقَدْ بُعثَ إليه ؟ قال : قد بُعِثَ إليه ، فَفُتِحَ لنا فإذَا أنا بإبراهيمَ ــ ﷺ ــ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إلى البيتِ المَعْمُورِ وإذا هو يدخُلُه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ لا يعودُونَ إليه ، ثُمَّ ذهَبَ بى إلى سِدْرَةِ المُنتَهَى ، وإذا وَرَقُها كآذانِ الفِيَلَةِ ، وإذا ثَمَرُهَا كالقِلَالِ ، قالَ : فلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أمرِ اللَّهِ ما غَشِيَ ، تَغَيَّرتْ ، فما أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَستطيعُ أَنْ يَنْعَتَها من حُسْنِها ، فأوحى اللَّهُ إليّ ما أَوْحَى ، ففَرَضَ عَلَيَّ خمسينَ صلاةً فى كلِّ يومٍ وليلةٍ ، فنزلتُ إليّ موسَى ــ ﷺ ــ فقالَ : ما فرَضَ ربُّك علَى أُمَّتِكَ ؟ قلتُ : خمسينَ صَلاةً ، قالَ : ارجِعْ إلى رَبِّكَ ، فاسْأَلْهُ التَّخفيفَ ، فإن أُمّتك لا يُطيقونَ ذلكَ ، فإنّي قد بَلَوْتُ بنى إسرائيلَ وخَبَرْتُهم ، قالَ : فرَجَعتُ إلى رَبِّى فقلتُ ياربِّ خَفِّفْ على أمَّتى ، فحَطَّ عَنِّى خمسًا فرَجَعْتُ إلى موسى فقلتُ : حَطَّ عَنِّى خَمْسًا ، قالَ إنَّ أُمَّتَكَ لا يُطيقونَ ذلكَ فارْجِعْ إلى رَبِّكَ ، فاَسْأَلْهُ التَّخفيفَ ، قالَ : فلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بينَ رَبِّى

تَبارَكَ وتَعالَى ـــ وبينَ مُوسَى ـــ عليهِ السلامُ ـــ حتى قالَ : يا مُحَمدُ ، إنهُنَّ خَمْسُ صلواتٍ ، كُلَّ يَوْمٍ وليلةٍ ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عشرٌ ، فذلك خَمْسُونَ صلاةً ، ومَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يَعْمَلْهَا ، كُتِبَتْ له حَسَنَة ، فإنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، ومن هَمَّ بسيئةٍ فلَمْ يَعمَلْها ، لم تُكْتَبْ شيئًا ، فإن عَمِلَها كُتِبتْ سيئةً واحدةً ، قال : فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى ـــ ﷺ ـــ فأخبرتُه ، فقالَ : ارجِعْ إلى رَبِّكَ فاسأَلْهُ التخفيفَ ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ ـــ فقلتُ : قد رَجَعْتُ إلى رَبِّى ، حتى استَحْيَيْتُ مِنْهُ » .

رواه مسلم

من أعظم المعجزات التى أيد بها نبيه ﷺ الإسراء والمعراج ، هذا الحدث الذى أثار ردود فعل عظيمة ، والسؤال الآن : هل كان الإسراء بالنبى ﷺ فى المنام أم أسرى به ـــ بجسده ـــ ﷺ ؟ الحق الذى عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بجسده ـــ ﷺ ـــ .

(البُراق) اسم الدابّة التى ركبها رسول الله ﷺ ـــ ليلة الإسراء .

(بيت المقدس) : المكان المطهر ، أو المكان الذى يطهر فيه من الذنوب .

(الفطرة) : الإسلام والاستقامة ، وقوله : « اخترت الفطرة » معناه . اخترت علامة الإسلام والاستقامة ، وجعل اللبن علامة لكونه سهلا .

(سدرة المنتهى) المكان الذى ينتهى إليه علم الملائكة ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ .

القلال : جمع قلة ، والقُلَّة جرة عظيمة تسع قربتين أو أكثر .

ويؤخذ من الحديث :

١ – استحباب لقاء أهل الفضل بالبشر والترحيب والكلام الحسن والدعاء لهم .

٢ – جواز مدح الإنسان فى وجهه إذا أمن عليه الإعجاب وغيره من أسباب الفتن .

٣ – جواز الاستناد إلى القبلة وتحويل الظهر إليها .

٤ – فى ربط الأنبياء البراق : الأخذ بالاحتياط وتعاطى الأسباب وأن ذلك لا يقدح فى التوكل إذا كان الاعتماد على الله .

٥ – شدة رأفة الأنبياء بالمؤمنين ، فقد أشفق موسى عليه السلام على أمة محمد – ﷺ – وطلب من النبى – ﷺ – أن يراجع ربه ويسأله التخفيف .

٣ – قَسمتُ الصلاةَ بَينى وبينَ عبدِى نِصْفَين :

عن أبى هُرَيرَةَ رضى اللّهُ عَنْهُ – عن النَّبِىّ – ﷺ – قالَ : « من صلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بأُمِّ القُرْآن فهى خِداجٌ ، ثلاثًا ، غيرُ تَمَامٍ ، فقيلَ لأبى هُرَيرَةَ : إنَّا نكونُ وراءَ الإمامِ ، فقالَ : اقرَأ بها فى نَفْسِكَ ، فإنِّى سمعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ : قالَ اللهُ تعالىَ – قَسمْتُ الصلاةَ بينى وبين عبدِى نِصفَين ، ولِعَبدِى ما سَأَلَ ، فإذا قالَ العبدُ : ﴿ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ﴾ قالَ اللهُ تعالى – حَمَدَنى عَبْدِى ، وإذَا قالَ ﴿ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ ﴾ قالَ الله تعالىَ : أَثْنَى علىَّ عَبْدِى ، وإذا قالَ : ﴿ مالكِ يومِ الدِّينِ ﴾ قالَ اللهُ تعالى : مَجَّدَنى عَبْدِى – وقالَ مرَّةً : فَوَّضَ إلىَّ عبدِى ، فإذا قالَ : ﴿ إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نَستعينُ ﴾ قالَ : هذا بينى وبينَ عبدِى ، ولِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، فإذا قالَ : ﴿ آهدنا الصِّراطَ المُسْتقِيمَ صِراطَ الّذينَ أنعمتَ عليهِمْ غيرِ المغضُوبِ عليهِمْ ولاَ الضَّالِّينَ ﴾ – قالَ : ﴿ هذا لِعبدِى ولِعبدِى ما سَأَلَ ﴾ » .

رواه مسلم

الخِداجُ بكسر الخاء : النقصان . يقال : خدجت الناقة ، إذا ألقت ولدها قبل أوان النتاج ، وإن كان تام الخلق ، وأخدجته إذا ولدته ناقصا ، وإن كان لتمام الولادة .

أم القرآن : الفاتحة . وسميت كذلك لأنها فاتحته ، كما سميت مكة أم القرى لأنها أصلها .

مجدنى عبدى : عظمنى .

هذا الحديث يوضح أحكام قراءة سورة الفاتحة ، وهل قراءتها واجبة أم جائزة ؟.. فمذهب مالك والشافعى وجمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن قراءة الفاتحة واجبة لقوله ـــ ﷺ : « لا صلاة إلا بأم القرآن » ، وقال أبو حنيفة ـــ رضى الله عنه ـــ وطائفة قليلة . لا تجب الفاتحة ـــ ، بل الواجب آية من القرآن لقوله ـــ ﷺ ـــ (اقرأ ما تيسر) ورد عليه بأن هذا محمول على الفاتحة ، أو على مازاد على الفاتحة ، أو على من عجز عن الفاتحة . والمقصود من الصلاة فى قوله سبحانه وتعالى : (قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين) هو الفاتحة ، وسميت كذلك لأن الصلاة لا تفتح إلا بها كقوله ـــ ﷺ ـــ (الحج عرفة) ، وذلك لأن الحج لا يتم إلا بالوقوف بعرفة .

والمراد قسمتها من جهة المعنى ، لأن نصفها الأول تحميد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه ، والتفويض إليه ، والنصف الثانى : سؤال وطلب وتضرع وافتقار .

٤ – فَضْلُ الصَّوْمِ :

عن أبى هريرةَ رضى اللهُ عنه – قال : قال رسولُ اللهِ – ﷺ – « قال اللهُ عزَّ وجَلَّ – كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ لهُ ، إلا الصيامَ ، فإنهُ لِى وأَنا أَجزِى بهِ ، والصيامُ جُنَّةٌ ، فإذا كان يَوْمُ صوْمِ أحدِكُم فلا يَرفُثْ يومئِذٍ ولا يسْخَبْ ، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتَلَهُ ، فلْيَقُلْ : إنِّى امرُؤٌ صائمٌ ، والذى نفسُ محمدٍ بيدِهِ لخُلوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ مِنْ ريحِ المِسكِ ، ولِلصّائمِ فَرْحَتانِ يَفْرَحُهُمَا إذا أَفْطَر فَرِحَ بِفِطْرِهِ ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ فرِح بصَوْمِهِ » .

رواه مسلم

(خُلُوف فم الصائم) بضم الخاء واللام : تغير رائحة فمه .

(الصيام جنة) وقاية وستر من المعاصى ، لأنه يكسر الشهوة ويضعفها ، وقيل بستره من النار ، كما ورد فى رواية الترمذى (الصوم جنة من النار) فالنار محفوفة بالشهوات .

(الرفث) السخف والفاحش من القول .

يسخَب : بفتح الخاء . السخب هو الصياح ، وهو بمعنى يجهل

كما ورد فى رواية أخرى . قال النووى :

للصائم فرحتان : قال العلماء : أما فرحته عند لقاء ربه ؛ فسببها ما يراه من جزائه ، وتذكر نعمة الله عليه ، بتوفيقه لذلك .

وأما فرحته عند فطره ؛ فسببها تمام عبادته ، وسلامتها من المفسدات وما يرجوه من ثوابها العظيم .

أقول : ويضم إلى ذلك فرحة لنفسه الحيوانية بتمتعها بما تشتهى بعد المنع منها وذلك يكون عند إفطاره .

تعليق :

اختلف العلماء فى قوله ﷺ : (قال الله — عز وجل — كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى ، وأنا أجزى به) . فقيل : سبب إضافته إلى الله تعالى أنه لم يُعْبَدْ أحدٌ غير الله به ، فلم يعظم الكفار فى عصر من الأعصار معبودا لهم بالصيام ، وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة والسجود والصدقة والذكر وغير ذلك . وقيل: لأن الصوم بعيد عن الرياء لخفائه ، بخلاف الصلاة والحج والغزو والصدقة وغيرها من العبادات الظاهرة .

وقيل معناه : أنا المنفرد بعلم مقدار ثوابه أو تضعيف حسناته

وقيل : هى إضافة تشريف كقوله تعالى : « ناقة الله » مع أن العالم كله لله تعالى .

ويؤخذ من الحديث : عظم فضل الصوم والحث عليه .

د – أنا عند ظنّ عبدى بى :

عن أبى هُريرَةَ رضى اللهُ عنهُ قال : قال رسولُ اللهِ – ﷺ – يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ – « أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى ، وأنا مَعَهُ حينَ يَذْكُرُنى ، فإنْ ذكَرَنى فى نفسِهِ ذكرْتُهُ فى نفسى ، وإنْ ذكَرَنى فى ملأٍ ذكرتُهُ فى ملأٍ خيرٍ مِنْهُمْ ، وإنْ اقترَبَ إلىَّ شبرًا تقرَّبتُ إليهِ ذِراعًا ، وإن اقترَبَ إلىَّ ذِراعًا اقترَبْتُ إليه باعًا ، وإنْ أتانى يَمشِى أتيتُه هَرْوَلَةً » .

رواه مسلم

(أنا عند ظن عبدى) ، قال القاضى : قيل معناه : أنا عند ظن عبدى بى بالغفران إذا استغفر ، والقبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب الكفاية ، وقيل : المراد به الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح .

(وأنا معه حين يذكرنى) : أى معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية . وأما قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ فمعناه : معكم بالعلم والإحاطة .

(إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى) : قال المازرى : المراد بالنفس هنا الذات والله تعالى له ذات حقيقية .

(وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم) :

استدل المعتزلة بهذه العبارة على تفضيل الملائكة على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ومذهب أصحابنا وغيرهم أن الأنبياء أفضل من الملائكة ، لقوله تعالى فى بنى إسرائيل ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ والملائكة من العالمين ، ويتأول هذا الحديث على أن الذاكرين غالبا يكونون طائفة لا نبى فيهم فإذا ذكره الله تعالى فى الملائكة كانوا خيرا من تلك الطائفة (وإن تقرب منى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة) . ظاهر الحديث غير مقصود ، والمعنى المراد : من تقرب إلى بطاعتى تقربت إليه برحمتى والتوفيق والإعانة ، وإن زاد زدت .

والباع : هو طول ذراعى الإنسان وعضديه وعرض صدره وهو قدر أربعة أذرع .

٦ – هل تَشتَهونَ شيئًا ؟

عن عبدِ اللهِ بنِ مُرَّةَ عن مسروقٍ قال : سألْنَا عبدَ اللهِ عن هذهِ الآيةِ :

﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا فى سَبيلِ اللهِ أمواتاً بَلْ أحياءٌ عندَ ربِّهِم يُرزَقُونَ﴾ قالَ أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : « أرواحُهمْ فى جوفِ طيرٍ خُضْرٍ ، لها قناديلُ معلّقةٌ بالعرش ، تسرحُ من الجنةِ حيثُ شاءتْ ، ثم تأوِى إلى تلكَ القناديلِ ، فاطّلَعَ إليهِمْ ربُّهُم اطّلاعةً ، فقال : هل تشتهون شيئًا ؟ قالوا : أىَّ شىءٍ نَشْتَهِى ونحن نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حيث شِئْنَا ففعلَ ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ ، فلما رأَوا أنهم لَن يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا ، قالوا : ياربِّ نُريدُ أن تَرُدَّ أرواحَنَا فى أجسادِنَا حتى نُقْتَلَ فى سبيلِكَ مرّةً أُخرى فلما رأى أَنْ ليسَ لهم حَاجَةٌ تُرِكُوا » .

رواه مسلم

(سألنا عبد الله) : قيل : هو عبد الله بن عَمرو وقيل : هو عبد الله بن مسعود و هو الأصوب .

(سألنا عن ذلك) : سألنا النبى — ﷺ

(أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل) : استدل أهل السنة بهذا الحديث على أن الجنة مخلوقة موجودة ، وهى التى أهبط منها آدم ، وهى التى ينعم فيها المؤمنون فى الآخرة ، وظواهر القرآن والسنة تدل على ذلك ، وهذا هو المذهب الصحيح . وقالت المعتزلة وطائفة من المبتدعة وغيرهم : إنها ليست موجودة وإنما توجد بعد البعث فى القيامة ، وهى بخلاف الجنة التى أخرج منها آدم .

قال القاضى : وقد اختلف الناس فى الروح ، فقال كثير من أرباب المعانى وعلم الباطن : لا تعرف حقيقته ولا يصح وصفه ، وهو مما جهل العباد علمه ، واستدلوا بقوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ . وقال جمهور الأطباء : هو البخار اللطيف السارى فى البدن ، وقال كثيرون من شيوخنا : هو الحياة ، والأصح عند أصحابنا أن الروح أجسام لطيفة متخللة فى البدن فإذا فارقته مات .

(فقال لهم الله تعالى : هل تشتهون شيئا الخ ..) : هذا مبالغة فى إكرامهم وتنعيمهم ، إذ قد أعطاهم الله ما لا يخطر على قلب بشر ، ثم رغبهم فى سؤال الزيادة فلم يجدوا مزيدا على ما أعطاهم ، فسألوه حين رأوا أنه لابد من سؤال أن يرجع أرواحهم إلى أجسادهم ليجاهدوا ويبذلوا أنفسهم فى سبيل الله تعالى ، ويستلذوا بالقتل فى سبيله .

ويؤخذ من الحديث :

١ – اثبات مجازاة الأموات بالثواب والعقاب قبل القيامة .

٢ – قال القاضي : وفيه أن الأرواح باقية لا تفنى ، فينعم المحسن ويعذب المسيء وقد جاء به القرآن ، والآثار تدل عليه .

٧ - النهىُ عن قتلِ النّمْلِ :

عن أبى هُريرَةَ رضى اللهُ عَنْهُ عن رسولِ اللهِ ﷺ — « أن نملةً قَرَصَتْ نبيًّا مِنَ الأنبياءِ ، فأَمَر بقريةِ النّملِ فأُحرِقَتْ ، فأوحَى اللهُ إليهِ : أفي أَنْ قَرَصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمةً مِنَ الأممِ تُسَبِّحُ ؟! »

وفى رِوايةٍ أُخرى :

« نزلَ نبىٌّ من الأنبياءِ تحتَ شجرةٍ فلدَغَتْهُ نملةٌ ، فأَمَرَ بجِهازِه فأُخرِجَ من تحتِهَا ، وأمرَ بها فأُحْرِقَتْ فى النارِ ، قال : فأوحى اللهُ إليه فَهَلَّا نملةً واحِدةً !! » .

رواه مسلم

(قرية النمل) : منزل النمل .

(فأمر بجهازه) : الجهاز هو المتاع .

قال العلماء : هذا الحديث محمول على أن شرع ذلك النبى — ﷺ — كان فيه جواز قتل النمل ، وجواز الإحراق بالنار ، ولم يعتب عليه فى أصل القتل والإحراق بل فى الزيادة على نملة واحدة .

وقوله تعالى : (فهلا نملة واحدة) : أى فهلا عاقبت نملة واحدة هى التى قرصتك لأنها الجانية ، وأما غيرها فليس لها جناية ، وأما فى شرعنا فلا يجوز الإحراق بالنار للحيوان ، إلا إذا أحرق إنسانا فمات بالإحراق فلوليه الاقتصاص بإحراق الجانى ، ويستوى فى منع الإحراق بالنار النمل وغيره للحديث المشهور : « لا يُعذِّبُ بالنار إلا الله » .

وأما قتل النمل — فمذهبنا أنه لا يجوز ، واحتج أصحابنا فيه بحديث ابن عباس « أن النبى — ﷺ — نهى عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد » رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم .

تعليق :

اختلف العلماء فى حكم قتل النمل ، فبعضهم لا يجوز ذلك كما تقدم فى شرح الإمام النووى ، وقال الدميرى فى قوله : (فهلا نملة واحدة) : فيه دليل على جواز قتل المؤذى من الحيوان (وكل قتل لحيوان كان لنفع ، أو لدفع ضرره فلا بأس به عند العلماء) .

ولما كان النمل يشكل بعض الضرر للإنسان كأكل قوته وإفساد طعامه وغير خاف أن للنملة قرصة شديدة موجعة فإننا نرجح قتل المؤذى منه .. وأما النهى الذى أشار اليه الحديث فالمقصود به هو الحرق ، لأن حرق الحيوان غير جائز فى شريعتنا إلا فى حالة القصاص .

ورب سائل يقول : إن علة التحريم كانت بسبب أن النمل من الأمم المسبحة ــ الجواب أن كل الحشرات والحيوانات المؤذية أو النافعة ــ بل كل كائن حى ، أو دابة تدب على الأرض ــ كلها تسبح بحمد الله ، فالعقرب تسبح بحمد الله ، والحية تسبح بحمد الله .. ودليله قوله تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلا يُسَبِّحُ بحمدِه ﴾ .

٨ – صِلَةُ الرَّحِمِ وتَحْرِيمُ قَطِيعَتِهَا :

عن أبي هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ – ﷺ – : « إنَّ اللهَ خلَقَ الخلْقَ حتَّى إذا فَرَغَ مِنْهُم قامَتِ الرَّحِمُ فقالَتْ : هذا مقامُ العائِذِ مِنَ القطيعةِ ، قالَ : نعمْ أما تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وأَقْطَعَ مَنْ قطَعكِ ؟ قالتْ بَلى ، قال : فذاكِ لَكِ » .

ثم قال رسولُ الله ﷺ – اقرءوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ، أولئكَ الّذينَ لَعَنَهُم اللهُ فأَصَمَّهُم وأعمى أَبْصَارَهُم ، أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أم على قُلوبٍ أَقْفَالُها﴾ .

رواه مسلم

(قامت الرحم) : قامت حقيقة بأن تجسمت ، وقيل : هى استعارة تمثيلية شبهت حالة الرحم بحال المستجير ، قال القاضى عياض : ويجوز أن يكون المراد : قام ملك من الملائكة وتعلق بالعرش ، وتكلم على لسانها بهذا بأمر الله .

والرحم : لفظ يطلق على الأقارب وهم المحارم كالأخت والأم والعمة والخالة ، أى اللاتى لا يجوز للشخص الزواج بهن ، وهذا الرأى لا يدخل تحته أولاد الأعمام ولا أولاد الأخوال .

وقيل : هم الأقارب عموما وهم من بينه وبين الآخر نسب سواء كان يرثه أم لا ، وهذا القول هو الأصح ويدل عليه قوله ﷺ : « ثم أدناك أدناك » .

قال القاضى عياض : ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة فى الجملة وقطيعتها معصية كبيرة ، والصلة درجات بعضها أرفع من بعض وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة ، فمنها واجب ومنها مستحب .

تعليق :

وردت أحاديث كثيرة فى فضل صلة الرحم وكلها تحث على وصل الرحم ، وتحذر من القطيعة :

ومما رواه البخارى « من سره أن يُبسطَ له فى رزقِه وأن يُنْسأَ فى أثِره فلْيصِلْ رحمَه » .

وروى الإمام مسلم عن جبير بن مطعم عن النبى — ﷺ — قال : « لا يدخل الجنة قاطع » .

وروى الإمام أحمد عن عائشة مرفوعا « صلة الرحم ، وحسن الجوار وحسن الخلق تعمر الديار وتزيدُ فى الأعمار» .

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه — أن رجلا قال : يا رسول الله : إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن إليهم ويسيئون

إلى وأحلم عنهم ويجهلون على ، فقال : « لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهُم المَلّ (تطعمهم الرماد الحار) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك » .

ويؤخذ من الحديث :

تعظيم أمر الرحم و فضل واصليها ، وعظيم إثم قاطعيها ، وحقيقة الصلة كما قال العلماء : العطف والرحمة ، وصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن لطفه بهم ورحمته إياهم .

٩ – هُمُ القومُ لا يَشْقَى بهم جَلِيسُهُمْ :

أولا : روايةُ البُخارِيِّ : -

عن أبى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه ــ قالَ : قالَ رسولُ الله ــ ﷺ ــ « إنَّ لِلَّهِ ملائكةً ، يَطُوفُونَ فى الطُّرُقِ ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ، فإذا وَجَدُوا قَوْمًا يذْكُرونَ اللهَ تَنَادَوْا : هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكُمْ قَالَ : فَيَحُفُّونَهُمْ بأَجْنِحَتِهِمْ إلى السماءِ الدُّنْيَا ، قالَ : فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ ــ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ــ ما يَقُولُ عِبادِى ؟ قالَ : يقولونَ : يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ ، ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْنِى ؟ قَالَ : فَيَقُولُونَ : لا ، وَاللهِ ما رَأَوْكَ ، قالَ : فيَقولُ : وكيفَ لو رَأَوْنِى ؟ قال : يقولونَ : لو رَأَوْكَ كانوا أَشَدَّ لكَ عبادَةً ، وأشَدَّ لكَ تمجيدًا وتَحْميدًا ، وأكثرَ تسبيحًا ، قال : فيقولُ : فما يَسْأَلُونَنِى ؟ قال : يَسألونكَ الجَنَّةَ ، قال : يقولُ : وهل رَأَوْهَا ؟ قال : يقولونَ : لا ، واللهِ يارَبِّ ما رَأَوْهَا ، قالَ : فكيف لو أَنَّهُمْ رَأَوْهَا ؟ قال : يقولونَ : لو أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كانوا أَشَدَّ عليها حِرْصًا ، وأشَدَّ لهَا طَلَبًا ، وأعظَمَ فيهَا رَغْبَةً ، قال : فمِمَّ يتَعَوَّذونَ ؟ قال : يقولُونَ :

مِنَ النّارِ ، قال : يقولُ : وهل رَأَوْهَا ؟ قال : يقولونَ : لا واللهِ ياربِّ ما رَأَوْهَا ، قالَ : يقولُ : فكيفَ لَوْ رَأَوْها ؟ قال: يقولونَ: لو رَأَوْهَا كانوا أشدَّ مِنْهَا فِراراً، وأشَدَّ لها مخَافَةً ، قال : فيقولُ أُشْهِدُكُمْ أنى قد غَفَرْتُ لَهُمْ ، قال : يقولُ مَلَكٌ مِنَ الملاَئِكَةِ : فيهم فُلاَنٌ ، ليس مِنهُمْ ، إنما جاءَ لِحاجةٍ ، قالَ : هُمُ الْجُلَسَاءُ ، لا يَشْقَى بِهِمْ جَليسُهُمْ . »

ثانيًا : روايةُ مُسْلِمٍ :

عن أبى هريرةَ رضى اللهُ عنهُ عن النبىِّ ــ ﷺ ــ قالَ : « إن لِلَّهِ تباركَ وتعالىَ ــ مَلائِكةً سيارةً فُضُلاً يتبعونَ مجالسَ الذِّكْرِ ، فإذا وجدوا مَجْلِسًا فيه ذكْرٌ ، قَعَدُوا مَعَهُمْ، وحَفَّ بعضُهُم بعضاً بأجنحتهم حتى يَمْلئُوا ما بَيْنَهُم وبَيْنَ السماءِ الدُّنْيَا ، فإذا تفرَّقُوا عَرَجُوا وصَعِدُوا إلى السَّماءِ ، قال : فيسألُهم اللهُ ــ عَزّ وجَلّ ــ وهُوَ أعلمُ بِهِمْ ــ مِنْ أيْنَ جئتُمْ ؟ فيَقُولُونَ : جئنَا مِنْ عِنْدِ عبادٍ لكَ فى الأرضِ يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ ، ويُهَلِّلُونَكَ ، ويَحْمَدُونَكَ ويَسْألُونَكَ ، قالَ : وماذَا يَسْألُونِى ؟ قالوا : يسألونَكَ جَنَّتَكَ ، قال : وهَلْ رأوا جَنَّتِي ؟ قالوا : لَا ، أَىْ رَبِّ ،

قالَ : فكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتي ؟ قالوا : ويَسْتَجِيرُونَكَ ، قالَ : ومِمَّ يستجِيرُونَني ؟ قالُوا : مِنْ نَارِكَ ياربٌ ، قالَ : وَهَلْ رَأَوْا نَارِى ؟ قالُوا : لَا ، قال : فكيف لو رَأَوْا نَارِى ؟ قالُوا : ويستغفرونَكَ قالَ : فيقولُ : قد غفَرتُ لَهُمْ فأَعْطَيْتُهُمْ ما سَأَلُوا ، وأجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا ، قال : فيقولُونَ : رَبٌ فِيهِمْ فلانٌ عبدٌ خطّاءٌ إنَّما مَرَّ فجَلَسَ مَعَهُمْ ، قالَ : فيقولُ : ولَهُ غَفَرْتُ ، هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » .

رواه مسلم

(ملائكة سيارة) : سياحون فى الأرض .

(فُضُلا) : بضم الفاء والضاد معناها : ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم لا وظيفة لهم سوى حلق الذكر .

(يبتغون) : معناها : يطلبون . ويصح أن تقرأ : يتبعون ومعناها : يتتبعون ويبحثون .

(حف بعضهم بعضا) : حث بعضهم بعضا على الحضور والاستماع .

(ويستجيرونك من نارك) : يطلبون الأمان منها .

(عبد خطاء) : كثير الخطايا .

ويؤخذ من الحديث :

فضيلة الذكر وفضيلة مجالسه ، والجلوس مع أهله وإن لم يشاركهم ، وفضل مجالسة الصالحين وبركتهم .

قال القاضى عياض ــ رحمه الله :

وذكر الله تعالى ضربان : ذكر بالقلب وذكر باللسان .

وذكر القلب نوعان : أحدهما وهو أرفع الأذكار وأجلها : الفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته ، وآياته فى سماواته وأرضه ، وفيه الحديث « خير الذكر الخفى » .

والمراد به هذا ، والثانى : ذكره بالقلب عند الأمر والنهى فيمتثل ما أمر به ، ويترك ما نهى عنه ، ويقف عما أشكل عليه ، وأما ذكر اللسان مجردا فهو أضعف الأذكار ، ولكن فيه فضل عظيم كما جاءت به الأحاديث .

قال : وذكر ابن جرير الطبرى وغيره اختلاف السلف فى ذكر القلب واللسان أيهما أفضل ؟

فمن قال : إن ذكر القلب أفضل احتج بأن عمل السر أفضل ، ومن رجح ذكر اللسان قال : لأن العمل فيه أكثر .

قال القاضى :

واختلفوا هل تكتب الملائكة ذكر القلب ؟ فقيل : تكتبه ، ويجعل

الله لهم علامة يعرفونه بها ، وقيل : لا يكتبونه لأنه لا يطلع عليه غير الله .

يعلق النووى على ذلك بقوله :

قلت : الصحيح أنهم يكتبونه ، وأن ذكر اللسان مع حضور القلب أفضل من القلب وحده والله أعلم .

تعليق :

يشير الحديث إلى عدة فضائل نذكر منها ما يلى :

١ – فضل مجالس الذكر والذاكرين ، وفضل الاجتماع على ذلك ، وأن جليسهم يندرج معهم فى جميع ما يتفضل الله تعالى به عليهم إكراما لهم ، ولو لم يشاركهم فى أصل الذكر .

٢ – محبة الملائكة لبنى آدم واعتناؤهم بهم .

٣ – وفيه أيضا أن السؤال قد يصدر من السائل — وهو أعلم بالمسئول عنه من المسئول — لإظهار العناية بالمسئول عنه ، والتنويه بقدره وشرف منزلته .

٤ – وقيل : إن فى خصوص سؤال الله الملائكة عن أهل الذكر الإشارة إلى قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ فكأنه قيل لهم : انظروا إلى ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سلط عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان ، وكيف عالجوا ذلك وضاهوكم فى التسبيح والتقديس .

٥ – قيل فى فوائد هذا الحديث أيضا :

أن الذكر الحاصل من بنى آدم أعلى وأشرف من الذكر الحاصل من الملائكة لحصول ذكر الآدميين مع كثرة الشواغل ، ووجود الصوارف ، وصدوره فى عالم الغيب بخلاف حال الملائكة فى ذلك كله .

١٠ – إن الله زَوَى لِيَ الأرضَ فرأيتُ مَشَارِقَها ومَغَارِبَها :

عن ثَوْبَانَ ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ – ﷺ – : « إن اللهَ زَوَى لِيَ الأرضَ فَرَأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها ، وإن أُمَّتِي سيَبْلغُ مُلْكُها ما زَوَى لِي مِنْهَا ، وأُعْطِيتُ الْكَنزَيْنِ : الأحمرَ والأبيضَ ، وإنى سألْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وأن لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وإنَّ رَبِّي قالَ : يَا مُحَمَّدُ إنِّي إذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فإنَّهُ لاَ يُرَدُّ ، وإنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِن سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا – أَوْ قالَ : مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا – حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِكُ بَعْضًا ، ويَسْبِي بَعضُهُم بَعْضًا » .

رواه مسلم

(زوى) : بفتح الزاى والواو معناها : جمع .

قال النووى رحمه الله :

هذا الحديث فيه معجزات ظاهرة وقد وقعت كلها بحمد الله كما أخبر به ﷺ .

(الكنزين) : قال العلماء : المراد بالكنزين : الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ، ملكى العراق والشام .

قال النووى رحمه الله :

هذا الحديث فيه إشارة إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده فى جهتى المشرق والمغرب ، وهكذا وقع .. وأما فى جهتى الجنوب والشمال فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب ، وصلوات الله وسلامه على رسوله الصادق الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

(فيستبيح بيضتهم) : أى جماعتهم ، وعزهم وملكهم .

(أن لا أهلكهم بسنة عامة) بفتح السين والنون أى لا أهلكهم بقحط يعمهم ، بل إن وقع قحط فيكون فى ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقى بلاد الإسلام فلله الحمد والشكر على جميع نعمه .

وفى رواية أخرى لمسلم :

عن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا ، فقال ـ ﷺ ـ « سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة ، سألت ربى بأن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » .

١١ – لَلَّهُ أفرحُ بتوبةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ فى الفَلاةِ :

عن أبى هُرَيْرَةَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ – أنهُ قالَ : قال اللهُ عَزّ وجلَّ – : « أنا عندَ ظَنِّ عَبدِى بى ، وأنا معَهُ حيثُ يَذْكُرُنى ، – وَاللهِ ، لَلَّهُ أفرحُ بتوبةِ عبدهِ من أَحَدِكُمْ – يَجِدُ ضَالَّتَهُ بالْفَلاَةِ ، وَمَنْ تَقرَّبَ إلىَّ شِبْرًا تَقرَّبْتُ إلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقرَّبَ إلَّى ذِرَاعًا تقرَّبْتُ إليهِ بَاعًا ، وإذَا أقْبَلَ إلىَّ يَمْشِى ، أقْبَلْتُ إلَيْهِ أُهَرْوِلُ » .

رواه مسلم

قال الإمام النووى :

أصل التوبة فى اللغة الرجوع ، يقال تاب وثاب وآب بمعنى رجع ، والمراد بالتوبة هنا : الرجوع عن الذنب ، وقد سبق فى كتاب الإيمان أن لها ثلاثة أركان : الإقلاع ، والندم على فعل تلك المعصية والعزم على أن لا يعود إليها أبدا ، فإن كانت المعصية لحق آدمى فلها ركن رابع : وهو التحلل من صاحب هذا الحق ، وأصلها الندم ، وهو ركنها الأعظم ، واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصى واجبة على الفرد لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أم كبيرة ، والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ووجوبها عند أهل السنة بالشرع ، وعند المعتزلة بالعقل ، ولا يجب على الله قبولها إذا

وجدت بشروطها عقلا عند أهل السنة ، لكنه سبحانه وتعالى يقبلها كرما وفضلا .

(لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفَلاة) :

قال العلماء : فرح الله تعالى هو رضاه .

وقال المازرى : الفرح ينقسم على وجوه : منها السرور ، والسرور يقابله الرضا بالمسرور به ، والمراد هنا : أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضى واحد ضالته بالفلاة (الصحراء) ، فعبر عن الرضا بالفرح تأكيدا لمعنى الرضا فى نفس السامع ومبالغة فى تقريره .

تعليق :

جاء ذكر التوبة فى القرآن الكريم فى عدة مواضع :

فالله سبحانه وتعالى ـــ دعانا جميعا إلى العودة والرجوع إليه فقال ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ بل إنه جعل القنوط من رحمته ضلالا ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

واليأس من رحمته كفرا ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

١٢ – رَحْمتِي تَغْلِبُ غَضَبِي :

عن أبي هريرةَ أن النبيَّ – ﷺ – قالَ : « لما خلقَ اللهُ الْخلقَ ، كَتَبَ في كِتابِهِ – فَهُوَ عِندَهُ فوقَ الْعَرشِ – إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » .

رواه مسلم

(إن رحمتي تغلبُ غضبي) : وفي رواية سبقت رحمتي غضبي .

قال العلماء : غضب الله تعالى ورضاه يرجعان إلى معنى الإرادة فإرادته الإثابة للمطيع ، ومنفعة العبد تسمى رضا ورحمة ، وإرادته عقاب العاصي وخذلانه تسمى غضبا ، وإرادته – سبحانه وتعالى – صفة له قديمة ، يريد بها جميع المرادات .

قالوا : والمراد بالسبق والغلبة هنا : كثرة الرحمة وشمولها ، كما يقال : غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه .

تعليق :

وردت أحاديث كثيرة كلها توضح سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه ومن ذلك ما رواه مسلم :

أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ ـ يقول : جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .

ومما رواه مسلم أيضا :

عن عمر بن الخطاب أنه قال : قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ بسبى ، فإذا امرأة من السبى تبتغى إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول الله ـ ﷺ ـ أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا والله ـ وهى تقدر على أن لا تطرحه ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لله أرحم بعباده من هذه بولدها .

وفى رواية ثالثة لمسلم :

عن أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد .

١٣ – أَوْصَى بَنِيهِ أَنْ يَحْرِقُوهُ ويذْرُوهُ فى البحرِ :

عن أبى هريرةَ أن رسولَ الله ﷺ ــ قالَ : « قالَ رجلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لأهلِهِ : إذا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ ثم آذْرُوا نِصْفَه فى الْبَرِّ ونِصْفَهُ فى الْبَحْرِ ، فَو اللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحدًا من العالَمِينَ ، فلَمَّا ماتَ الرجلُ فَعَلُوا ما أمَرَهُمْ ، فأمرَ اللهُ الْبَرَّ فجَمَعَ ما فيه ، وأمَرَ الْبَحْرَ فجَمَعَ ما فيه ، ثم قَالَ : لِم فعلْتَ هذَا ؟ قال : من خَشْيَتِكَ يَارَبِّ وأنْتَ أعْلَمُ ، فغَفَرَ اللهُ لَهُ » .

وفى روايةٍ أخرى لِمُسْلِمٍ :

عن أبى هريرةَ عن النبىِّ ــ ﷺ ــ قال : « أسْرَفَ رجلٌ على نفسِهِ ، فلَمَّا حضرَهُ الموتُ أوصَى بنيهِ فقالَ : إذا أنا مِتُّ فأَحْرِقُونِى ثم اسْحَقُونِى ثم اذْرُونِى فى الرِّيحِ فى البحرِ ، فواللهِ لَئِنْ قَدَرَ علىَّ رَبِّى لَيُعَذِّبَنِّى عَذَابًا ما عَذَّبَهُ بِهِ أحَدًا ، قال : ففعلوا ذلكَ بهِ فقالَ للأرضِ : أَدِّى ما أَخَذْتِ ، فإذا هُوَ قائمٌ ، فقال لهُ : ما حَمَلكَ على ما صَنَعْتَ ؟ فقالَ : خَشْيَتُك يَارَبِّ ــ أَوْ قَالَ : مخافَتُكَ ــ فغَفرَ لَهُ بِذَلِكَ » .

(لئن قدر على ربى) : أى إن قدر على إعادة جمعى لحسابى .

اختلف العلماء فى تأويل هذه العبارة فقالت طائفة : لا يصح حمل هذا على أنه أراد نفى قدرة الله ، فإن الشاك فى قدرة الله كافر ، وقد قال فى آخر الحديث ، إنه إنما فعل ذلك من خشية الله ، والكافر لا يخشى الله تعالى ، ولا يغفر له ، وعلى هذا فإن لهذه العبارة تأويلين :

أحدهما : أن معناه لئن قدر على العذاب أى قضى به .

والثانى : أن قدر هنا بمعنى ضيق على ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ أى ضيق عليه رزقه .

وقالت طائفة أخرى :

اللفظ على ظاهره ، ولكن قاله هذا الرجل وهو غير ضابط لكلامه ولا قاصد لحقيقة معناه ومعتقد لها ، بل قاله فى حالة غلب عليه فيها الدهش والخوف ، وشدة الجزع ، بحيث ذهب تيقظه وتدبر ما يقوله ، فصار فى معنى الغافل والناسى ، وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها .

وقال فريق رابع :

هذا من مجاز كلام العرب وبديع استعمالها ، يسمونه مزج الشك باليقين لقوله تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى ﴾ فصورته صورة شك والمراد به اليقين .

وقال فريق خامس :

هذا الرجل جهل صفة من صفات الله تعالى .

وقال فريق سادس :

كان هذا الرجل فى زمن ينفع فيه مجرد التوحيد ، ولم يكن هناك تكليف قبل ورود الشرع على المذهب الصحيح لقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

١٤ - اعمَلْ ما شِئْتَ فَقَدْ غفَرْتُ لَكَ :

عن أبى هريرةَ عن النبىِّ - ﷺ - فيما يَحْكِى عَنْ ربِّهِ - عزَّ وجَلَّ - قالَ : « أَذْنَبَ عبدِى ذَنْبًا فقالَ : اللَّهُمَّ اغفِرْ لِى ذَنْبِى ، فقالَ تبارك وتعالى أذنَبَ عَبْدِى ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، ويأخذُ بالذَّنْبِ ، ثم عادَ فأذنبَ ، فقالَ : أىْ رَبِّ ، اغفِرْ لى ذَنْبِى ، فقالَ - تبارك وتعالَى - : عبدى أَذْنَبَ ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يغْفِرُ الذَّنْبَ ، ويأخُذُ بالذَّنْبِ ، ثم عادَ فأَذْنَبَ ، فقالَ : أىْ رَبِّ ، اغفِرْ لِى ذَنْبِى ، فقالَ - تبارك وتعالَى - أَذْنَبَ عبدى ذنْبًا ، فعَلِمَ أنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، ويَأْخُذُ بالذَّنْبِ ، اعْمَلْ ما شِئْتَ ، فَقَدْ غفَرْتُ لَكَ » .

رواه مسلم

قال الإمام النووى رحمه الله :

هذه المسألة تقدمت فى أول كتاب التوبة ، و هذه الأحاديث ظاهرة فى الدلالة لها ، وأنه لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب فى كل مرة ، قبلت توبته ، وسقطت ذنوبه ، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها ، صحت توبته .

(اعمل ما شئت فقد غفرت لك) : معناه : ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك .

تعليق :

وردت أحاديث كثيرة فى قبول الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ التوبة من الذنوب ، وإن تكررت الذنوب والتوبة ، ومما رواه مسلم : عن أبى موسى عن النبى ــ ﷺ ــ قال : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها .

١٥ – فضلُ مُوسَى – ﷺ :

عن أبى هريرةَ عن رسولِ اللهِ – ﷺ – قالَ : « جاءَ مَلَكُ المَوْتِ إلى مُوسَى عليهِ السَّلامُ – فقالَ لهُ أَجِبْ رَبَّكَ ، قالَ : فلَطَمَ موسَى – عليه السلام – عَيْنَ مَلَكِ الموْتِ ، ففَقَأَها ، قالَ : فَرَجَعَ الْمَلكُ إلى اللهِ تعالَى ، فقالَ : إنَّكَ أَرْسَلْتَنِى إلى عَبْدٍ لَكَ لاَ يُريدُ الموتَ وقَدْ فَقَأَ عَيْنِى ، قَالَ : فَرَدَّ اللهُ إليهِ عَيْنَه ، وقالَ : آرْجِعْ إلى عَبْدِى فَقُلْ : الحياةَ تُريدُ ؟ فإنْ كُنْتَ تُرِيدُ الحَياةَ فضَعْ يَدَكَ على مَتْنِ ثَوْرٍ ، فَمَا تَوارَتْ يَدُكَ من شَعرة فإنَّكَ تَعيشُ بِها سَنَةً ، قال : ثُمَّ مَهْ ، قال : ثُمَّ تَمُوتُ ، قالَ : فالآن مِنْ قَرِيبٍ ، رَبِّ أَمِتْنِى مِنَ الأرضِ المقَدَّسَةِ رَمْيةً بِحَجَرٍ » .

قالَ رسولُ اللهِ – ﷺ – وَاللهِ لَوْ أَنِّى عِنْدَه لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إلى جَانبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ » .

رواه مسلم

(متن الثور) : ظهره .

(رمية حجر) : قدر ما يبلغه .

(مَهْ) : استفهام معناه : ثم ماذا يكون ؟ حياة أم موت ؟

(الكَثِيب) : بفتح الكاف ، وكسر الثاء معناه : الرمل المستطيل المحدودب.

(أجب ربك) : أجب ربك للموت ، ومعناه : جئت لقبض روحك .

قال الإمام النووى رحمه الله .

وأما سؤال موسى الإدناء من الأرض المقدسة فلشرفها وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم ، قال بعض العلماء : وإنما سأل الإدناءَ (القرب) ولم يسأل نفس بيت المقدس ؛ لأنه خاف أن يكون قبره مشهورا عندهم فيفتتن به الناس ، وفى هذا استحباب الدفن فى المواضع الفاضلة والمواطن المباركة ، والقرب من مدافن الصالحين .

قال المازرى :

وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوره ، قالوا : كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت ؟

قال : وأجاب العلماء عن هذه بأجوبة .

أحدها : أنه لا يمتنع أن يكون موسى ـــ ﷺ ـــ قد أذن الله تعالى له فى هذه اللطمة ، ويكون ذلك امتحانا للملطوم والله ـــ سبحانه وتعالى ـــ يفعل فى خلقه ما شاء ، ويمتحنهم بما أراد .

والثانى : أن هذا على المجاز ، والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه

بالحجة ، ويقال : فقأ فلان عين فلان إذا غالبه بالحجة ، ويقال : عورت الشيء إذا أدخلت فيه نقصا .

وعلق المازرى على الرأى الثانى بقوله :

وفى هذا ضعف لقوله ـ ﷺ ـ فرد الله عينه فإن قيل : أراد حجته كان بعيدا .

والثالث : أن موسى ـ ﷺ ـ لم يعلم أنه ملك من عند الله ، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه (قتله) فدافعه عنها ، فأدت المدافعة إلى فقء عينه ، لا أنه قصدها بالفقء ، وهذا جواب الإمام أبى بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين ، واختاره المازرى والقاضى عياض .

قالوا : وليس فى الحديث تصريح بأنه تعمد فقء عينه ، فإن قيل : فقد اعترف موسى حين جاءه ثانيا بأنه ملك الموت .

فالجواب أنه أتاه فى المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى .

١٦ - فضلُ يُونُسَ - ﷺ :

عن أبى هريرةَ عن النبىِّ ﷺ - أنه قالَ - : (يعنى : اللهُ تباركَ وتعالَى) لا ينبغى لعبدٍ لِى - (وقالَ ابْنُ المُثَنَّى : لعبدٍ) أن يقولَ : أَنَا خَيرٌ من يُونُسَ بْنَ مَتَّى - عليهِ السلامُ .

رواه مسلم

(لا ينبغى لعبد لى أن يقول : أنا خير من يونس بن متى) :
قال العلماء فى هذا الحديث وما فى معناه :
إن هذه الأحاديث تحتمل وجهين :
أحدهما : أنه - ﷺ - قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس ، فلما علم ذلك قال : (أنا سيد ولد آدم) ، ولم يقل هنا : إن يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - .

والثانى : أنه - ﷺ - قال هذا زجرا عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئا من حط مرتبة يونس - ﷺ - من أجل ما فى القرآن العزيز من قصته .

قال العلماء : وما جرى ليونس - ﷺ - لم يحطه من النبوة مثقال ذرة ، وخص يونس بالذكر لما ذكرناه من ذكره فى القرآن بما ذكر .

١٧ – فضلُ إنظارِ المُعْسِرِ والتَّجُاوزِ فى الاقْتِضَاءِ :

عن حذيفة قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ ــ « تَلَقَّتِ الملائكةُ رُوحَ رجُلٍ مِمّن كان قَبْلَكُمْ ، فقالوا : أَعَمِلْتَ من الخَيْرِ شَيْئًا ؟ قالَ : لا ، قالُوا : تَذَكَّرْ ، قَالَ : كنتُ أُدَايِنُ الناسِ فآمُرُ فِتيانِي أَنْ يُنْظِرُوا المُعْسِرَ ، ويَتَجَوَّزوا عن الموسِرِ ، قالَ : قالَ اللهُ ــ : تَجَوَّزُوا عَنْهُ » .

رواه مسلم

(كنت أداين الناس فآمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجوزوا عن الموسر) .

وفى رواية :

(كنت أقبل الميسور وأتجاوز عن المعسور) .

(فتيانى) : معناه : غلمانى .

والتجاوز والتجوز معناهما : المسامحة فى الاقتضاء ، والاستيفاء وقبول ما فيه نقص يسير .

ويؤخذ من هذه الأحاديث :

فضل إنظار المعسر والوضع عنه ، إما كل الدين وإما بعضه من كثير أو قليل ، وفضل المسامحة فى الاقتضاء ، وفى الاستيفاء سواء استوفى من موسر أو معسر ، وفضل الوضع من الدين وأنه لا يحتقر

شيء من أفعال الخير ، فلعله سبب السعادة والرحمة .

تعليق :

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا ، فلقى الله فتجاوز عنه .

وروى مسلم عن عبد الله بن أبي قتادة أن أبا قتادة طلب غريما له فتوارى عنه ، ثم وجده فقال : إني معسر فقال : آللهِ[1] ، قال : اللهِ، قال: فإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضعْ عنه .

(١) آللهِ : قسم وسؤال ـ أي أبالله أنت معسر ؟! وباء القسم (تُضْمَر) ولاتظهرا كثيرا مع القسم ـ بالله ـ

١٨ – أَنْظِرُوا هذَيْنِ حتَّى يَصْطَلِحَا :

عن أبى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قَالَ : « تُفْتَحُ أَبوابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الاثنينِ ويَوْمَ الْخمِيسِ ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا إلاَّ رَجُلاً كانَتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَخِيهِ شَحناءُ فَيُقَال : أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا » .

رواه مسلم

(تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس) :

قال القاضى : قال الباجى : معنى فتحها كثرة الصفح والغفران ورفع المنازل ، وإعطاء الثواب الجزيل .

قال القاضى : ويحتمل أن يكون المعنى على ظاهره وأن فتح أبوابها علامة لذلك .

(والشحناء) : العداوة ، كأنه شحن بغضا له .

(أنظروا هذين) : أخروهما حتى يفيئا أى يرجعا إلى الصلح والمودة .

تعليق :

وردت أحاديث كثيرة فى تحريم الهجر فوق ثلاثة أيام بلا عذر شرعى ، ومما رواه مسلم :

عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله – ﷺ – قال : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام .

١٩ - أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِى :

عن أَبى هُرَيرَةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ - ﷺ - : إنَّ اللهَ يقولُ يومَ القِيامَةِ : أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِى ، الْيَوْمَ أُظِلّهُم فِى ظِلِّى يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلِّى .

رواه مسلم

قال الإمام النووى رحمه الله :

هذا الحديث فيه جواز قول الإنسان : « الله يقول » وهو الصواب الذى عليه العلماء كافة إلا ما قدمناه فى « كتاب الإيمان » عن بعض السلف من كراهة ذلك ، وأنه لا يقال : « يقول الله » بل يقال : « قال الله » وقدمنا أنه جاء بجوازه القرآن فى قوله تعالى : « والله يقول الحق » وأحاديث صحيحة كثيرة .

(المتحابون بجلالى) : أى بعظمتى وطاعتى لا للدنيا .

(يوم لا ظلَّ إلا ظلى) : قال القاضى : ظاهره أنه فى ظله من الحر والشمس ووهج الموقف وأنفاس الخلق ، وهذا قول الأكثرين .

وقال عيسى بن دينار : معناه كفه من المكاره وإكرامه وجعله فى كنفه وستره ، ومنه قولهم : السلطان ظل الله فى الأرض .

وقيل : يحتمل أن الظل هنا عبارة عن الراحة والنعيم ، يقال : هو فى عيش ظليل أى طيب .

٢٠ - الحب فى الله :

عن أبى هريرةَ عن النبىِّ - ﷺ - « أَنَّ رَجُلاً زارَ أخاً لهُ فى قريةٍ أُخرى ، فأَرْصَدَ اللهُ لهُ علَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فلَمَّا أَتَى عليهِ قالَ : أينَ تُريدُ ، قالَ : أُريدُ أخاً لى فى هذهِ القريةِ قالَ : هل لكَ عَلَيْهِ من نِعمَةٍ تَرُبُّها ؟ قالَ لاَ ، غَيْرَ أَنِّى أَحْبَبْتُه فى اللهِ - عَزَّ وجَلَّ - قال : فإنِّى رسولُ اللهِ إليكَ بأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ » .

رواه مسلم

(فأرصد الله على مَدْرَجَتِه مَلَكاً) : معنى أرصده : أقعده يرقبه .
(والْمَدْرَجَةُ) بفتح الميم والراء هى ا لطريق ، سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها أى يمضون ويمشون .

تَرُبُّها : بفتح التاء وضم الراء والباء المشددة أى تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك .

(بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه) :
قال العلماء :
محبة الله عبده هى رحمته له ورضاه عنه ، وإرادته له الخير ، وأن يفعل به فعل المحب من الخير ، وأصل المحبة فى حق العباد ميل القلب والله تعالى منزه عن ذلك .

ويؤخذ من الحديث :

فضل المحبة فى الله تعالى ، وأنها سبب لحب الله تعالى العبد وفيه فضيلة زيارة الصالحين والأصحاب .

وفيه أن الآدميين قد يرون الملائكة .

٢١ – فضلُ عيادةِ المريضِ :

عن أبى هريرةَ قال : قالَ رسولُ اللهِ – ﷺ – : إن اللهَ – عزَّ وجَلَّ – يقولُ يومَ القِيامَةِ : « يا ٱبنَ آدمَ مَرِضْتُ فلَم تَعُدْنِى ، قالَ يَارَبِّ كيفَ أعُودُك وأنتَ رَبُّ الْعَالمَينَ ؟ قالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عِبدِى فُلانًا مَرِضَ فلَمْ تَعُدْهُ ؟ أَمَا علِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ ؟ يا ٱبنَ آدمَ ٱسْتَطْعَمْتُكَ فلَمْ تُطْعِمْنِى ، قال : يارَبِّ وكَيْفَ أُطْعِمُكَ وأنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قال : أَمَا عَلِمْتَ أنهُ ٱسْتَطْعَمَكَ عَبْدِى فلانٌ فلَمْ تُطْعِمْهُ ؟ أما علمتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدِى ؟ يا ابنَ آدمَ استَسْقَيْتُكَ فلَم تَسْقِنِى ، قال يا ربِّ كيف أَسْقِيكَ وأنت رَبُّ العالَمينَ ؟ قالَ : استَسْقَاكَ عبدِى فلانٌ فلم تَسْقِهِ ، أَمَا إنك لو سَقَيْتَه وَجَدْتَ ذلك عِنْدِى » .

(رواه مسلم)

قال العلماء :

إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى ، والمراد العبد تشريفا للعبد وتقريبا له ، قالوا : ومعنى (وجدتنى عنده) أى وجدت ثوابى وكرامتى ، ويدل عليه قوله تعالى فى تمام الحديث : (لو أطعمته

لوجدت ذلك عندى) أى ثوابه والله أعلم .

تعليق :

وردت أحاديث فى فضل عِيادة المريض ومما رواه مُسلم :

عن ثوبان — مولى رسول الله — ﷺ — قال : قال رسول الله ﷺ : من عاد مريضا لم يزل فى خُرفَة (بضم الخاء وفتح الفاء) الجنة حتى يرجع .

أى يؤول به ذلك إلى الجنة واجتناء ثمارها .

كما وردت أحاديث فى إثابة المريض تحمل البشرى وتبين فضل الله تعالى ومن ذلك ما رواه مسلم .

فعن عبد الله قال : دخلت على رسول الله — ﷺ — وهو يُوعَكُ[1] فمسسته بيدى ، فقلت يا رسول الله : إنك لتوعك وعكا شديدا ، فقال رسول الله — ﷺ — أجل ، إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قال : فقلت : ذلك أن لك أجرين ، فقال رسول الله — ﷺ — ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها .

---

(١) يُوعَك : الوعْك بإسكان العين : قيل هو الحمى وقيل آلامها وتعبها .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة . .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة أنهما سمعا رسول الله ـ ﷺ . يقول : ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته[1]

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ دخل على أم السائب ـ أو أم المسيَّب ـ فقال : مالك يا أمَّ السائب ـ أو يا أمَّ المسيب ـ تزفزفين ، قالت : الحمى ـ لا بارك الله فيها .. فقال : لا تسبى الحمى فانها تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد[2] .

---

(١) الوصب : (بفتح الواو والصاد) الوجع اللازم الثابت (المرض) . والنصب (بفتح النون والصاد) التعب .

يهمه : يغمه .

(٢) تزفزفين : تتحركين حركة شديدة : أى ترعدين وخبث الحديد : صدؤه .

٢٢ – حَرَّمتُ الظّلمَ على نفسى :

عن أبى ذرٍّ عن النبىِّ – ﷺ – فيما رَوَى عن اللهِ تباركَ وتعالَى – أنهُ قالَ : « يا عبادى إنى حرَّمتُ الظُّلْمَ علىِ نفسى ، وجعلتُهُ بينَكُم مُحرَّمًا فلا تَظَّالَمُوا ، يا عبادِى .. كلُّكُمْ ضالّ إلا من هديته فاستهدونِى أَهدِكُمْ ، ياعبادى كلُّكُم جائعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُه فآستَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُم ، ياعبادِى .. كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فاستَكْسُونِى أَكْسِكمُ ، ياعبادِى .. إنكُمْ تُخْطِئوُنَ باللَّيْلِ والنَّهَارِ وأنَا أغفرُ الذُّنوبَ جميعًا فاستغفرونِى أَغفِرْ لكُم ، ياعبادى .. إنكُمْ لَنْ تَبْلُغوا ضُرِّى فَتَضُرُّونِى ، ولَنْ تَبْلغوا نَفْعِى فتَنْفَعُونِى ، ياعبادى .. لَوْ أَنَّ أَولَكُم وآخرَكُم وإنْسَكُم وجنَّكُم كانوا على أتقى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُم ما زَادَ ذَلكَ فى مُلْكِى شيئاً ، ياعِبادِى .. لو أَنَّ أوّلَكُم وآخرَكُم وإنسَكُم وجِنَّكُم كانوا على أَفْجَرِ قلبِ رجُلٍ واحِدٍ ما نَقَصَ ذلكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا .ياعبادى .. لو أَنَّ أَولَكُم وآخِرَكُم وإنسَكُم وجِنَّكم قاموا فى صَعِيدٍ واحِدٍ فسألونى فأعْطَيْتُ كلَّ إنسانٍ مَسْأَلتَهُ ما نَقصَ ذلكَ مِمَّا عِندى إلا

كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ ، ياعبادى إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُم أُحصِيهَا لَكُم ، ثم أُوَفِّيكُم إيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فلْيَحْمَدِ اللهَ ، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلكَ فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ » .

رواه مسلم

(إنى حرمت الظلم على نفسى) :

قال العلماء : معناه تقدست عنه وتعاليت ، والظلم مستحيل فى حق الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ إذ كيف يجاوز سبحانه حداً وليس فوقه من يطيعه ؟! وكيف يتصرف فى غير ملك والعالم كله فى ملكه وسلطانه ؟! .

(فلا تَظَّالموا) : بفتح التاء والظاء أى لا تتظالموا والمراد لا يظلم بعضكم بعضاً .

(كلكم ضال إلا من هديته) :

قال المازرى : ظاهر هذا أنهم خلقوا على الضلال إلا من هداه الله تعالى ، وفى الحديث المشهور « كل مولود يولد على الفطرة » فقد يكون المراد بالحديث الأول وصفهم بما كانوا عليه قبل مبعث النبى ـــ ﷺ ـــ وأنهم لو تركوا وما فى طباعهم من إيثار الشهوات والراحة وإهمال النظر لضلوا ، وفى هذا دليل لمذهب أصحابنا وسائر أهل السنة أن المهتدى هو من هداه الله ، وبهدى الله اهتدى ، وبإرادة الله تعالى ذلك ، وأنه سبحانه وتعالى إنما أراد هداية بعض عباده وهم

المهتدون ، ولم يرد هداية الآخرين ، ولو أرادها لاهتدوا .

(المِخْيَطُ) : بكسر الميم وفتح الياء هو الإبرة .

قال العلماء : هذا تقريب إلى الأفهام ومعناه لا ينقص شيئاً أصلا ، لأن ما عند الله لا يدخله نقص ، وعطاء الله تعالى من رحمته وكرمه ، وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص ، فضرب المثل بالمخيط فى البحر لأنه غاية ما يضرب به المثل فى القلة ، والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه ، فإن البحر من أعظم المرئيات عياناً وأكبرها ، والإبرة من أصغر الموجودات مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء والله أعلم .

تعليق :

روى مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله — ﷺ — قال : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم . وروى مسلم عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ — إن الله — عز وجل — يُملى للظالم ، فإذا أخذه لم يُفلته ، ثم قرأ ﴿ وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

٢٣ – تحريم الكبر :

عن أبي سعيد الخُدرِيِّ وأبي هريرةَ قالا : قال رسولُ الله ـــ ﷺ ـــ : « العِزُّ إزارُهُ والكِبرِيَاءُ رِداؤُهُ فمنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ » .

رواه مسلم

الضمير في قوله (إزاره ورداؤه) يعود إلى الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ للعلم به . وفيه محذوف تقديره قال الله تعالى : (ينازعني) أي يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك .

وهذا وعيد شديد في الكبر مصرح بتحريمه . وأما تسميته إزاراً ورداء فمجاز واستعارة حسنة كما تقول العرب : فلان شعاره الزهد . ودثاره التقوى ، لا يريدون الثوب الذي هو شعار أو دثار ، معناه صفته ، كذا قال المازري .. ومعنى الاستعارة هنا أن الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه وهما جمال له قال : فضرب ذلك مثلا لكون العز والكبرياء بالله تعالى أحق وله ألزم ، واقتضاهما جلاله . ومن مشهور كلام العرب : فلان واسع الرداء ، وغَمْرُ الرداء ، أي واسع العطية .

تعليق :

جاء الذم صريحاً عن الكبر في القرآن الكريم مقروناً بالوعيد الشديد ، وقد جعله الله تعالى سبباً في منع الخير والتوفيق عن صاحبه .

قال تعالى : ﴿ سأصرِفُ عن آياتيَ الذين يتكبرون فى الأرضِ بغيرِ الحق ﴾ .

وقال : ﴿ أليس فى جهنم مثوىً للمتكبرين ﴾ .

وقال : ﴿ ذلكم بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ .

وقال : ﴿ اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ .

٢٤ – النهىُ عن تقنيطِ الإنسانِ من رحمةِ اللهِ :

عن أبى جُنْدبَ أن رَسُولَ اللهِ – ﷺ – حَدَّثَ أَنَّ رجُلاً قال : واللهِ لا يغفرُ اللهُ لفُلانٍ ، وإنَّ اللهَ تعالى قالَ : « مَنْ ذَا الّذِى يَتَأَلّى علَىَّ أَنْ أغفِرَ لِفُلانٍ فَإنى قد غَفَرْتُ لفلانٍ ، وأحْبَطْتُ عَمَلَكَ » .

رواه مسلم

(يتألّى) : يحلف ، والأَلِيَّة اليمين . مثل عطية وعطايا قال الشاعر :

قليل الألايا حافظ ليمينه فإن سبقت منه الألية برّت

وفى الحديث دلالة لمذهب أهل السنة فى غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء الله غفرانها .

ويتأول حبوط عمل هذا على أنه أسقطت حسناته فى مقابلة سيئاته ، وسمى إحباطاً مجازاً ، ويحتمل أنه جرى منه أمر آخر أوجب الكفر ، ويحتمل أن هذا كان فى شرع من قبلنا وكان هذا حكمهم .

٢٥ – إذا أَحَبَّ اللهُ عبداً وضعَ لَهُ القَبُولَ فى الأرضِ :

عن أبى هريرةَ قال : قال رسولُ الله – ﷺ : إنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ عبداً دعا جِبريلَ فقال : إنّى أُحِبُّ فلاناً فأَحِبَّهُ ، قال : فيُحِبّهُ جِبرِيلُ ، ثم ينادِى فى السماءِ فيقولُ : إن اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فأَحِبُّوهُ ، فيُحِبُّهُ أَهلُ السماءِ ، قال : ثم يُوضَعُ له القَبُولُ فى الأرضِ ، وإذا أبْغَضَ عبداً دعا جِبريلَ فيقولُ : إِنى أُبغضُ فُلاناً فأبغِضْه ، قال : فَيُبْغضُهُ جبريلُ ، ثم يُنادِى فى أهلِ السماءِ إنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلاناً فأَبْغِضُوهُ ، قال : فَيُبغِضُونَهُ ، ثم تُوضَعُ له البَغْضَاءَ فى الأرضِ .

رواه مسلم

قال العلماءُ : محبة الله تعالى لعبده هى إرادته الخير له . وهدايته وإنعامه عليه ، ورحمته ، وبغضه إرادة عقابه أو شقاوته ونحوه .

وحب جبريل والملائكة يحتمل وجهين :
أحدهما : استغفارهم له وثناؤهم عليه ودعاؤهم .

والثانى : أن محبتهم على ظاهرها المعروف من المخلوقين وهو ميل القلب إليه ، واشتياقه إلى لقائه .
وسبب حبهم إياه كونه مطيعاً لله تعالى محبوباً له .

ومعنى (يوضع له القبول فى الأرض) أى الحب فى قلوب الناس ورضاهم عنه . فتميل إليه القلوب وترضى عنه وقد جاء فى رواية (فتوضع له المحبة) .

٢٦ - كيفيةُ خَلْقِ ابنِ آدمَ فى بَطْنِ أُمِّهِ :

عَنْ عبدِ الله قالَ : حدَّثَنا رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ وهو الصادقُ المصْدُوقُ ـ « إنَّ أَحدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُه فى بطنِ أُمِّهِ أربعين يوماً ، ثم يكونُ فى ذلك عَلَقةً مِثْل ذلك ، ثم يكونُ فى ذلكَ مُضْغَةً مثلَ ذلكَ ، ثم يُرسِلُ اللهُ تعالى المَلَكَ فيَنْفُخُ فيه الرُّوحَ ، ويُؤْمَرُ بأربعِ كَلِمَاتٍ : بكَتْبِ رِزقِهِ وأجَلِهِ وعَمَلِهِ ، وشقى أو سَعيد ، فوالذى لا إلهَ غيره إن أحدَكُم لَيَعْمَلُ بعَمَلِ ـ أهلِ الجنةِ حتى ما يكون بينَه وبينَها إلا ذِراعٌ فيسبِقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخلُها ، وإن أحدَكُم لَيَعْمَلُ بعملِ أهِلِ النَّارِ حتى ما يكون بينَه وبينَها إلا ذِراعٌ فيسبقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ فيدخلُها » .

رواه مسلم

(الصادق المصدوق) معناه الصادق فى قوله المصدوق فيما يأتى من الوحى الكريم .

(ثم يرسل الملك) ظاهره أن إرساله يكون بعد مائة وعشرين يوما . وفى الزواية التى بعيد هذه « يدخل الملك على النطفة بعد ما

تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يارب أشقى أم سعيد ؟ » .

وفى الرواية الثالثة « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها » وفى رواية حذيفة بن أسَيد « أن النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك » .

وفى رواية « ان ملكاً موكلا بالرحم إذا أراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله لبضع وأربعين ليلة » وذكر الحديث .

وفى رواية أنس « ان الله قد وكل بالرحم ملكا فيقول : أى رب نطفة ! أى رب علقة ! أى رب مضغة ! » .

قال العلماء :

طريق الجمع بين هذه الروايات أن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة وأنه يقول : يارب هذه علقة ، هذه مضغة فى أوقاتها .. فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله تعالى — وهو أعلم سبحانه ، ولكلام الملك وتصرفه أوقات ، أحدهما : حين .. يخلقها الله تعالى نطفة ، ثم ينقلها علقة وهو أول علم الملك بأنه ولد ، لأنه ليس كل نطفة تصير ولداً وذلك عقب الأربعين الأولى وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته ، ثم للملك فيه تصرف آخر فى وقت آخر وهو تصويره وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظمه ،

وكونه ذكراً أم أنثى ، وذلك إنما يكون فى الأربعين الثالثة ، وهى مدة المضغة وقبل انقضاء هذه الأربعين وقبل نفخ الروح فيه لأن نفخ الروح لا يكون إلا بعد تمام صورته .

وأما قوله فى احدى الروايات « فإذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها ، وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب أجله ، فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، وذكر رزقه » فقد قال القاضى وغيره : إن المعانى الواردة فى هذه الرواية ليست على ظاهرها ولا يصح حملها على ذلك ، بل المراد بتصويرها وخلق سمعها إلى آخره أنه يكتب ذلك ، ثم يفعله فى وقت آخر ، لأن التصوير عقب الأربعين الأولى غير موجود فى العادة وإنما يقع فى الأربعين الثالثة ، وهى مدة المضغة ، كما قال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ﴾ثم يكون للملك فيه تصوير آخر ، وهو وقت نفخ الروح عقب الأربعين الثالثة حين يكمل له أربعة أشهر ، واتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر ، ووقع فى رواية البخارى « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ، ثم يكون علقة مثله ، ثم يكون مضغة مثله ، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه

وأجله وشقى أو سعيد به ثم ينفخ فيه » فقوله : (ثم يبعث) « بحذف « ثم » يقتضى تأخير كتب الملك هذه الأمور إلى ما بعد الأربعين الثالثة . والأحاديث الباقية تقتضى الكتب بعد الأربعين الأولى . وجوابه أن قوله : « ثم يبعث إليه الملك فيؤذن » معطوف على قوله : « يجمع فى بطن أمه » متعلق به لا بما قبله .

قال القاضى وغيره :

والمراد بإرسال الملك فى هذه الأشياء أمره بها وبالتصرف فيها بهذه الأفعال ، ثم المراد بجميع ما ذكر من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة والعمل والذكورة والأنوثة أنه يظهر ذلك للملك ويأمره بانفاذه وكتابته وإلا فقضاء الله تعالى سابق على ذلك ، وعلمه وإرادته لكل ذلك موجود فى الأزل والله أعلم .

(فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق علمه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار الخ) :

المراد بالذراع التمثيل للقرب من موته ودخوله عقبه . وأن تلك الدار ما بقى بينه وبين أن يصلها إلا كمن بقى بينه وبين موضع من الأرض ذراع ، والمراد بهذا الحديث أن هذا قد يقع فى نادر من الناس لا أنه غالب فيهم . ثم أنه من لطف الله تعالى وسعة رحمته انقلاب الناس من الشر إلى الخير في كثرة ، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر

ففى غاية الندور ونهاية القلة ، وهو نحو قوله تعالى « ان رحمتى سبقت غضبى . وغلبت غضبى » ويدخل فى هذا من انقلب إلى عمل النار بكفر أو معصية . لكن يختلفان فى التخليد وعدمه فالكافر يخلد فى النار والعاصى الذى مات موحداً لا يخلد فيها ويؤخذ من الحديث :

١ – التصريح بإثبات القدر .
٢ – وأن التوبة تهدم الذنوب قبلها .
٣ – وأن من مات على شىء حكم له به من خير أو شر إلا أن أصحاب المعاصى غير الكفر فى المشيئة .
٤ – النهى عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر بل تجب الأعمال والتكاليف التى ورد الشرع بها . وكل ميسر لما خلق له لا يقدر على غيره . ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل السعادة . ومن كان من أهل الشقاوة يسَّره الله لعملهم كما قال : فسنيسره لليسرى وللعسرى . وكما صرحت به هذه الأحاديث .

تعليق :

فى هذه المعانى السابقة روى الإمام مسلم :

عن على قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ – فقعد وقعدنا حوله ومعه مِخْصَرَةٌ[1] فنكس ..!! فجعل ينكت ..!!

(١) المخصرة بكسر الميم كمكنسة ما يتوكأ عليه كالعصا ، وما يأخذه الملك يشير به إذا

بمخصرته[1] . ثم قال ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتب شقية أو سعيدة ، قال : فقال رجل . يارسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ .. فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة إلى عمل أهل الشقاوة ، فقال اعملوا فكل ميسر ز أما أهل السعادة فييسرون إلى عمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

ويعلق النووى على هذا الحديث وأشباهه بقوله : هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة فى إثبات القدر وأن جميع الواقعات بقضاء الله تعالى وقدره خيرها وشرها ، نفعها وضرها ، قال الله تعال : - « لا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون » ، فهو ملك الله تعالى يفعل ما يشاء ولا اعتراض علي المالك فى ملكه ، ولأن الله تعالى لا علة لأفعاله ، قال الإمام أبو المظفر السمعانى :

= خاطب ، والخطيب إذا خطب وذو المخصرة عبد الله بن أنَيس لأن النبى ﷺ أعطاه مخصرة وقال له : تلقانى بها فى الجنة . القاموس المحيط .

(١) نكس : خفض رأسه وطأطأ إلى الأرض على هيئة المهموم .

وينكت : بفتح الياء وضم الكاف - أى يخط بها خط يسيرا مرة بعد مرة وهذا فعل المفكر المهموم .

سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ، ومجرد العقول ، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه فى بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء النفس ، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب ، لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التى ضربت من دونها الأستار ، اختص الله به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة ، وواجبنا أن نقف حيث حد لنا ، ولا نتجاوزه ، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم فلم يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ، وقيل : إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف قبل أن يدخلوها والله أعلم .

٢٧ – رؤيةُ المؤمنينَ لِرَبِّهمْ سبحانه وتعالى فى الآخرةِ :

عن صُهَيْبٍ عن النبىِّ – صلى الله عليهِ وسلَّمَ – قال : إذا دخل (أهلُ الجَنَّةِ) الجنَّةَ قالَ : يقولُ الله – تبارك وتعالى – : «تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ ؟ فيقولون : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجوهَنا ؟ .. أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجنةَ ؟ .. وتُنَجِّنَا من النارِ ؟ .. قال : فيُكْشَفُ الحجابُ ، فما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهِم من النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ عزَّ وجَلَّ » .

تكلم الإمام النووى عن إمكانية رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة فقال : اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلا ، وأجمعوا أيضا على وقوعها فى الآخرة ، وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين .

وزعمت طائفة من أهل البدع : المعتزلة والخوارج ، وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه ، وأن رؤيته مستحيلة عقلا ، وهذا الذى قالوه خطأ صريح وجهل قبيح ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى فى الآخرة للمؤمنين ، ورواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ – وآيات القرآن فيها مشهورة ، واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبة مشهورة فى كتب

المتكلمين من أهل السنة ، وكذلك باقى شبههم وهى مستقصاه فى كتب الكلام ، وليس بنا ضرورة إلى ذكرها هنا .

أما رؤية الله تعالى فقد قدمنا أنها ممكنة . ولكن الجمهور من السلف والخلف من المتكلمين وغيرهم أنها لاتقع فى الدنيا ، وحكم الإمام أبو القاسم القشيرى فى رسالته المعروفه عن الإمام أبى بكر بن فورك أنه حكى فيها قولين للإمام أبى الحسن الأشعرى أحدهما : وقوعها . والثانى : لا تقع . ثم مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى فى خلقه ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ، ولا مقابلة المرئى ، ولا غير ذلك ، لكن جرت العادة فى رؤية بعضنا بعضاً بوجود ذلك على جهة الاتفاق ، لا على سبيل الاشتراط .

وقد قرر أئمتنا المتكلمون ذلك بدلائله الجلية ، ولا يلزم من رؤية الله إثبات جهة ــ تعالى عن ذلك ــ بل يراه المؤمنون لا فى جهة ، كما يعلمونه لا فى جهة .

ويقول النووى تعليقاً على إسناد هذا الحديث : هذا الحديث هكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن ابن أبى ليلى عن صهيب عن النبى ــ ﷺ .

قال أبو عيسى الترمذى وأبو مسعود الدمشقى وغيرهما : لم يَرْوِهِ هكذا مرفوعاً عن ثابت غير حماد بن سلمة ، ورواه سليمان بن المغيرة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن واقد عن ثابت عن ابن أبى ليلى من

قوله ليس فيه ذكر النبى - ﷺ - ولا ذكر صهيب، وهذا الذى قاله هؤلاء ليس بقادح فى صحة الحديث، فقد قدمنا فى الفصول: أن المذهب الصحيح المختار الذى ذهب إليه الفقهاء وأصحاب الأصول والمحققون من المحدثين، وصححه الخطيب البغدادى أن الحديث إذا رواه بعض الثقاة متصلا، وبعضهم مرسلاً، أو بعضهم مرفوعاً، وبعضهم موقوفاً، حكم بالمتصل وبالمرفوع، لأنهما زيادة ثقة، وهى مقبولة عند الجماهير من كل الطوائف والله أعلم.

٢٨ - آخرُ أهلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا :

عن عطاءِ بنِ يَزَيِدِ اللَّيْثِيّ أن أبا هريرةَ أخبرَهُ أنَّ ناساً قالوا لِرَسُول الله ـــ صلى الله عليهِ وسلَّمَ ـــ يا رسولَ الله هل نرى رَبَّنَا يومَ القيامة ؟ فقالَ رسولُ الله ـــ صلى الله عليهِ وسَلَّمَ ـــ « هلْ تُضَارُّونَ فى رُؤْيةِ القمر ليلةَ البدْرِ ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : هَلْ تُضَارُّونَ فى الشمسِ ليس دونَها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسولَ الله ، قال : فإنكُم تَرَوْنَه كذلكَ ، يجمعُ الله الناسُ يومَ القيامةِ فيقولُ : من كان يعبدُ شيئاً فليتبعهُ ، فَيَتْبَعُ مَنْ كانَ يعبدُ الشمسَ الشَّمسَ ، ويَتْبَعُ من كان يعبدُ القمرَ القمرَ ، ويَتْبَعُ من كان يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ ، وتبقى هذه الأمةُ فيها مُنافقوهَا ، فيأتيهمُ الله تباركَ وتعالَى فى صورة غير صورتِه التى يعرفونَ، فيقولُ أنا: ربُّكُمْ . فيقولون نعوذُ بالله منكَ ، هذا مكانُنا حتى يَأْتِينَا ربُّنا ، فإذا جاءَ ربُّنا عَرَفْنَاهُ ، فيأتيهمُ الله تعالى فى صُورتِه التى يَعرفونَ ، فيقولُ : أنا رَبُّكُمْ ، فيقولون : أنتَ ربُّنا فَيَتْبَعُونَهُ ، ويُضْرَبُ الصِّراطُ بينَ ظَهَرىْ جَهَنَّمَ فأكون أنا وأمتى أولَ مَنْ يُجيزُ ، ولا يَتَكَلَّمُ يومئذٍ إلا الرَّسُولُ

ودَعْوَى الرُّسُلِ يومَئِذٍ : اللَّهُمَّ سَلِّم سَلِّمْ ، وفى جهنمَ كَلاليبُ مثلُ شوكِ السَّعْدان هل رأيتم السعدانَ ؟ قالوا : نعَمْ يا رسولَ الله : فإنها مثلُ شوكِ السَّعدَانِ غيرَ أنهُ لا يَعْلمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إلا الله ، تَخْطَفُ الناسَ بأعمالِهِمْ ، فمِنْهُمْ المؤمِنُ بَقِىَ بعمَلِهِ ، ومِنْهُمُ المجَازَى حتى يُنَجَّى ، حتى إذا فَرَغ الله منَ القضاءِ بينَ العبادِ ، وأرادَ أن يخْرِجَ برَحمته من أرادَ مِنْ أهلِ النارِ ، أَمَرَ الملائكة أنِ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لا يُشْرِكُ بالله شيئاً مِمَّن أرادَ الله تعالَى أن يَرْحَمَهُ مِمِّنْ يقولُ : لا إلهَ إلا الله ، فيَعْرِفُونَهُمْ فى النَّارِ ، يَعْرفونهم بأثَرِ السُّجُودِ ، تأكُلُ النارُ من ابنِ آدمَ إلا أثرَ السّجودِ ، حرَّمَ الله على النارِ أن تأكلَ أثَرَ السُّجودِ ، فيَخرُجُونَ من النارِ وقَدِ امتَحَشُوا فيُصَبُّ علَيْهِمْ مَاء الحياةِ ، فيَنْبُتُونَ منهِ كَمَا تَنْبُتُ الحَبّةُ فى حَمِيلِ السَّيْلِ ، ثم يَفْرُغُ الله تعالَى مِنَ القَضَاءِ بينَ العَبادِ ، ويَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ وَهُوَ آخرُ أهلِ الجنةِ دخولاًالجَنَّةَ ، فيقولُ : أىْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِى عنِ النَّارِ فإنّهُ قد قَشَبَنِى ريحُها ، وأحْرَقَنِى ذُكَاؤهَا ، فيدعو اللهَ مَا شاءَ الله أن يَدْعُوَه ، ثم يقولُ الله تباركَ وتعالَى : هَلْ عَسَيْتَ إن فعلتُ ذلكَ بكَ أن تَسأَلَ

غيَرهُ ؟ فيقولُ : لا أسأَلُكَ غيرهُ ، ويُعْطِى ربَّهُ من عهودٍ ومواثيقَ ما شاءَ الله ، فيصرِفُ الله وجهَهُ عَنِ النَّارَ ، فإذا أقبلَ على الجنةِ ورآها سكتَ ما شاءَ الله أن يَسكُتَ ، ثم يقولُ : أىْ رَبِّ قَدِّمْنى إلى باب الجَنَّةِ ، فيقولُ الله له أَلَيْسَ قدْ أعْطَيْتَ عُهُودَكَ ومَواثِيقَكَ لا تَسْأَلْنى غيرَ الذى أعْطَيْتُكَ ؟ وَيْلَكَ يا ابنَ آدمَ ما أغْدَرَكَ ، فيقولُ : أىْ رَبِّ ، ويدعو الله حتى يقولَ لهُ : فهل عَسَيْتَ إن أعطيتُك ذلك أن تسألَ غيرَه ؟ فيقولُ : لا وعِزَّتِك ، فيُعْطِى رَبَّهُ ما شاءَ الله من عهودٍ ومواثيقَ ، فيُقدّمُهُ إلى باب الجَنّةِ ، فإذا قام على بابِ الجنةِ آنفَهَقَتْ لهُ الجنةُ فرأى ما فيها مِنَ الخير والسرورِ ، فيسكتُ ما شاء الله أن يسكتَ ، ثم يقولُ : أىْ رَبِّ أَدخِلْنى الجنةَ ، فيقولُ الله تباركَ وتعالى لهُ : أليسَ قدْ أَعْطَيتَ عُهُودَكَ ومواثيقَكَ أن لا تسألَ غيرَ ما أعطيتَ ؟ ويلكَ يا ابنَ آدمَ ماأغدَرَكَ ، فيقولُ : أىْ رَبِّ لا أكونُ أشقى خَلْقِكَ ، فلا يزالُ يدعو الله حتى يضحكَ الله تبارك وتعالى ـــ مِنْهُ ، فإذا ضَحِكَ الله منهُ ، قال آدخُلِ الجَنةَ ، فإذا دخلَها قال الله له : تَمَنَّهْ ، فيَسأَلُ رَبَّهُ ويَتَمَنَّى حتَّى إن الله ليُذَكِّرُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا حتى إذا انقطعت بهِ الأَمَانِى ، قال الله تعالى : ذلِكَ لَكَ ومِثلُه مَعَهُ »

قال عطاءُ بنُ يزيدَ وأبو سعيدٍ الخُدريُّ معَ ابى هريرة لا يَرُدُّ عليهِ من حديثهِ شيئاً .

حتى إذَا حَدَّثَ أبو هريرة أَن اللهَ قالَ لذلكَ الرجل « ومثلُه مَعَهُ » قال أبو سعيدٍ « وعَشَرَةُ أمثالِه معَهُ » يا أبا هُريرَةَ .

قال أبو هريرة : ما حَفِظْتُ إلا قولَه : « ذلكَ لكَ ومثلُه مَعَهُ » .

قال أبو سعيد : أشهدُ أنّي حَفِظْتُ مِنْ رسولِ اللهِ — صلى الله عليه وسلَّمَ — قولَهُ : « ذلكَ لَكَ وعَشَرَةُ أمثالِه » .

قال أبو هريرةَ : وذلكَ الرجلُ آخرُ أهلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ .

رواه مسلم

(هل تُضارُّون فى القمر ليلة البدر) بضم التاء وضم الراء المشددة وفى الرواية الأخرى : (هل تضَامون) ، وروى (تُضَارُون) بضم التاء وبضم الراء غير المشددة .

ومعنى المشدد : هل تُضَارُّون غيركم فى حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة فى الرؤية أو غيرها لخفائه كما تفعلون أول ليلة من الشهر .

ومعنى المخفف : هل يلحقكم فى رؤيته ضير وهو الضرر .

وروى أيضاً (تضامون) بتشديد الميم وتخفيفها ، فمن شددها فتح التاء ، ومن خفَّفَها ضم التاء ، ومعنى المشدد : هل تَضَامُّون وتتلطفون فى التوصل إلى رؤيته ، ومعنى ، المخفف : هل تُضَامُون أى : يلحقكم ضيم وهو المشقة والتعب .

قال القاضى عياض رحمه الله ـــ وقال فيه بعض أهل اللغة تَضارُّون أو تَضامُّون بفتح التاء وتشديد الراء والميم ، وأشار القاضى بهذا إلى أن غير هذا القائل يقولهما بضم التاء سواء شدد أو خفف ، وكل هذا صحيح ظاهر المعنى .

وفى رواية للبخارى « لا تضامون » أو « لا تضارون » على الشك ومعناه لا يشتبه عليكم وترتابون فيه فيعارض بعضكم بعضاً فى رؤيته والله أعلم .

(فإنكم ترونه كذلك) :

معناه تشبيه الرؤيه بالرؤيه فى الوضوح وزوال الشك والمشقة والاختلاف .

(الطواغيت) :

هو جمع طاغوت ، قال الليث وأبو عبيدة والكسائى وجماهير أهل اللغة : الطاغوت — كل ما عبد من دون الله تعالى ، وقال ابن عباس ومقاتل والكلبى وغيرهم : الطاغوت الشيطان ، وقيل هو الأصنام ، قال الواحدى : الطاغوت يكون واحداً وجمعا ويؤنث ويذكر ، قال الله تعالى : —﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾— فهذا فى الواحد ، وقال تعالى فى الجمع : —﴿ الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم ﴾— وقال فى المؤنث : — ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ﴾— قال الواحدى : ومثله من الأسماء الفلك يكون واحداً وجمعا ومذكراً ومؤنثاً .

قال النحويون : وزنه فَعَلُوت والتاء زائدة وهو مشتق من طغى وتقديره : طغووت ثم قلبت الواو ألفا والله أعلمَ ..

(وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها) :

قال العلماء : إنما بقوا فى زمرة المؤمنين ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا متسترين بهم فيتسترون بهم أيضاً فى الآخرة . وسلكوا مسلكهم ودخلوا فى جملتهم ، وتبعوهم ومشوا فى نورهم ، حتى ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قِبَلِه العذاب ، وذهب عنهم نور المؤمنين .

قال بعض العلماء : هؤلاء هم المطردون عن الحوض الذين يقال لهم : سحقاً سحقاً والله أعلم .

(فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم فيقولون : نعوذ منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه) .

اعلم لأهل العلم فى أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين : أحدهما ــ وهو مذهب معظم السلف أو كلهم ــ أنه لا يتكلم فى معناها . بل يقولون : يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شىء . وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيز فى جهة . وعن سائر صفات المخلوق . وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين . واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم .

والقول الثانى -وهو مذهب معظم المتكلمين- أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها . وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله أن يكون بأن يكون عارفا بلسان الغرب وقواعد الأصول والفروع ذا رياضة فى العلم ، فعلى هذا المذهب يقال فى قوله ــ ﷺ ــ « فيأتيهم الله » أن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إياه . لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته إلا بالاتيان فعبر بالإتيان والمجىء هنا عن الرؤية مجازاً وقيل : الإتيان فعل من أفعال الله تعالى سماه إتياناً ، وقيل : المراد

بيأتيهم الله أى بعض ملائكة الله . قال القاضي عياض رحمه الله : هذا الوجه أشبه عندى بالحديث . قال : ويكون الملك الذى جاءهم فى الصورة التى أنكروها من سمات الحدث الظاهر على الملكْ والمخلوق .

قال : أو يكون معناه : يأتيهم الله فى صورة أى يأتيهم بصورة يظهر لهم من صور ملائكته ومخلوقاته التى لا تشبه صفات الاله ليختبرهم ، وهذا آخر امتحان المؤمنين ، فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة : أنا ربكم : رأوا عليه من علامات المخلوقات ما ينكرونه ، ويعلمون أنه ليس ربهم ، ويستعيذون بالله منه .

فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفونها) :

المراد بالصورة هنا الصفة ومعناه : فيتجلى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التى يعلمونها ويعرفونه بها ، وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية الله سبحانه وتعالى لأنهم يرونه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته وقد علموا أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون : أنت ربنا ، وإنما عبر بالصورة عن الصفة لمشابهتها إياها ولمجانسة الكلام فإنه تقدم ذكر الصورة .

(نعوذ بالله منك) :

قال إلخطابى : يحتمل أن تكون هذه الاستعاذة من المنافقين خاصة ، وأنكر القاضى عياض هذا وقال : لا يصح أن تكون من قول المنافقين ، ولا يستقيم الكلام به ، وهذا الذى قاله القاضى هو

الصواب ، ولفظ الحديث مصرح به أو ظاهر فيه ، وإنما استعاذوا منه لما قدمناه من كونهم رأوا سماتِ المخلوق.

(فيتبعونه) :

معناه : يتبعون أمره إياهم بذهابهم إلى الجنة أو يتبعون ملائكته الذين يذهبون بهم إلى الجنة والله أعلم .

(ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم) :

ظَهْرى بفتح الظاء وسكون الهاء ومعناه : يمد الصراط عليها ، وفى هذا اثبات الصراط . ومذهب أهل الحق اثباته ، وقد أجمع السلف على إثباته . وهو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم . فالمؤمنون ينجون على حسب حالهم أى منازلهم ، والآخرون يسقطون فيها أعاذنا الله الكريم منها ، وأصحابنا المتكلمون وغيرهم من السلف يقولون : إن الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف كما ذكره أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه هنا فى روايته الأخرى المذكورة فى الكتاب والله تعالى أعلم .

(فأكون أنا وأمتى أول من يجيز) :

يُجِيز : بضم الياء وكسر الجيم معناه : يكون أول من يمضى عليه . ويقطعه ، ويقال أَجَزْت الوادى وجُزْتُه لغتان بمعنى واحد ، وقال الأصمعى : أجزته قطعته ، وجزته مشيت فيه والله أعلم .

(ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل) :

معناه : لشدة الأهوال ، والمراد لا يتكلم فى حال الإجازة ، وإلا ففى يوم القيامة مواطن يتكلم الناس فيها ، وتجادل كل نفس عن نفسها . ويسأل بعضهم بعضاً . ويتلاومون . ويخاصم التابعون المتبوعين والله أعلم .

(ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم) :

هذا من كمال شفقتهم ورحمتهم للخلق . وفيه أن الدعوات تكون بحسب المواطن . فيدعى فى كل مواطن بما يليق به والله أعلم .

(وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان) :

أما الكلاليب فجمع كَلُّوب بفتح الكاف وضم اللام المشددة وهو حديد معطوفة الرأس يعلق فيها اللحم وترسل فى التنور ، قال صاحب المطالع : هى خشبة فى رأسها عقافة حديد . وقد تكون حديدا كلها . ويقال لها أيضاً : كلاب .

وأما السَّعْدان بفتح السين واسكان العين فهو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب .

(تَخطف الناس بأعمالهم) :

تخطف بفتح الطاء ويجوز كسرها . يقال : خطِف وخطَف بكسر الطاء وفتحها والكسر أفصح . ويجوز أن يكون معناه : تخطفهم

بسبب أعمالهم، ويجوز أن يكون معناه : تخطفهم على قدر أعمالهم والله أعلم .

(فمنهم المؤمن بقي بعمله ومنهم المجازى حتى ينجى) :

أما الأول[1] فذكر القاضي عياض رحمه الله أنه روى على ثلاثة أوجه : أحدها : المؤمن يقى بعمله بالميم والنون . ويقى بالياء والقاف . والثاني : الموثق بالثاء والقاف . والثالث : الموبق يَعْنَى بعمله . فالموبق بالباء والقاف . ويعنى بفتح الياء وبعدها العين ثم النون . قال القاضي : هذا أصحها . وكذا قال صاحبا المطلع : هذا الثالث هو الصواب . قال : وفى « يقى » على الوجه الأول ضبطان : أحدهما بالياء . والثاني بالباء من الوقاية . قلت والموجود فى معظم الاصول ببلادنا هو الوجه الأول .

(ومنهم المجَازَى) : بفتح الجيم والزاى

ضبطناه بالجيم والزاى من المجازاة . وهكذا هو فى أصول بلادنا فى هذا الموضع . وذكر القاضي عياض رحمه الله فى ضبطه خلافاً فقال : رواه العذرى وغيره المجازى كما ذكرناه . ورواه بعضهم « المخردل » بالخاء والدال واللام . ورواه بعضهم فى البخارى « المجردل » بالجيم . فأما الذى بالخاء فمعناه المقطع أى بالكلاليب . يقال : خردلت اللحم أى قطعته . وقيل : خردلت بمعنى صرعت . ويقال بالذال أيضاً . والجردلة بالجيم الإشراف على الهلاك والسقوط .

(١) وهو المؤمن

(تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود) :

ظاهر هذا أن النار لا تأكل جميع أعضاء السجود السبعة التى يسجد الإنسان عليها وهى الجبهة واليدان والركبتان والقدمان وهكذا قاله بعض العلماء، وأنكره القاضى عياض رحمه الله وقال: المراد بأثر السجود الجبهة خاصة ، والمختار الأول ، فإن قيل : قد ذكر مسلم بعد ذلك مرفوعاً ، أن قوماً يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات الوجوه فالجواب : أن هؤلاء القوم مخصوصون من جملة الخارجين من النار بأنه لا يسلم منهم من النار إلا دارات الوجوه ، وأما غيرهم — فيسلم جميع أعضاء السجود منهم عملا بعموم هذا الحديث ، فهذا الحديث عام ، خاص ، فيعمل بالعام إلا ما خص والله أعلم .

(فيخرجون من النار وقد امتحشوا) .

امتَحَشوا بفتح التاء والحاء معناه : احترقوا ، ورواه بعض شيوخنا بضم التاء وكسر الحاء والله أعلم .

(فينبتون منه كما تنبت الحبة فى حميل السيل) :

هكذا هو فى الأصول فينبتون « منه » بالميم والنون ، وهو صحيح . ومعنها : ينبتون بسببه .

وأما الحِبة بكسر الحاء فهى بزر البقول والعشب تنبت فى البرارى

وجوانب السيول ، وجمعها جِبَب بكسر الحاء وفتح الباء . وأما حَمِيل السيل بفتح الحاء وكسر الميم فهو ما جاء به السيل من طين أو غثاء ومعناه : محمول السيل والمراد التشبيه فى سرعة النبات وحسنه وطروانه .

(قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها) :

أما قَشَبنى بفتح القاف والشين معناه : سمنى وآذانى وأهلكنى ، كذا قاله الجماهير من أهل اللغة ، وقال الداودى : معناه غير جلدى وصورتى .

وأما ذَكاؤها هكذا واقع فى جميع روايات الحديث ذكاؤها بالمد وهو بفتح الذال ومعناه : لهبها واشتعالها وشدة وهجها ، والأشهر فى اللغة ذكاها مقصور ، وذكر جماعات أن المد والقصر لغتان ، يقال : ذكت النار تذكو ذكا إذا اشتعلت ، وأذكيتها أنا والله أعلم .
(هل عسيت) :

عسيتَ بفتح التاء على الخطاب ، ويقال بفتح السين وكسرها لغتان وقرىء بهما فى السبع ، قرأ نافع بالكسر والباقون بالفتح وهو الأفصح الأشهر فى اللغة ، ولا ينطق فى عسيت بمستقبل . (فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة فرأى مافيها من الخير) : أما الخير بالخاء والياء هذا هو الصحيح المعروف فى الروايات والأصول ، وحكى القاضى عياض رحمة الله أن بعض الرواة في مسلم رواه « الحَبْر » بفتح الحاء وإسكان الباء ومعناه السرور . قال صاحب

المطالع : كلاهما صحيح . قال : والثانى أظهر . ورواه البخارى الحبر والسرور . والحبرة المسرة .

وأما انْفَهَقَت بفتح الفاء والهاء والقاف معناه : انفتحت واتسعت .

(فلا يزال يدعو الله تعالى حتى يضحك الله تعالى منه) :

قال العلماء : ضحك الله تعالى منه وهو رضاه بفعل عبده ومحبته إياه وإظهار نعمته عليه وإيجابها عليه والله أعلم .

(فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله تعالى ليذكره من كذا وكذا) : معناه يقوله له : تمن من الشىء الفلانى . ومن الشىء الآخر يسمى له أجناس ما يتمنى . وهذا من عظيم رحمته سبحانه وتعالى .

قوله فى رواية أبى هريرة :

لك ذلك ومثله معه) وفى رواية أبى سعيد (وعشرة أمثاله) : قال العلماء : وجه الجمع بينهما أن النبى ﷺ أعلم أولا بما فى حديث أبى هريرة ، ثم تكرم الله تعالى فزاد ما فى رواية أبى سعيد فأخبر به النبى ــ ﷺ ــ ولم يسمعه أبو هريرة .

٢٩ إخراجُ عُصاةِ المؤمنينَ مِنَ النَّار :

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ أَن ناساً فى زمن رسولِ الله ــ صلى الله عليهِ وسلَّمَ ــ قالوا : يا رسولَ الله هل نرى ربَّنَا يومَ القِيامةِ ، قالَ رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلَّمَ ــ نعَمْ .. قالَ : هَل تُضَارُّونَ فى رؤيةِ الشمسِ بالظهيرةِ صَحْواً ليس مَعَهَا سَحابٌ ؟ وهل تُضارُّونَ فى رؤيةِ القمرِ ليلةَ البَدْرِ صَحْواً ليس فيها سحابٌ ؟ قالوا : لا يا رسولَ الله ، قال : ما تُضارُّونَ فى رؤيةِ الله تباركَ وتَعالَى يومَ القيامَةِإلا كمَا تُضَارُّونَ فى رؤية أحَدِهِمَا * إذا كانَ يومُ القِيامةِ أَذَّنَ مُؤَذِّن لِيَتَّبِعْ كُلُّ أمةٍ ما كَانتْ تَعبُدُ فلا يَبْقَى أحدٌ كان يعبُدُ غيَرَ الله سبحانَه وتعالى من الأصنامِ والأنصاب إلا يَتَساقَطونَ فى النارِ حتى إذا لم يَبْقَ إلا مَنْ كَان يعبدُ الله من بَرٍّ وفاجرٍ ، وغُبَّرُ أهلِ الكتابِ ، فيُدْعَى اليهودُ فيُقالُ لهمْ : ما كُنتُم تَعبدونَ ؟ ، قالوا : كنا نعبدُ عُزَيرَ ابنَ الله ، فيُقالُ : كذَبْتُمْ ما اتخذَ الله مِن صاحبةٍ ولا وَلَدٍ ، فماذا تَبْغُونَ ؟ ، قالوا : عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فاسقِنَا فَيُشَارُ إليهِمْ أَلَا تَرِدُونَ ، فيُحْشَرون إلى النارِ كأنّها سَرابٌ يَحْطِمُ بعضُها

بعضاً فيتساقطونَ فى النارِ ، ثم يُدْعَى النصارى فيُقالُ لَهُمْ :
ما كُنتُم تعبُدونَ ؟ قالوا : كنا نعبُد المسيحَ ابنَ الله ، فيُقالُ
لهُمْ : كذَبْتُم ما اتَّخذَ الله مِنْ صاحبةٍ وَلَا وَلَدٍ ، فيُقالُ
لهُمْ : ماذا تبغُونَ ، فيقولون : عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فآسقِنا ، قال
فيُشارُ إليهم ألا تَرِدُونَ ؟ فيُحشرُونَ إلى جَهنمَ كأنها سَرابٌ
يَحْطِمُ بعضُها بعضاً فيتساقطونَ فى النارِ حتى إذا لم يَبْقَ إلا
مَن كانَ يعبدُ الله تعالى مِنْ بَرٍّ وفاجرٍ أتاهم ربُّ العالَمينَ
سُبْحانه وتعالى فى أدنى صُورةٍ مِنَ التى رَأَوْهُ فيها ، قال : فما
تَنْتظِرون لِتَتْبَع كُلُّ أمة ما كانت تعبدُ ، قالوا : يا رَبَّنَا فارَقْنَا
الناسَ فى الدنيا أفقَرَ ما كُنا إليهِم ، ولم نُصاحِبْهُم فيقولُ :
أنا رَبُّكُمْ ، فيقولون : نعوذُ بالله منكَ ، لا نُشركُ بالله شيئاً
مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضَهم لَيَكادُ أن ينقَلِبَ فيقولُ : هل
بينكمُ وبينَه آية فتَعرِفُونَه بها ؟ فيقولون : نعَمْ ، فيكشفُ
عن ساقٍ فلا يَبْقَى مَنْ كان يَسجدُ لله من تِلقاءِ نفسِهِ إلا أَذِنَ
الله لهُ بالسُّجودِ ، ولا يَبْقى من كان يسجدُ آتقاء ورياء إلا
جعل الله ظهرَه طَبَقةً واحدةً ، كلما أرادَ أن يَسجدَ خرَّ على
قفاهُ ، ثم يَرفعونَ رُءوسهم وقد تَحوَّلَ فى صورتِه التى رَأَوْه

فيها أولَ مرَّةٍ فقالَ : أنا رُّبكمُ ، فيقولون : أنت ربُّنا ثم يُضرَبُ الجَسرُ على جَهَنَّمَ وَتحلُّ الشفاعةُ ، ويقولون اللّهُمَّ سلِّمْ سَلِّمْ ، قيل : يا رسولَ الله وما الجسر ؟ ، قال : دَحْض مَزِلَّة فيه خَطاطيفُ وكَلاليبُ وحَسَك تَكُونُ بنجدٍ فيها شُوَيكَة يقالُ لها السَّعدانُ ، فيَمُرُّ المؤمنونَ كطَرْفَىْ العَينِ وكالْبَرْقِ وكالريِّح وكالطير وكأَجَاوِيدِ الخَيلِ والرِّكاب فناج مُسلَّم ومَخْدُوش مُرسَل ، ومَكْدوس فى نارِ جَهنّمَ ، حتى إذا خَلَصَ المؤمنون من النارِ فوالذى نفسى بيدِه ما مِنْكُم من أحدٍ بأَشدَّ مِنا شدَّةً لله فى استقصاءِ الحَقِّ مِنَ المؤمنينَ لله يومَ القيامة لإخوانِهم الذينَ فى النارِ يقولون : ربَّنا كانوا يصومون مَعَنا ويُصلونَ ويَحُجّونَ ، فيُقالُ لهم : أَخْرجُوا مَن عَرَفتمُ ، فتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ على النارِ فيُخْرِجُونَ خلقاً كثيراً قد أخَذَت النارُ إلى نِصْفِ سَاقيهِ وإلى رُكْبَتَيْهِ ، ثم يقولونَ : رَبَّنا ما بَقِىَ فيها أحدٌ مَمّن أمَرْتَنا به فيقولُ : آرْجعُوا فمن وَجَدْتُم فى قلبِه مثقالَ دينارٍ من خَيْرٍ فأَخرِجوهُ ، فيُخرِجَونَ خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربَّنَا لمْ نَذَرْ فيها أحداً مِمّن أمَرْتَنا ، ثم يقولُ : آرجعُوا فمَنْ وجدتم

فى قلبِه مثقالَ نصف دينارٍ مِنْ خَيرٍ فأَخرِجُوهُ ، فَيُخرجون خَلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نَذَرْ فيها مِمّنْ أمَرْتَنا أحَداً ، ثم يقولُ : ارْجعُوا فَمَنْ وجَدْتُم فى قلبِهِ مثقالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فأَخرِجُوهُ ، فيُخرِجونَ خَلْقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربَّنا لم نَذَرْ فيها خيراً ، وكان أبو سعيد الخدْرِىُّ يقول : إن لَمْ تُصَدِّقُونى بهذا الحديثِ فاَقرءوا إنْ شئْتُم « إنَّ اللهَ لا يَظلمُ مثقال ذَرَّةٍ ، وإنْ تكُ حسنةً يُضَاعِفْها ويُؤْتِ مِنَ لَدُنْه أجراً عظيمــاً » فيقولُ اللهُ عَزّ وجَلّ شَفَعَتِ الملائكة وشَفَعَ النّبيونَ وشَفَعَ المؤمنونَ ولم يَبْقَ إلا أَرحمُ الراحمينَ فَيَقبضُ قَبضةً مِنَ النارِ فَيُخرجُ مِنْها قوماً لم يَعمَلوا خيراً قَطّ قد عادوا حُمَما فَيُلْقيهِمْ فى نهر فى أفواهِ الجَنَّةِ يُقالُ لهُ نهرُ الحياةِ فيَخرجونَ كما تخرُجُ الحَبَّةُ فى حَميل السّيلِ ، ألا تَرَوْنَها تكونُ إلى الحَجَر أو إلى الشّجَر ما يكونُ إلى الشّمسِ أُصيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ ، وما يكونُ مِنها إلى الظلِّ يكونُ أبيضَ ؟ فقالوا : يا رسولَ الله كأنكَ تَرعى بالباديةِ ، قالَ : فيَخْرُجُونَ كاللؤلؤ فى رِقابِهِم الْخَواتِمُ ، يَعرِفُهُم أهلُ الجنةِ ، هؤلاء عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أدخَلَهم اللهُ الجَنَّةَ بِغيرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ

ولَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ يَقُولُ : آدخلوا الجَنَّةَ ، فما رأيتُموهُ فهو لَكُمْ فيقولون : رَبَّنَا أَعطَيْتَنا ما لَمْ تُعطِ أحداً من العالَمِينَ ، فيقولُ : لكُمْ عندى أَفْضلُ من هذا فيقولونَ : يا رَبَّنَا أَىُّ شَىءٍ أفْضلُ من هذا ، فيقولُ : رِضاىَ فلا أَسخط عليكم بَعدُ أبداً »

قال مُسْلِمٌ :

قرأتُ على عيسى بنِ حمادٍ زُغْبَةَ المِصْرِىِّ هذا الحديثَ فى الشفاعةِ وقلتُ له : أُحَدِّثُ بهذَا الحديثِ عنكَ أنكَ سَمِعت من الليثِ بن سْعدٍ ، فقالَ : نعَمْ ، قلتُ لعيسى بنِ حمادٍ أخبَرَكُمْ الليثُ بنُ سَعدٍ عن خالدِ بنِ يزيد عن سعيدِ بنِ أبى هلالٍ عن زيدِ ابنِ أَسْلمَ عن عطاءِ بنِ يسارٍ عن أبى سعيدِ الخُدرِىِّ أنه قالَ : قُلنا يا رسولَ الله : أنَرَى رَبَّنَا ؟ قال رسولُ الله ـــ صلى الله عليه وسَلَّمَ : هَلْ تُضَارُّونَ فى رؤيةِ الشَّمسِ إذ كانَ يومُ صحو ؟ قلنا : لا .. وسُقْتُ الحديثَ حتى انقضى آخرُهُ وهُوَ نحوُ حديثِ حفصِ بن مَيْسَرَةَ وزادَ بعدَ قولِه : « بغيرِ عملٍ عَمِلوهُ ولا قدم قدموه » ، فيقال لهم : لكم ما رأيتمُ ومثلُه مَعَهُ .

قال أبو سَعيد :

بلَغَنِى أَنَّ الجِسْرَ أدقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ وأحَدُّ من السيفِ ، وليسَ فى حَديثِ اللَّيثِ « فيقولُونَ : ربَّنا أعْطَيْتَنَا ما لَمْ تُعط أحَداً من العالمين » وما بعَدهُ أقرَّ بِهِ عيسَى بنُ حَمَّادٍ .

ما تضارون فى رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما) :

معناه : لا تضارون أصلا كما لا تضارون فى رؤيتهما أصلا .

(حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر وغُبَّر أهل الكتاب) :

أما البر فهو المطيع ، وأما غُبَّر بضم الغين وفتح الباء المشددة معناه : بقاياهم جمع غابر .

(فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً) :

أما السراب فهو الذى يتراءى للناس فى الأرض القفر والقاع المستوى وسط النهار فى الحر الشديد لامعاً مثل الماء يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فالكفار يأتون جهنم أعاذنا الله الكريم وسائر المسلمين منها ومن كل مكروه — وهم عطاش فيحسبونها ماء فيتساقطون فيها ، وأما يحطم بعضها بعضاً فمعناه : لشدة اتقادها وتلاطم أمواج لهبها ، والحطم : الكسر والإهلاك ، والحطمة : اسم

من أسماء النار لكونها تحطم ما يلقى فيها .

(أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة من التى رأوه فيها) :

معنى رأوه فيها : علموها له وهى صفته المعلومة للمؤمنين وهى أنه لا يشبهه شيء وقد تقدم معنى الإتيان والصورة والله أعلم .

(قالوا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم) : معنى قولهم : التضرع إلى الله تعالى فى كشف هذه الشدة ، عنهم ، وأنهم لزموا طاعته – سبحانه وتعالى – وفارقوا فى الدنيا الناس الذين زاغوا عن طاعته – سبحانه – من قراباتهم وغيرهم ممن كانوا يحتاجون فى معايشهم ومصالح دنياهم إلى معاشرتهم للارتفاق بهم ، وهذا كما جرى للصحابة المهاجرين وغيرهم ومن أشبههم من المؤمنين فى جميع الأزمان فإنهم يقاطعون من حاد الله ورسوله – ﷺ – مع حاجتهم فى معايشهم إلى الارتفاق بهم والاعتضاد بمخالطتهم ، فاثروا رضا الله تعالى على ذلك ، وهذا معنى ظاهر فى هذا الحديث لاشك فى حسنه ، وقد أنكر القاضى عياض رحمه الله هذا الكلام الواقع فى صحيح مسلم وادعى أنه مغير وليس كما قال ، بل الصواب ما ذكرناه .

(حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب) :

هكذا هو فى الأصول « ليكاد أن ينقلب » بإثبات « أن » وإثباتها مع « كاد » لغة ، كما أن حذفها مع « عسى » لغة ، وينقلب معناه – والله أعلم – ينقلب عن الصواب ويرجع عنه للامتحان الشديد الذى

جرى والله أعلم .

(فَيُكشف عن ساق) :

ضبط « يكشف » بفتح الياء وضمها وهما صحيحان ، وفسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث الساق هنا بالشدة ، أى يكشف عن شدة وأمر مهول . وهذا مثل تضربه العرب لشدة الأمر . ولهذا يقولون : قامت الحرب على ساق . وأصله : أن الانسان إذا وقع فى أمر شديد شمر ساعده وكشف عن ساقه للاهتمام به . قال القاضى عياض رحمه الله : وقيل المراد بالساق هنا : نور عظيم ، وورد ذلك فى حديث عن النبى – ﷺ .

قال ابن فورك : ومعنى ذلك : ما يتجدد للمؤمنين عند رؤية الله تعالى من الفوائد والألطاف .

وقال القاضى عياض : وقيل : وقد يكون الساق علامة بينه وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة ؛ لأنه يقال : ساق من الناس ، كما يقال : رَجْل من جراد ، وقيل قد يكون ساقا مخلوقاً جعله الله تعالى علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة ، وقيل معناه : كشف الخوف وإزالة الرعب عنهم وما كان غلب على قلوبهم من الأهوال فتطمئن حينئذ نفوسهم عند ذلك ويتجلى لهم فيخرون سجداً ، قال الخطابى رحمه الله : وهذه الرؤية التى فى هذا المقام يوم القيامة غير الرؤية فى الجنة لكرامة أولياء الله تعالى ، وإنما هذه للامتحان والله أعلم .

(ولا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة) :

هذا السجود امتحان من الله تعالى لعباده . وقد استدل بعض العلماء بهذا مع قوله تعالى : ﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ على جواز تكليف ما لا يطاق . وهذا استدلال باطل فإن الآخرة ليست دار تكليف بالسجود . وإنما المراد امتحانهم .

وأما قوله – ﷺ – طَبَقة بفتح الطاء والباء قال الهروى وغيره : الطبق : فقار الظهر أى صار فقارة واحدة كالصحيفة فلا يقدر على السجود والله أعلم .

ثم اعلم أن هذا الحديث قد يتوهم منه أن المنافقين يرون الله تعالى مع المؤمنين وقد ذهب إلى ذلك طائفة . حكاه ابن فورك لقوله ﷺ : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تعالى » وهذا الذى قالوه باطل لا يراه المنافقون بإجماع من يعتد به من علماء المسلمين ، وليس فى هذا الحديث تصريح برؤيتهم الله تعالى ، وإنما فيه أن الجمع الذى فيه المؤمنون والمنافقون يرون الصورة ثم بعد ذلك يرون الله تعالى ، وهذا لا يقضى أن يراه جمعهم وقد قامت دلائل الكتاب والسنة على أن المنافق لا يراه سبحانه وتعالى والله أعلم .

(يرفعون رءوسهم وقد تحول فى صورته) :

هكذا ضبطناه « صورته » بالهاء فى آخرها ، ووقع فى أكثر

الأصول أو كثير منها فى « صورة » بغير هاء ، وكذا هو فى « الجمع بين الصحيحين » للحميدى ، والأول أظهر وهو الموجود فى « الجمع بين الصحيحين » للحافظ عبد الحق ومعناه : وقد أزال المانع لهم من رؤيته وتجلى لهم .

(ثم يضرب الجَسر على جهنم وتحل الشفاعة) :

الجسر بفتح الجيم وكسرها لغتان مشهورتان وهو الصراط ، ومعنى تحل الشفاعة بكسر الحاء وقيل بضمها أى تقع ويؤذن فيها .

(قيل يا رسول الله وما الجسر ، قال : دحض مزلة) :

بتنوين « دحض » بفتح الدال ، وسكون الحاء ، ومزلة بفتح الميم ، وفى الزاى لغتان مشهورتان الفتح والكسر ، والدحض والمزلة بمعنى واحد وهو الموضع الذى تزل فيه الأقدام ولا تستقر ، ومنه دحضت الشمس أى مالت ، وحجة داحضة أى لاثبات لها .

(فيه خطاطيف وكلاليب وحسك) :

أما الخطاطيف فجمع خُطاف بضم الخاء فى المفرد ، والكلاليب بمعناه ، وقد تقدم بيانهما ، وأما الحَسَك بفتح الحاء والسين فهو شوك صلب من حديد .

(فناج مسلم ومخدوش مرسل ، ومكدوس فى نار جهنم) :

معناه أنهم ثلاثة أقسام : قسم يسلم فلا يناله شىء أصلا ، وقسم

يخدش ثم يرسل فيخلص ، وقد يكدس ويلقى فيسقط فى جهنم ، وأما مكدوس هكذا هو فى الأصول وكذا نقله القاضى عياض رحمه الله عن أكثر الرواة ، قال : ورواه العذرى بالشين ومعناه بالشين : السوق ، وبالسين معناه : تكدس الأشياء بعضها على بعض ، ومنه تكدست الدواب فى سيرها اذا ركب بعضها بعضاً .

(فوالذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة فى استقصاء الحق من المؤمنين لله تعالى يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار) :

اعلم أن هذه اللفظة (استقصاء) قد ضبطت على أوجه : أحدها استيضاء والثانى : استضاء ، والثالث : استيفاء والرابع : استقصاء فالأول موجود فى كثير من الأصول ببلادنا ، والثانى هو الموجود فى أكثرها وهو الموجود فى « الجمع بين الصحيحين » للحميدى ، والثالث فى بعضها وهو الموجود فى « الجمع بين الصحيحين » لعبد الحق الحافظ والرابع فى بعضها ، ولم يذكر القاضى عياض غيره وادعى اتفاق الرواة وجميع النسخ عليه . وادعى أنه تصحيف ووهم وفيه تغيير وأن صوابه ما وقع فى كتاب البخارى من رواية ابن بكير « بأشد مناشدة فى استقصاء الحق » يعنى فى الدنيا من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم ، وبه يتم الكلام ويتوجه . هذا آخر كلام القاضى رحمه الله . وليس الأمر على ما قاله بل جميع الروايات التى ذكرناها صحيحة . لكل منها معنى حسن . وقد جاء فى رواية يحيى بن بكير عن الليث « فما أنتم بأشد مناشدة فى الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ تعالى وتقدس إذا رأوا أنهم قد نجوا فى إخوانهم » .

وهذه الرواية التى ذكرها الليث توضح المعنى فمعنى الرواية الأولى والثانية (استيفاء - استضاء) أنكم إذا عرض لكم فى الدنيا أمر مهم والتبس الحال فيه وسألتم الله تعالى بيانه وناشدتموه فى استيضائه وبالغتم فيها ، لا تكون مناشدة أحدكم مناشدة بأشد من مناشدة المؤمنين لله تعالى فى الشفاعة لإخوانهم .

وأما الرواية الثالثة والرابعة (استيفاء - استقصاء) فمعناهما أيضاً : ما منكم من أحد مناشد الله تعالى فى الدنيا فى استيفاء حقه أو استقصائه وتحصيله من خصمه والمعتدى عليه بأشد من مناشدة المؤمنين الله تعالى فى الشفاعة لإخوانهم يوم القيامة والله أعلم .

(فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير ونصف مثقال من خير ومثقال ذرة) :

قال القاضى عياض رحمه الله :

قيل معنى الخير هنا اليقين . قال : والصحيح أن معناه : شيء زائد على مجرد الإيمان . لأن مجرد الإيمان الذى هو التصديق لا يتجزأ . وإنما يكون هذا التجزؤ لشيء زائد عليه من عمل صالح أو ذكر خفى أو عمل من أعمال القلب من شفقة على مسكين أو خوف من الله تعالى . ونية صادقة . ويدل عليه قوله فى الرواية الأخرى فى الكتاب يخرج من النار « من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن كذا ومثله الرواية الأخرى » « يقول الله تعالى : شفعت الملائكة وشفع النبيون . وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين

فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط » وفى الحديث الآخر « لأخرجن من قال : لا إله إلا الله » قال القاضى رحمه الله : فهؤلاء هم الذين معهم مجرد الإيمان وهم الذين لم يؤذن فى الشفاعة فيهم . وإنما دلت الآثار على أنه أذن لمن عنده شىء زائد على مجرد الإيمان وجعل للشافعين من الملائكة والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم دليلا عليه . وتفرد الله عز وجل بعلم ما تكنه القلوب والرحمة لمن ليس عند إلا مجرد الإيمان ، وضرب بمثقال الذرة المثل لأقل الخير فإنها أقل المقادير . قال القاضى : وقوله تعالى « من كان فى قلبه ذرة وكذا » دليلٌ على أنه لا ينفع من العمل إلا ما حضر له القلب وصحبته نية ، وفيه دليل على زيادة الإيمان ونقصانه وهو مذهب أهل السنة ، هذا آخر كلام القاضى رحمه الله والله أعلم .

(ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيراً) :

هكذا هو « خيراً » بإسكان الياء أى صاحب خير .

(شفَعت الملائكة) :

هو بفتح الفاء ، وإنما ذكرته وإن كان ظاهراً لأنى رأيت من يصحفه (١) ولا خلاف فيه ، يقال : شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع ، والمشفِّع بكسر الفاء الذى يقبل الشفاعة والمشفَّع بفتحها الذى تقبلَ شفاعته .

(١) صحف الكلمة : أخطأ فى قراءتها ، أو حرفها عن وضعها ، وحين يتغير اللفظ يتغير المعنى .

(فيقبض قبضة من النار) :

معناه : يجمع جماعة .

(فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قد عادوا حمماً) :

معنى عادوا : صاروا ، وليس بلازم فى « عاد » أن يصير إلى حالة كان عليها قبل ذلك ، بل معناه : صار .

وأما الحُمَم بضم الحاء وفتح الميم الأولى فهو الفحم ، الواحدة حممة .

(فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة) :

أما النَّهْر ففيه لغتان معروفتان : فتح الهاء وإسكانها ، والفتح أجود وبه جاء القرآن العزيز .

وأما الأفواه فجمه فُوَّهة بضم الفاء وتشديد الواو المفتوحة وهو جمع سمع من العرب على غير قياس : وأفواه الأزقة والأنهار أوائلها ، قال صاحب المطالع : كأن المراد فى الحديث مفتتح من مسالك قصور الجنة ومنازلها .

(ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيضَ) :

أما « يكون » فى الموضعين الأولين فتامة ليس لها خبر معناها : ما يقع ، وأصيفر وأخيضر مرفوعان ، وأما « يكون أبيض » « فيكون »

فيه ناقصة « وأبيضَ » منصوب وهو خبرها .

(فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم) :

أما اللؤلؤ فمعروف ، وفيه أربع قراءات فى السبع : بهمزتين فى أوله وآخره ، وبحذفهما (اللولو) وبإثبات الهمزة فى أوله دون آخره (اللؤلو) وعكسه (اللولؤ) ، وأما الخواتم فجمع خاتَم بفتح التاء وكسرها ، ويقال أيضاً : خيتام وخاتام ، قال صاحب التحرير المراد بالخواتم هنا أشياء من ذهب أو غير ذلك تعلق فى أعناقهم علامة يعرفون بها قال : معناه تشبيه صفائهم وتلألئهم باللؤلؤ والله أعلم .

(قرأت على عيسى بن حماد زُغْبه) :

زغبة : بضم الزاى وإسكان الغين لقب لحماد والد عيسى ، ذكره أبو على الغسانى الجيانى .

(وزاد بعد قوله : بغير عمل عملوه ولا قدم قدموه) :

هذا مما قد يسأل عنه فيقال : لم يتقدم فى الرواية الأولى ذكره القدم . وإنما تقدم « ولا خير قدموه » وإذا كان كذلك لم يكن لمسلم أن يقول : زاد بعد قوله : « ولا قدم » إذ لم يجر للقدم ذكر . وجوابه أن هذه الرواية التى فيها الزيادة وقع فيها « ولا قدم » بدل قوله فى الأولى « خير » ووقع فيها الزيادة فأراد مسلم رحمه الله بيان الزيادة ولم يمكنه أن يقول : زاد بعد قوله : « ولا قدم قدموه » أى زاد بعد قوله فى روايته « ولا قدم قدموه » .

واعلم أيها المخاطب أن هذا لفظه فى روايته . وأن زيادته بعد هذا والله أعلم .

والقَدَم هنا بفتح القاف والدال معناه الخير كما فى الرواية الأخرى . والله أعلم .

(وليس فى حديث الليث « فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين » وما بعده فأقر به عيسى بن حماد) :

أما قوله : « وما بعده » فمعطوف على « فيقولون ربنا » أى ليس فيه « فيقولون ربنا » ولا ما بعده .

وأما قوله « فأقر به عيسى » فمعناه : أقر بقوله له أولا أخبركم الليث بن سعد إلى آخره والله أعلم .

٣٠ - إثْباتُ الشَّفَاعَةِ وإخراجُ المُوَحِّدينَ مِنَ النَّارِ :

عن أبى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أنَّ رسَولَ الله صلّى الله عليهِ وسلَّمَ ــ قالَ : « يُدْخِلُ الله أهل الجَنَّةِ الجنةَ ، وَيُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ برحمتِهِ ، ويُدْخِلُ أهلَ النارِ النارَ ثم يقولُ : انظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فى قَلْبِه مثقَال حَبّةٍ مِنْ خَرْدَل من إيمانٍ فَأخرجُوهُ ، فَيُخْرجُونَ مِنها حُمَماً قَدِ آمْتَحشُوا فيُبْقَوْنَ فى نهر الحياةِ فيَنْبُتُونَ فيهِ كما تَنْبُتُ الحَبّةُ إلى جَانِبِ السَّيلِ ، ألم تَرَوْها كيفَ تَخْرُجُ صفراءَ مُلْتَوِيةً » .

رواه مسلم

قال القاضى عياض :

مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلا ووجوبها سمعاً بصريح قوله تعالى : — « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » — وقوله : — « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » — وأمثالهما ، وبخبر الصادق ﷺ ، وقد جاءت الآثار التى بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة فى الآخرة لمذنبى المؤمنين ، وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها ، ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها وتعلقوا بمذاهبهم فى تخليد المذنبين فى النار واحتجوا بقوله تعالى — ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ — وبقوله تعالى : —

﴿ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾- وهذه الآيات فى الكفار وأما تأويلهم أحاديث الشفاعة بكونها فى زيادة الدرجات فباطل ، وألفاظ الأحاديث فى الكتاب وغيره صريحة فى بطلان مذهبهم وإخراج من استوجب النار لكن الشفاعة خمسة أقسام :

أولها مختصة بنبينا - ﷺ - وهى الإراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب كما سيأتى بيانها .

الثانية : فى إدخال قوم الجنة بغير حساب وهذه وردت أيضا لنبينا - ﷺ - وقد ذكرها مسلم رحمه الله .

الثالثة : الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم رسول الله - ﷺ - ومن شاء الله تعالى .

الرابعة : فيمن دخل النار من المذنبين فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا - ﷺ - والملائكة وإخوانهم من المؤمنين ، ثم يخرج الله تعالى كل من قال : لا إله الا الله كما جاء فى الحديث « لا يبقى فيها إلا الكافرون » .

الخامسة : فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها وهذه لا ينكرها المعتزلة ولا ينكرون أيضاً شفاعة الحشر الأولى[1] .

قال القاضى عياض : وقد عرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح - رضى الله عنهم - شفاعة نبينا - ﷺ - ورغبتهم فيها .

(١) شرح صحيح مسلم .

وعلى هذا لا يلتفت إلى قول من قال : إنه يكره أن يسأل الإنسان أن يرزقه شفاعة النبى - ﷺ - لكونها لا تكون إلا للمذنبين فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات . ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتد بعمله . مشفق من أن يكون من الهالكين . ويلزم هذا القائل أن لا يدعو بالمغفرة والرحمة لأنها لأصحاب الذنوب . وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف . هذا آخر كلام القاضى رحمه الله والله أعلم .

(فيخرجون منها حُمَما قد امتحشوا فيلقون فى نهر الحياة أوْ الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبة) :

أما الحُمَمَ فتقدم بيانه فى الباب السابق وهو بضم الحاء وفتح الميم المخففة وهو الفحم . وقد تقدم فيه بيان الحبة والنهر . وبيان امتحشوا وأنه بفتح التاء على المختار وقيل بضمها ومعنها : احترقوا .

وقوله : الحياة أو الحيا هكذا وقع هنا وفي البخارى من رواية مالك . وقد صرح البخارى فى أول صحيحه بأن هذا الشك من مالك . وروايات غيره « الحياة » بالتاء من غير شك ، ثم إن « الحيا » هنّا مقصود وهو المطر سمى « حيا » لأنه تحيا به الأرض ، ولذلك هذا الماء يحيا به هؤلاء المحترقون ، وتحدث فيهم النضارة كما يحدث ذلك المطر فى الأرض والله أعلم .

٣١ - آخِرُ أهْلِ النَّارِ خُروجاً :

عن عبدِ الله بنِ مَسْعُودٍ : قالَ رسولُ الله - صلى الله علي وسلَّمَ - : « إنِّى لأعْلَمُ آخِرَ أهْلِ النارِ خُروجاً مِنْها ، وآخِرَ أهلِ الجنةِ دخولًا الجَنَّةَ ، رجلٌ يخرجُ من النار حَبْواً فيقولُ الله تبارك وتعالى لهُ : اذهبْ فادْخُلِ الجنةَ ، فيأْتِيها فَيُخَيّل إليهِ أنها مَلْأى ، فيَرْجع فيقول : يارَبِّ وجدتُها مَلْأى ، فيقولُ الله تباركَ وتعالَى لَهُ : اذهبْ فادخل الجنةَ ، قالَ : فيأتِيهَا فَيُخَيَّل إليهِ أنَّها مَلْأى ، فيرجعُ فيقولُ : يارَبِّ وَجَدْتُها مَلْأى ، فيقولُ الله لَهُ : اذهبْ فادْخُل الجَنَّةَ ، فإن لَكَ مِثلَ الدُّنْيَا وعَشَرَةَ أمثالها ، أوْ أنَّ لكَ عَشَرَةَ أمثال الدُّنيا ، قالَ : فيقولُ : أتَسْخَرُ بى أو أتَضْحَك بى وأنتَ الملِكُ ، قال : لقد رأيتُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلَّم - ضحِكَ حتى بَدَتْ نواجِذُهُ ، قال : فكانَ يُقالُ ذاكَ أدنَى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً » .

رواه مسلم

(رجل يخرج من النار حبواً) :

وفى الرواية الأخرى (زحفاً) قال أهل اللغة : الحَبْوُ المشى على اليدين والرجلين ، وربما قالوا : على اليدين والركبتين وربما قالوا :

على يديه ومقعدته ، وأما الزحف فقال ابن دريد وغيره : هو المشى على الاست[1] مع إفراشه بصدره ، فحصل من هذا أن الحبو والزحف متماثلان أو متقاربان ، ولو ثبت اختلافهما حمل على أنه فى حال يزحف ، وفى حال يحبو والله أعلم .

(أتسخرلى بى أو تضحك بى وأنت الملك) :

هذا شك من الرواى هل قال : أتسخر بى أو قال : أتضحك بى ، فإن كان الواقع فى نفس الأمر « أتضحك بى » فمعناه : أتسخر بى ، لأن الساخر فى العادة يضحك ممن يسخر به ، فوضع الضحك موضع السخرية مجازاً ، وأما معنى « أتسخز بى » هنا ففيه أقوال :

أحدها : قال المازرى : أنه خرج على المقابلة الموجودة فى معنى الحديث دون لفظه ، لأنه عاهد الله مراراً أن لا يسأله غير ما سأل ثم غدر وأصبح بغدره محل الاستهزاء والسخرية ، فقدر الرجل أن قول الله تعالى له : ادخل الجنة وتردده إليها ، وتخييل كونها مملوءة ضرب من الاطماع له ، والسخرية به جزاء لما تقدم من غدره وعقوبة له ، فسمى الجزاء على السخرية سخرية ، فقال : أتسخر بى أى تعاقبنى بالإطماع .

والقول الثانى : قاله أبو بكر الصوفى : إن معناه نفى السخرية التى لا تجوز على الله تعالى كأنه قال : : أعلم أنك لا تهزأ بى لأنك رب

---

(١) الاست : الدبر والمقعدة .

العالمين . وما أعطيتنى من جزيل العطاء وآضعاف مثل الدنيا حق . ولكن العجب أنك أعطيتنى هذا وأنا غير أهل له . قال : والهمزه فى « أتسخر بى » همزة نفى[1] ، قال : وهذا كلام منبسط متدلل .

والقول الثالث قاله القاضى عياض : أن يكون هذا الكلام صدر من هذا الرجل وهو غير ضابط لما قاله . لما ناله من السرور ببلوغ ما لم يخطر بباله . فلم يضبط لسانه دهشا وفرحاً : فقاله وهو لا يعتقد حقيقة معناه ، وجرى على عادته فى الدنيا فى مخاطبة المخلوق . وهذا كما قال النبى - ﷺ - فى الرجل الآخر أنه لم يضبط نفسه من الفرح فقال : أنت عبدى وأنا ربك والله أعلم .

واعلم أنه وقع فى الروايات « أتسخر بى »[2] وهو صحيح . يقال : سخرت منه وسخرت به ، والأول هو الأفصح الأشهر وبه جاء القرآن .

والثانى فصيح أيضاً ، وقد قال بعض العلماء : إنه إنما جاء بالباء لإرادة معناه كأنه قال : أتهزأ بى والله أعلم .

رأيت رسول الله - ﷺ - ضحك حتى بدت نواجذه) :

نواجِذه بكسر الجيم قال أبو العباس ثعلب وجماهير العلماء من أهل اللغة وغريب الحديث وغيرهم : المراد بالنواجذ هنا الأنياب . وقيل

---

(١) أى أعلم يارب أنك لا تسخر بى .

(٢) ومنه يتبين : أن ماوقع فى الروايات فصيح .. وكأنه قال : أتهزأبى ، أما (سخر منه) فهو الأفصح الأشهر الذى به جاء القرآن .

المراد هنا الضواحك . وقيل المراد بها الأضراس وهذا هو الأشهر فى إطلاق النواجذ فى اللغة ، ولكن الصواب عند الجماهير ما قدمناه . وفى هذا جواز الضحك وأنه ليس بمكروه فى بعض المواطن . ولا بمسقط للمروءة إذا لم يجاوز به الحد المعتاد من أمثاله فى مثل تلك الحال والله أعلم .

(فيقول الله تعالى له : اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها) :

وفى الرواية الأخرى (لك الذى تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا) :

هاتان الروايتان بمعنى واحد وإحداهما تفسير الأخرى فالمراد بالأضعاف الأمثال ، فإن المختار عند أهل اللغة أن الضعف المثل .

وأما قوله ﷺ فى الرواية الأخرى فى الكتاب (فيقول الله تعالى : أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟) .

وفى الرواية الأخرى (أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك اللدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب فيقول :

لك هذا وعشرة أمثاله » .

فهاتان الروايتان لا تخالفان الأوليين ، فإن المراد بالأولى من هاتين أن يقال له أولا : لك الدنيا ومثلها ، ثم يزاد إلى تمام عشرة أمثالها ،

كما بينه فى الرواية الأخيرة ، وأما الأخيرة فالمراد بها أن أحد ملوك الدنيا لا ينتهى ملكه إلى جميع الأرض بما يملك بعضاً منها ، ثم منهم من يكثر البعض الذى يملكه ، ومنهم من يقل بعضه ، فيعطى هذا الرجل مثل أحد ملوك الدنيا خمس مرات ، وذلك كله قدر الدنيا كلها ، ثم يقال له : لك عشرة أمثال هذا ، فيعود معنى هذه الرواية إلى موافقة الروايات المتقدمة ولله الحمد والله أعلم .

٣٢ - دعاءُ النبيِّ ﷺ لأمتِه وبكاؤه شفقةً عليهم :

عن عبدِ الله بنِ عمْرو بنِ العاصِ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم تَلا قولَ الله - عزَّ وجلَّ - فى إبراهيمَ ﴿ رَبِّ إنهُنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً من الناسِ فَمَنْ تَبِعَنى فإنهُ منِّى ﴾ الآية ، وقال عيسى عليه السلامُ - إنْ تُعذِّبْهُم فإنهمْ عبادُك ، وإن تغفِرْ لَهُمْ فإنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الحَكِيم ﴾ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وقالَ : « اللَّهُمَّ أمّتى أُمَّتى وبَكَى ، فقالَ الله عزّ وجَلّ : يا جبريلُ اذهبْ إلى محمدٍ - وَرَبُّكَ أعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ ؟ فأتَاهُ جبريلُ - عليه الصلاةُ والسلامُ - فسألَهُ ، فَأَخبَرَهُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بِمَا قالَ - وهُوَ أعلَمُ ، فقالَ الله يا جبريلُ : اذهَبْ إلى مُحَمّدٍ فَقُلْ إنا سنُرضِيكَ فى أُمَّتِكَ ولا نَسوؤُك » .

(عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى - ﷺ تلا قول الله - عز وجل - فى ابراهيم - ﷺ - ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ - الآية ، وقال عيسى - ﷺ : - ﴿ ان تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ - : هكذا هو فى الأصول « وقال عيسى » قال القاضى عياض : قال بعضهم : قوله : « قال » هو اسم للقول لا فعل ، يقال : قال قولاً ، وقالاً وقيلاً ، كأنه قال : «وتلا قول عيسي» هذا كلام القاضى عياض.

(رفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله – عز وجل : يا جبريل اذهب الى محمد – وربك أعلم – فاسأله ما يبكيك . فأتاه جبريل – عليه السلام – فسأله فأخبره النبي – ﷺ – بما قال – وهو أعلم – فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك) .

هذا الحديث مشتمل على أنواع من الفوائد .

منها : بيان كمال شفقة النبى – ﷺ – على أمته واعتنائه بمصالحهم . واهتمامه بأمرهم .

ومنهم استحباب رفع اليدين فى الدعاء .

ومنها : البشارة العظيمة لهذه الأمة ، زادها الله تعالى شرفا بما وعدها الله تعالى بقوله « سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك » وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة ، أو أرجاها .

ومنها : بيان عظيم منزلة النبى – ﷺ عند الله تعالى ، وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ .

والحكمة فى إرسال جبريل لسؤاله – ﷺ – إظهار شرف – النبى – ﷺ – وأنه بالمحل الأعلى فيسترضى ويكرم بما يرضيه والله أعلم .

وهذا الحديث موافق لقول الله – عز وجل –﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ .

وأما قوله تعالى : «ولا نسوؤك» فقال صاحب التحرير : هو تأكيد للمعنى أى (لا نحزنك) لأن الإرضاء قد يحصل فى حق البعض بالعفو عنهم ، ويدخل الباقى النار فقال تعالى : نرضيك ولا ندخل عليك حزنا ، بل ننجى الجميع والله أعلم .

تعليق :

روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - : يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك ، وقال ابن عبيد : فيلهمون لذلك ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال : فيأتون آدم - ﷺ - فيقولون : أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناكم[1] فيذكر خطيئته التى أصاب ، فيستحى ربه منها ، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله ، قال فيأتون نوحاً - ﷺ - فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التى أصاب ، فيستحى ربه منها ، ولكن ائتوا ابراهيم - ﷺ - الذى اتخذه الله خليلا ، فيأتون إبراهيم - ﷺ - فيقول لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب ، فيستحى ربه منها ، ولكن ائتوا موسى - ﷺ - الذى كلمه الله وأعطاه التوراة ، قال فيأتون موسى - عليه

---

(١) لست هُناكَ ، أولست هُناكُم ، (بفتح الكاف فى الأولى وضمها فى الثانية) أى : لست بهذه المنزلة ، أو لست أهلا لذلك كما تتصورون .

السلام – فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب ، فيستحى ربه منها ، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً – ﷺ – عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال : قال رسول الله – ﷺ : فيأتونى ، فأستأذن على ربى فيؤذن لى ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله ، فيقال يا محمد : ارفع رأسك ، قل تسمع ، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى، ثم أشفع فيحد لى حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال : ارفع رأسك يامحمد ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، قال : فلا أدرى فى الثالثة أو فى الرابعة ، قال : فأقول يارب : ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن ، أى وجب عليه الخلود فى النار[1] .

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه :

أن النبى – ﷺ – قال : لكل نبى دعوة يدعوها ، فأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة .

---

(١) أى الكفار وفى هذا دليل على أنه لا يخلد فى النار أحد مات على التوحيد .

٣٣ – بيانُ كونِ هذهِ الأمةِ نصفَ أهلِ الجنّةِ :

عن أبى سعيدٍ قالَ : قالَ رسولُ الله – صلّى الله عليهِ وسلّمَ – : يقولُ الله – عزَّ وجَلَّ – « يا آدمُ فيقول : لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ والْخيرُ فى يَدَيْكَ ، قالَ : يقولُ : أَخْرِجْ بَعْثَ النَّار ، قالَ : وما بَعْثُ النَّار ؟ ، قالَ : مِنْ كُلِّ أَلفٍ تِسعَمائةٍ وتِسْعَةً وتِسعين ، قال : فذاك حينَ يشيبُ الصَّغيرُ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حَملَها ، وترى الناسَ سُكارَى ، وما هُمْ بِسُكارَى ولكنَّ عذابَ الله شديد ، قالَ : فاشتَدَّ ذلِكَ عَلَيْهِمْ ، قالُوا : يا رَسُولَ الله أيُّنَاذَلِكَ الرّجُلُ ، فقال : أَبْشِرُوا فإنَّ مِنْ يَأجُوجَ ومَأْجوجَ ألفاً ومنكُمْ رَجُلٌ ، قالَ : والذى نفسى بيده إنّى لَأَطْمَعُ أن تكونوا رُبْعَ أهلِ الجَنَّةِ ، فَحَمِدْنا الله وكَبَّرْنا ، ثُمَّ قالَ والذى نفسِى بِيَدِه إنِّى لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ فحَمِدْنا الله وكَبّرْنَا ، ثُمَّ قَالَ : والّذِى نَفْسِى بيَدِه إنّى لَأَطْمَعُ أن تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ ، إن مَثَلَكُمْ فى الْأمَمِ كَمَثل الشّعرَةِ البَيْضَاءِ فى جلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْودِ ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فى ذِرَاعِ الحِمَارِ » .

رواه مسلم

(لبيك وسعد والخير فى يديك) :

معنى فى يديك : عندك .

وقوله : (لبيك وسعديك) فى معنى (لبيك) أقوال نشير إلى بعضها وسيأتى إيضاحها فى كتاب الحج إن شاء الله تعالى ، والأظهر أن معناها : إجابة لك بعد إجابة للتأكيد ، وقيل معناه : قرباً منك وطاعة لك ، وقيل : أنا مقيم على طاعتك ، وقيل : محبتى لك ، وقيل غير ذلك .

ومعنى (سعديك) أى ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة .

(أخرج بعث النار) :

البعث هنا بمعنى المبعوث الموجه إليها ، ومعناه : ميز أهل النار من غيرهم .

(فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) :

معناه موافقة الآية فى قوله تعالى : ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ إلى آخرها وقوله تعالى : - ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيبا ﴾ - وقد اختلف العلماء فى وقت وضع كل ذات حمل حملها وغيره من المذكور فقيل : عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدنيا ، وقيل : هو فى القيامة ، فعلى الأول هو على ظاهره ، وعلى الثانى يكون

مجازاً ، لأن القيامة ليس فيها حمل ،ولا ولادة ، وتقديره : ينتهى بها الأهوال والشدائد إلى أنه لو تصورت الحوامل هناك لوضعن أحمالهن كما تقول العرب :

أصابنا أمر يشيب منه الوليد ، يريدون شدته والله أعلم .

(فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل) :

هكذا هو فى الأصول ، والروايات (ألفٌ ، رجلٌ) بالرفع فيهما وهو صحيح .

وأما يأجوج ومأجوج فهما غير مهموزين[1] عند جمهور القراء وأهل اللغة ، وقرأ عاصم بالهمز فيهما ، وأصله من أجيج النار وهو صوتها وشررها ، شبهوا بها لكثرتهم وشدتهم واضطرابهم بعضهم فى بعض ، قال وهب بن منبه ، ومقاتل بن سليمان : هم من ولد يافث ابن نوح ، وقال الضحاك : هم جيل من الترك ، وقال كعب : هم بادرة من ولد آدم من غير حواء ، وذلك أن آدم - ﷺ - احتلم ، فامتزجت نطفته بالتراب ، فخلق الله تعالى منها يأجوج ومأجوج والله أعلم .

كالرَّقْمة فى ذراع الحمار) :

الرقمة بفتح الراء وإسكان القاف قال أهل اللغة : الرقمتان فى الحمار هما الأثران فى باطن عضديه ، وقيل هى الدائرة فى ذراعيه ، وقيل هى الهنة الناتئة فى ذراع الدابة من داخل والله أعلم .

---

(١) ليس على الألف فيهما همزة .

٣٤ – لَا أُبالِي ياابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ :

عن أنسٍ – رضىَ الله عنهُ قالَ : سَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآلهِ وسلَّم – يقولُ : قالَ الله تعالَى : « يا آدَمَ إنكَ ما دَعَوْتَنِى وَرَجَوْتَنِى غفَرْتُ لَكَ علَى ما كَانَ مِنْ ولا أبالِى ، يا ابنَ آدمَ لو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ استَغْفَرْتَنِى غفَرْتُ لَكَ ، يا ابنَ آدَمَ إنكَ لَوْ أتَيْتَنِى بقِراب الأرضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِى لاتُشْرِكُ بِى شَيْئاً لأتَيْتُكَ بقرَابِهَا مَغْفِرَةً » .

رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

(قوله تعالى : عنان السماء) :

عَنان : بفتح العين قيل هو السحاب ، وقيل : ما عن لك منها أى ما ظهر لك منها إذا رفعت رأسك .

(قوله تعالى : ثم استغفرتنى غفرت لك) :

﴿ غفرت لك » هو نظير قوله تعالى : – ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ ، والاستغفار لابد أن يكون مقرونا بالتوبة . قال الله تعالى : – ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ – وقال تعالى : – ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .

واعلم أن الاستغفار معناه : طلب المغفرة وهو استغفار المذنبين ، وقد يكون عن تقصير في أداء الشكر وهو استغفار الأولياء والصالحين .

وقد يكون لا عن واحد منهما (أى ليس استغفار المذنبين وليس استغفارا عن تقصير) بل يكون شكرا وهو استغفاره – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – واستغفار الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام .

قال – صلى الله عليه وآله وسلم : سيد الاستغفار (اللهم أنت ربى . لا إله إلا أنت – خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك على . وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) .

وقال – ﷺ – لأبى بكر رضى الله عنه – :

(قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا – وفى رواية كبيرا – ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم) .

يقول النووى فى كتابه « الأربعين النووية » بعد شرحه هذا الحديث : وهذا آخر ما يسر الله الكريم على سبيل الاختصار والحمد لله رب العالمين .

٣٥ – إنَّ الله كتَبَ الحَسَناتِ والسَّيئاتِ :

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ – رضِيَ اللهُ عنْهُمَا – عَنْ رَسُولِ اللهِ – صلى الله عليهِ وآلِهِ وسلَّم – فيما يَرْوِيهِ عن رَبِّهِ – تبارْكَ وتعالَى – قالَ : « إنَّ اللهَ كتبَ الحسنات والسيئاتِ ثُمَّ بيَّنَ ذلكَ فمَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلَمْ يعمَلْها كتَبَها اللهُ عندَهُ حسنةً كاملةً ، وإنْ هَمَّ بهَا فعَمِلها كتَبها الله عندَه عَشْرَ حسناتٍ إلى سَبْعِمِائةِ ضِعْفٍ إلى أَضعافٍ كثيرةٍ ، وإن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلم يَعَمَلْها كتبَها اللهُ عِندَه حسنةً كاملةً وإن هَمَّ بها فعَمِلَها كتبَها اللهُ سَيِّئةً واحدةً » .

رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما بهذه الحروف

فانظر يا أخى – وفقنا الله وإياك إلى عظيم لطف الله تعالى – وتأمل هذه الألفاظ .

وقوله : (عنده) : –

(إشارة إلى الاعتناء بها .

وقوله : (كاملة) :

للتأكيد وشدة الاعتناء بها .

وقال فى السيئة التى هم بها ، ثم تركها (كتبها الله عنده حسنة

كاملة) فأكدها بـ (كاملة) وإن عملها (كتبها سيئة واحدة) فأكد تقليلها بـ (واحدة) ولم يؤكدها بـ (كاملة) فلله الحمد والمنة سبحانه لا نحصى ثناء عليه وبالله التوفيق .

(قوله - ﷺ كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثير)

وروى البزار فى سنده أنه - ﷺ - قال :

(الأعمال سبعة : عملان موجبان ، وعملان واحد بواحد . وعمل الحسنة فيه بعشرة . وعمل الحسنة فيه بسبعمائة ضعف ، وعمل لا يحصى ثوابه إلا الله تعالى فأما العملان الموجبان : فالكفر والإيمان . فالإيمان يوجب الجنة والكفر يوجب النار ، وأما العملان اللذان هما واحد بواحد : فمن هم بحسنة ولم يعملها كتبها الله له حسنة . ومن عمل سيئة كُتب الله عليه سيئة واحدة . وأما العمل الذى بعشر حسنات : فعمل الحسنة لقوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » وأما العمل الذى بسبعمائة ضعف : فدرهم الجهاد فى سبيل الله تعالى : « كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أنه يضاعف لمن يشاء زيادة على ذلك .

وقال الله تعالى : ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ فدلت الآية والحديث وهو قوله - ﷺ - « إلى أضعاف كثيرة » أن (العشر) و (السبعمائة) كلمة ليست للتحديد ، وأنه

يضاعف لمن يشاء ، ويعطى من لدنه ما لا يعد ولا يحصى . فسبحان من لا تحصى آلاؤه ولا تعد نعماؤه فله الشكر والنعمة والفضل .

وأما السابع : فهو الصائم ، يقول الله تعالى « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » فلا يعلم ثواب الصوم إلا الله .

****

٣٦ – لا يَزالُ عَبدِى يَتقَرَّبُ إلىَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ :

عَن أبى هريرة – رضىَ الله عنهُ – قالَ : قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّمَ – إن الله تعالى قالَ : « مَنْ عَادَى لِى وَليًّا فقد آذنْتُه بالحَرْبِ ، ومَا تَقَرَّبَ إلَىَّ عَبدِى بشىءٍ أحبَّ إلىَّ مما افْتَرضْتُهُ عليه ، ولا يزالُ عَبدى يتقربُ إلىَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أحِبَّهُ فإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ به وَبَصَرَهُ الذِى يُبْصِرُ به ، ويَدَهُ الّتى يَبْطشُ بهَا ، ورِجْلَهُ الَّتى يَمْشى بِهَا وَلَئِنْ سَأَلَنى لأُعطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ استَعاذَنِى لأعِيذَنَّهُ » .

رواه البخارى

(قوله – صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه تعالى – : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب) :

المراد هنا بالولى : المؤمن ، قال الله تعالى : « الله ولى الذين آمنوا » فمن آذى مؤمنا فقد آذنه الله أى أعلمه الله أنه محارب له ، والله تعالى إذا حارب العبد أهلكه ، فليحذر الإنسان من التعرض لكل مسلم .

« قوله تعالى : وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه » :

فيه دليل على أن فعل الفريضة أفضل من النوافل ، وجاء فى الحديث أن ثواب الفريضة يفضل على ثواب النافلة بسبعين مرة .

قوله تعالى : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » :

ضرب العلماء- رضى الله تعالى عنهم- لذلك مثلا فقالوا : مثل الذى يأتى بالنوافل مع الفرائض ومثل غيره كمثل رجل أعطى لأحد عبديه درهما ليشترى به فاكهة وأعطى الآخر درهما ليشترى به فاكهة فذهب أحد العبدين فاشترى فاكهة فوضعها فى قوصرة[1] وطرح عليها ريحانا ومشموما من عنده ثم جاء فوضعها بين يدى السيد، وذهب الآخر واشترى الفاكهة فى حجره ثم جاء فوضعها بين يدى السيد على الأرض ، فكل واحد من العبدين قد امتثل لكن أحدهما زاد من عنده القوصرة والمشموم فيصير أحب إلى السيد . فمن صلى النوافل مع الفرائض يصير أحب إلى الله. والمحبة من الله: إرادة الخير. فإذا أحب عبداً شغله بذكره وطاعته وحفظه من الشيطان واستعمل أعضاءه فى الطاعة وحبب إليه سماع القرآن والذكر ، وكره إليه سماع الغناء وآلات اللهو ، وصار من الذين قال الله تعالى فى حقهم :- ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾-وقال تعالى :- ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾-فإذا سمعوا منهم كلاما فاحشا أضربوا عنه وقالوا : قولا يسلمون فيه ، وحفظ بصره عن المحارم فلا ينظر إلى ما لايحل وصار نظره نظر فكر واعتبار فلا يرى من المصنوعات إلا

(١) القوصرة : وعاء من قصب يوضع فيه التمر ونحوه .

استدل به على خالقه ، وقال على – رضى الله عنه – : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله تعالى قبله . ومعنى الاعتبار : العبور بالفكر فى المخلوقات إلى قدرة الخالق فيسبح عند ذلك ويقدس ويعظم وتصير حركاته باليدين والرجلين كلها لله تعالى ولا يمشى فيما لا يعنيه ، ولا يفعل بيده شيئا عبثا ، بل تكون حركاته وسكناته لله تعالى فيثاب على ذلك فى حركاته وسكناته وفى سائر أفعاله .

قوله تعالى : « كنت سمعه » :

يحتمل كنت الحافظ لسمعه ولبصره ولبطش يده ورجله من الشيطان ، ويحتمل كنت فى قلبه عند سمعه وبصره وبطشه ، فلذا ذكرنى كف عن العمل لغيرى .

***

٣٧ - أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ :

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ يبلغُ به النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسَلَّم - قالَ : قالَ الله - تباركَ وتَعالَى - : « يا ابن آدمَ أَنْفِقْ أنْفِقْ عَلَيْك ، وَقَالَ : يَمينُ الله مَلْأى - وقالَ ابنُ نمير : ملآنُ - سَحَّاءُ لا يَغِيضُها شيءٌ بالليلِ والنَّهارِ » .

رواه مسلم

(أنفق أنفق عليك) :

هو معنى قوله - عز وجل - ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ فيتضمن الحث على الإنفاق معنى فى وجوه الخير والتبشير بالخلف من فضل الله تعالى .

(يمين الله ملأى - وقال ابن نمير ملآن) :

هكذا وقعت رواية ابن نمير بالنون . قالوا : وهو غلط وصوابه ملأى كما فى سائر الروايات ، ثم ضبطوا رواية ابن نمير (ملآن) من وجهين : أحدهما اسكان اللام وبعدها همزة ، والثانى : ملان بفتح اللام بلا همز .

(سحاء لا يغيضها شيء بالليل والنهار) :

سحاء : بفتح السين والحاء من السح وهو الصب الدائم وهى صفة لليد .

ومعنى لا يغيضها شيء : أى لا ينقصها شيء يقال : غاض الماء ، وغاضه الله .

قال القاضى : قال المازرى :

هذا مما يتأول لأن اليمين بمعنى المناسبة للشمال لا يوصف بها البارى سبحانه وتعالى لأنها تتضمن إثبات الشمال وهذا يتضمن التحديد ، ويتقدس الله سبحانه وتعالى عن التجسيم والحد ، وإنما خاطبهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ بما يفهمونه وأراد الإخبار بأن الله تعالى لا ينقصه الإنفاق ولا يمسك خشية الإملاق جل الله عن ذلك ، وعبر ـــ ﷺ ـــ عن توالى النعم بسح اليمين لأن الباذل منا يفعل ذلك بيمينه ، قال : ويحتمل أن يريد بذلك أن قدرة الله تعالى سبحانه وتعالى على الأشياء على وجه واحد لا يختلف ضعفا وقوة ، وأن المقدورات تقع بها على جهة واحدة ولا تختلف قوة وضعفا كما يختلف فعلنا باليمين والشمال ، تعالى الله عن صفات المخلوقين ومشابهة المحدثين .

تعليق :

وردت أحاديث كثيرة تحث على الإنفاق وخاصة الإنفاق على العيال والإنفاق فى سبيل الله ومن ذلك ما رواه مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : أفضل دينار ينفقه الرجل دينار

ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله .

قال أبو قلابة : وبدأ بالعيال ثم قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين . ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك .

٣٨ - الْوَسْوَسَةُ فى الإيمانِ وكَيفَ تُعَالَجُ ؟

عنِ أنسِ بنِ مالكٍ عن رسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ قالَ : قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : « إنَّ أُمَّتَكَ لا يَزالونَ يقولونَ ما كَذَا ؟ حتَّى يقولُوا هذا اللهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ » .

رواه مسلم

وفى رِوايةٍ أُخرى لمُسْلِمٍ عن أبى هُرَيرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : « لا يَزَالُ الناسُ يَتَساءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ : هذا خَلْقُ اللهِ الخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ فَمَنْ وَجَدَ من ذَلِكَ شيئاً فَلْيَقُلْ : آمنتُ باللهِ» .

وفى روايةٍ لمسلمٍ عن أبى هريَرة أيضًا :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يأتى الشيطانُ أَحَدَكُمْ فيقولُ : مَنْ خَلَقَ كَذَا وكَذَا ؟ حَتَّى يقُولَ لَهُ : مَنْ خَلَقَ رَبَّك ؟ فإذا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ » .

ذكر الإمام النووى رحمه الله عدة روايات فى الوسوسة :

ففى رواية عن أبى هريرة (قال : جاء ناس من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ،

قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : ذاك صريح الإيمان) .

وفى الرواية الأخرى (سئل النبى ـ ﷺ ـ عن الوسوسة فقال : تلك محض الإيمان) .

وفى الحديث الآخر (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : آمنت بالله) .

وفى الرواية الأخرى : (فليقل آمنتُ باللهِ ورُسلِه) .

وفى الرواية الأخرى (يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله، ولينته) .

أما معانى الأحاديث وفقهها فقوله ـ ﷺ ـ : (ذلك صريح الإيمان ومحضُ الإيمان) معناه : استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان ، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلا عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالا محققا ، وانتفت عنه الريبة والشكوك

واعلم أن الرواية الثانية وإن لم يكن فيها ذكر الاستعظام فهو مراد، وهى مختصرة من الرواية الأولى ، ولهذا قدم مسلم رحمه الله الرواية الأولى .

وقيل معناه : ان الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه فينكد

عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه ، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ولا يقتصر فى حقه على الوسوسة بل يتلاعب به كيف أراد ، فعلى هذا معنى الحديث : سبب الوسوسة محض الإيمان ، أو الوسوسة علامة الإيمان و هذا القول اختيار القاضى عياض .

وأما قوله ـ ﷺ ـ : (فمن وجد ذلك فليقل : آمنت بالله) وفى الرواية الأخرى (فليستعذ بالله ولينته) .

فمعناه : الإعراض عن هذا الخاطر الباطل والالتجاء إلى الله تعالى فى إذهابه .

قال الإمام المازرى رحمه الله :

ظاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها ، والرد لها من غير استدلال ولا نظر فى إبطالها . قال : والذى يقال فى هذا المعنى أن الخواطر على قسمين :

القسم الأول : خواطر ليست مستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت ومثل هذه الخواطر تدفع بالإعراض وعلى هذا يحمل الحديث ، وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة فكأنه لما كان أمرا طارئا بغير أصل دفع بغير نظر فى دليل إذ لا أصل له ينظر فيه .

القسم الثانى : الخواطر المستقرة التى أوجبتها الشبهة وهذه لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر فى إبطالها والله أعلم .

وأما قوله ﷺ (فليستعذ بالله ولينته) فمعناه :

إذا عرض له هذا الوسواس فليلجأ إلى الله تعالى فى دفع شره عنه وليعرض عن الفكر فى ذلك وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان وهو إنما يسعى بالفساد والإغواء ، فليعرض عن الإصغاء إلى وسوسته ، وليبادر إلى قطعها بالاشتغال بغيرها والله أعلم .

٣٩ - سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه :

عن عائشةَ قالت : كان رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ يُكْثِرُ من قولِ : سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه ، أَستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ ، قالتْ : فقلتُ يارسولَ اللهِ أراكَ تُكثِرُ مِن قولِ سُبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ أَستَغْفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ ، فقالَ : « خَبَّرَنى رَبّى أَنّى سأَرَى علامة فى أُمَّتِى ، فإذا رأيتُهَا أَكثَرتُ مِنْ قَوْلِ : سبحانَ اللهِ وبحمدِه ، أَستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ ، فَقدْ رَأيتُها ﴿ إذا جَاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ، ورأيتَ الناسَ يَدخُلونَ فى دينِ اللهِ أَفواجًا فسبِّحْ بحمدِ رَبِّكَ وآستَغْفِرْهُ إنّهُ كانَ تَوَّابًا ﴾ .

رواه مسلم

وفى روايةٍ أُخرَى لِمُسْلِمٍ عن أبى هُريرةَ :

أَنَّ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ قالَ : « أَقْربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ ساجِدٌ فَأَكثِرُوا الدُّعَاءَ » .

ورَوَى مُسلِمٌ عن أَبى هريرَةَ أنَّ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ كانَ يقولُ فى سُجودِهِ : « اللّهُمَّ آغفِرْ لِى ذَنْبى كُلَّهُ دِقَّهُ وجُلَّهُ وأَوّلَهُ وآخرَهُ وعَلانيتهُ وسِرَّهُ » .

ورَوَى مسلمٌ عن عائشةَ قالت : كان رسولُ اللهِ ــ ﷺ ــ يُكْثِرُ أن يقُولَ قبلَ أَنْ يَموتَ : « سُبْحَانَكَ وبِحَمْدِكَ ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ قالتْ : قلتُ يارسولَ اللهِ : ما هذِهِ الكلماتُ التى أراكَ أَحْدَثْتَها تقولُها ؟ ، قال : جُعِلَتْ لِى علامةٌ فى أُمَّتِى إذا رأيتُها قُلْتُها » ﴿ إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ... إلى آخر السُّورَةِ ﴾.

(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) :

معناه : أقرب ما يكون من رحمة ربه وفضله . وفيه الحث على الدعاء فى السجود . وفيه دليل لمن يقول : إن السجود أفضل من القيام و سائر أركان الصلاة ، وفى هذه المسألة ثلاثة مذاهب :

أحدها : أن تطويل السجود وتكثير الركوع والسجود أفضل ــ حكاه الترمذى والبغوى عن جماعة . وممن قال بتفضيل تطويل السجود ابن عمر رضى الله عنهما .

والمذهب الثانى : مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه وجماعة ــ أن تطويل القيام أفضل لحديث جابر فى صحيح مسلم أن النبى ــ ﷺ ــ قال : (أفضل الصلاة طول القنوت) والمراد بالقنوت القيام ولأن ذكر القيام : القراءة ، وذكر السجود :

التسبيح ، والقراءة أفضل ؛ لأن المنقول عن النبى — ﷺ — أنه كان يطول القيام أكثر من تطويل السجود .

والمذهب الثالث : أنهما سواء . وتوقف أحمد بن حنبل فى المسألة ولم يقض فيها بشيء . وقال إسحاق بن راهويه : أما فى النهار فتكثير الركوع والسجود أفضل . وأما فى الليل فتطويل القيام إلا أن يكون للرجل جزء بالليل يأتى عليه فتكثير الركوع والسجود أفضل ؛ لأنه يقرأ جزأه ويربح كثرة الركوع والسجود . قال الترمذى : إنما قال اسحاق هذا لأنهم وصفوا صلاة النبى — ﷺ — بالليل بطول القيام . ولم يوصف من تطويله بالنهار ما وصف بالليل والله أعلم .

(اللهم اغفر لى ذنبى كلَّه دِقه وجُله) :
(دقة) بكسر الدال أى قليله .
(جُلَّه) بضم الجيم — أى كثيره ومعظمه

وفيه توكيد الدعاء وتكثير ألفاظه وان أغنى بعضها عن بعض

(كان رسول الله — ﷺ — يكثر أن يقول فى ركوعه سجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك . اغفر لى يتأول القرآن) :
وفى الرواية الأخرى : (أستغفرك وأتوب اليك) :

يتأول القرآن : يعمل ما أمر به فى قول الله عز وجل : « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

وكان — ﷺ — يقول هذا الكلام البديع فى الجزالة ، المستوفى ما أمر به فى الآية ، وكان يأتى به فى الركوع والسجود ، لأن حالة الصلاة أفضل من غيرها فكان يختارها لأداء هذا الواجب الذى أمر به ليكون أكمل .

قال أهل اللغة العربية وغيرهم : التسبيح : التنزيه وقولهم « سبحان الله » منصوب على المصدر يقال : سبحت الله تسبيحا وسبحانا « فسبحان الله » معناه : براءةً وتنزيها له من كل نقص وصفةٍ لمحدث . قالوا : وقوله « وبحمدك » أى وبحمدك سبحتك . ومعناه : بتوفيقك لى وهدايتك وفضلك على سبحتك لا بحولى وقوتى . ففيه شكر لله تعالى وأن كل الأفعال له ، والله أعلم .

وفى قوله — ﷺ — (أستغفرك وأتوب إليك) : حجة على أنه يجوز بل يستحب أن يقول : أستغفرك وأتوب إليك . وحكى عن بعض السلف كراهته لئلا يكون كاذبا ، قال : بل يقول : اللهم اغفر لى وتب على ، وهذا الذى قاله من قوله : (اللهم اغفر لى وتب على) حسن لا شك فيه ، وأما كراهة قوله (أستغفر الله وأتوب إليه) فلا نتفق معه فى ذلك وقد ذكرت المسألة بدلائلها فى باب الاستغفار من كتاب « الأذكار » والله أعلم .

وأما استغفاره — ﷺ — وقوله — ﷺ — (اللهم اغفر لى ذنبى كله) مع أنه مغفور له فهو من باب العبودية والإذعان والافتقار إلى الله تعالى والله أعلم .

تعليق :

وردت أدعية مأثورة كان يواظب عليها النبى ــ ﷺ ــ فى ركوعه وسجوده ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبى هريرة عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ــ ﷺ ــ ليلة من الفراش فالتمسته فرفعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : (اللهم أعوذ برضاك من سخطلك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) .

وروى مسلم عن مطرف أن عائشة نبأته أن رسول الله ــ ﷺ ــ كان يقول فى ركوعه وسجوده (سبوح قدوس رب الملائكة والروح) .

* * *

٤٠ — الصفاتُ التى يُعرَفُ بها فى الدُّنيا أهلُ الجنةِ وأهلُ النارِ :

عن عِياضٍ أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قالَ ذاتَ يومٍ فى خُطبتِه : « أَلا إِنَّ رَبِّى أَمَرَنِى أَنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُم مِمَّا عَلَّمَنِى يَوْمِى هَذَا : كل مال نَحَلْتُه عبداً حلالٌ ، وإِنى خَلَقْتُ عِبادِى حُنَفَاءَ كُلَّهُم ، وإنهم أَتَتْهُمُ الشّياطينُ فاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِم ، وحرَّمَتْ عليهِمْ مَا أحْلَلْتُ لَهُمْ ، وأَمَرَتْهُمْ أن يُشْرِكُوا بِى ما لَمْ أُنَزِّلْ بِه سُلْطانًا ، وإِن اللهَ نَظَرَ إلى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبهُمْ وعَجمهُمْ ، إلاّ بَقَايَا مِنْ أَهلِ الكِتَابِ ، وقالَ : إنما بَعَثْتُكَ لِأَبتَلِيَكَ وأَبتَلِىَ بكَ ، وأَنْزَلتُ عليكَ كِتابًا لا يَغْسِلُه الماءُ ، تقرؤه نائمًا ويقظانَ ، وإنَّ اللهَ أمرَنِى أن أُحَرِّقَ قُرَيْشًا ، فقلتُ : رَبِّ إذاً يَثْلَغُوا رَأْسِى فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً ، قال : استَخرجْهُم كما استخرَجُوكَ ، وٱغْزُهُمْ نُغْزِكَ ، وأَنفِقْ فسَنُنْفِقْ عَلَيكَ ، وابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسةً مِثْلَهُ ، وقاتِلْ بِمَنْ أطَاعَكَ من عَصَاكَ ، قالَ : وأهلُ الجَنَّةِ ثَلاثَةٌ : ذو سُلطانٍ مُقْسِطٌ ، مُتَصدِّقٌ مُوَفَّقٌ ، ورَجُلٌ ، رَحِيمٌ ، رقيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِى قُرْبَى ومُسْلِمٍ ، وعفيفٌ مُتَعفّفٌ ذُو عِيالٍ ، قال : وأهلُ النار خمسةٌ :

الضعيفُ الذى لا زَبْرَ لَهُ ، الذينَ هُمْ فِيكُمْ تبعاً ، لا يَبتغُونَ أهلاً ولا مالاً ، والخائنُ الذى لا يَخْفَى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلا خَانَهُ ، ورَجُلٌ لا يُصْبِحُ ولا يُمْسِي إلا وهو يُخَادِعُكَ عَنْ أَهلِك ومَالِكَ » وذَكَرَ البُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ ، والشِّنْظِيرُ : الفَحَّاشُ » . ولم يَذْكُر أبو غَسّانَ فى حديثِه (وأنفِقْ فَسَنُنْفِقْ عَلَيْكَ) .

رواه مسلم

(إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا كل مال نحلته عبدا حلال) .

معنى نحلته : أعطيته ، وفى الكلام حذف أى قال الله تعالى : كل مال أعطيته عبدا من عبادى فهو له حلال ، والمراد : إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامى وغير ذلك وأنها لم تصر حراما بتحريمهم ، وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق .

(وإنى خلقت عبادى حنفاء) :

أى مسلمين ، وقيل طاهرين من المعاصى ، وقيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية ، وقيل المراد حين أخذ عليهم العهد ،وقال: ﴿ألست بربكم ؟ قالوا : بلى﴾ .

(وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم) :

(اجتالتهم) بالجيم وفى رواية (فاختالتهم) بالخاء والأول أصح وأوضح ومعناه : استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم فى الباطل . كذا فسره الهروى وآخرون ، وقال شمر : اجتال الرجل الشيء : ذهب به ، واجتال أموالهم : ساقها وذهب بها .

قال القاضى : ومعنى (فاختالوهم) بالخاء ـــ على رواية من رواه ـــ أى يحبسونهم عن دينهم ويصدونهم عنه .

(وإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب) :

المقت : أشد البغض . والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ـــ ﷺ ـــ والمراد ببقايا أهل الكتاب : الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل .

(إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك) :

معناه : لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة ، وغير ذلك من الجهاد فى الله حق جهاده ، والصبر فى الله تعالى وغير ذلك . وأبتلى بك من أرسلتك إليهم فمنهم من يظهر إيمانه ، ويخلص فى طاعاته ، ومن يتخلف ويتأيد بالعداوة والكفر ، ومن ينافق ، والمراد : أن يمتحنه ليصير ذلك واقعا بارزا فإن الله تعالى

إنما يعاقب العباد على ما وقع منهم لا على ما يعلمه قبل وقوعه وإلا فهو سبحانه عالم بجميع الأشياء قبل وقوعها وهذا نحو قوله : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ أى نعلمهم فاعلين ذلك متصفين به .

(وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان) :

أما قوله تعالى (لا يغسله الماء) فمعناه : محفوظ فى الصدور ، لا يتطرق إليه الذهاب ، بل يبقى على مر الأزمان .

وأما قوله تعالى : « تقرؤه نائما ويقظان » فقال العلماء : معناه : يكون محفوظا لك فى حالتى : النوم واليقظة . وقيل تقرؤه فى يسر وسهولة .

(فقلت رب إذًا يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة) :

(يثلغوا) : بفتح الياء وسكون الثاء وفتح اللام معناه : يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز أى يكسر

(واغزهم نُغْزِك) :

نغزك بضم النون وكسر الزاى : أى نُعِنْك .

(وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف) :

قوله : (ومسلمٌ) مجرور ومعطوف على (ذى قربى) وقوله : (مقسط) أى عادل .

(الضعيف الذى لا زَبْر له ، الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا) :

زَبْر بفتح الزاى وسكون الباء : أى لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغى . وقيل : هو الذى لا مال له . وقيل : الذى ليس عنده ما يعتمده .

يتبعون (بالعين) : بتشديد التاء أو بتخفيفها من الاتباع ، وفى بعض النسخ (يبتغون) بالغين أى يطلبون .

(والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه) :

معنى لا يخفى : لا يظهر ، قال أهل اللغة : يقال : خفيت الشيء إذا أظهرته . وأخفيته إذا سترته وكتمته ، هذا هو المشهور وقيل : هما لغتان فيهما جميعا .

(وذكر البخل والكذب) :

وهى فى أكثر النسخ (أو الكذب) بـ (أو) وفى بعضها (والكذب) (بالواو) والأول هو المشهور فى نسخ بلادنا . وقال : القاضى : روايتان عن جميع شيوخنا بالواو إلا ابن جعفر عن الطبرى فبـ (أو) ولعله الصواب وبه تكون المذكورات خمسة ..

(وأما الشِّنْظِير) بكسر الشين والظاء وإسكان النون بينهما : ففسر فى الحديث بأنه الفحاش وهو السيىء الخلق .

٤١ – إذا خَرَجَتْ رُوحُ المؤمِنِ :

عن أبى هريرةَ قالَ : إذا خرجَتْ رُوحُ المؤْمِنِ تلقَّاها مَلَكَانِ يصعدانها ـــ قال حمادُ : فذَكَر مِنْ طِيبِ ريحِها وذَكَر المِسْكَ ـــ قال : ويقولُ أهلُ السماءِ : رُوحٌ طيبةٌ جاءتْ مِن قِبَلِ الأرْض ، صلَّى اللهُ علَيْكِ وعلى جَسَدٍ كنتِ تَعْمُرِينَه ، فيُنْطَلَقُ به إلى رَبِّهِ عزَّ وجَلَّ ، ثم يقولُ : آنطلِقُوا بِهِ إلى آخِرِ الأجَلِ ، قال : وإن الكافرَ إذا خرجَتْ رُوحهُ ـــ قالَ حَمَّادُ : وَذَكَرَ مِنْ نَتَنِها ، وذَكَرَ لَعْناً ـــ ويقولُ أهلُ السماءِ : روحٌ خبيثةٌ جاءتْ من قِبَلِ الأرضِ ـــ قالَ : فيُقالُ انطَلِقُوا بِهِ إلى آخِرِ الأَجَلِ . قالَ أبُو هُرَيْرَةَ : فردَّ رسولُ اللهِ ـــ ﷺ ـــ رَيْطَةً كانت عليهِ على أنفِه هكَذَا .

رواه مسلم

قوله فى روح المؤمن (ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل ، ثم قال فى روح الكافر : فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل) :

قال القاضى : المراد الأول : انطلقوا بروح المؤمن الى سدرة المنتهى .

والمراد بالثانى : انطلقوا بروح الكافر الى سجين . فهى منتهى الأجل . ويحتمل أن المراد الى انقضاء أجل الدنيا .

(فرد رسول الله ـ ﷺ ـ رَيْطة كانت عليه على أنفه)

الريطة : بفتح الراء وسكون الياء : ثوب رقيق ، وقيل هى الملاءة . وكان سبب ردها على الأنف بسبب ما ذكر من نتن ريح روح الكافر .

تعليق :

وردت أحاديث فى ذكر عذاب القبر والتعوذ منه ، وكيف يعرض على المؤمن أو الكافر مقعده من الجنة أو النار :

روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة .

وروى مسلم عن أنس أن النبى ـ ﷺ ـ قال : لولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يمنعكم من عذاب القبر .

وروى مسلم عن أبى أيوب قال : خرج رسول الله ـ ﷺ ـ بعد ما غربت الشمس فسمع صوتا فقال : يهود تعذب فى قبورها .

وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال نبى الله ـ ﷺ ـ

إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم ، قال : يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال : فيقال له : أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة . قال نبى الله ــ ﷺ ــ : فيراها جميعا ــ قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون .

وروى مسلم عن البراء بن عازب عن النبى ــ ﷺ ــ قال : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ــ قال : نزلت فى عذاب القبر فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ونبيى محمد ــ ﷺ ــ فذلك قوله ــ عز وجل : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة وفى الآخرة ﴾ .

وروى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ــ ﷺ ــ ترك قتلى بدر ثلاثا ، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال : « يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف ، ياعتبة بن ربيعة . يا شيبة بن ربيعة ــ أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا » ؟! . فسمع عمر قول النبى ــ ﷺ ــ فقال : يارسول الله

كيف يسمعوا وأنى يجيبوا[1] وقد جيفوا[2] ؟ قال : والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا فى قليب بدر[3] .

* * *

---

(١) الأصل (يسمعون ، وأنى يجيبون) بالنون ، وفى «مسلم» (يسمعوا ، وأنى يجيبوا) من غير نون ، وقال المحشى عليه : هكذا هو فى عامة النسخ المعتمدة من غير نون ، وهى لغة صحيحة ؛ وإن كانت قليلة الاستعمال ، وعلى هذا جرى شارح الكتاب مما يشعر بأن مافى الأصل خطأ مطبعى .

(٢) جيفوا : انتنوا وصاروا جيفة يقال : جيف الميت وجاف وأجاف بمعنى أنتن .

(٣) القليب : هى البئر المطوية بالحجارة ، قال العلماء : وهذا السحب ليس دفنا لهم ولاصيانة ولاحرمة بل لدفع رائحتهم المؤذية .

٤٢ – تحريمُ تصويرِ صورةِ الحَيوانِ :

عن أبى زُرْعةَ قالَ : دخلتُ مع أبى هريرةَ فى دارِ مَرْوانَ فرأى فيها تَصاويرَ فقال : سمعتُ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ يقولُ : « قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ : ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كخلْقِى فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أو لِيَخْلُقُوا شَعِيرَة » .

رواه مسلم

وروى مسلم عن ابن السباق أن عبد الله بن عباس قال : أخبرتنى ميمونة أن رسول الله ـ ﷺ ـ أصبح يوما واجما فقالت ميمونة : يارسول الله لقد استنكرت هيئتك منذ اليوم قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن جبريل كان وعدنى أن يلقانى الليلة فلم يلقنى ، أمَا والله ما أخلفنى ، قال : فظل رسول الله ـ ﷺ ـ يومه ذلك على ذلك ، ثم وقع فى نفسه جِروُ كلب تحت فسطاط لنا فأمر به فأخرج ثم أخذ بيده ماء فنضح مكانه فلما أمسى لقيه جبريل فقال له : قد كنت وعدتنى أن تلقانى البارحة ، قال : أجل ولكنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة ، فأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ يومئذ فأمر بقتل الكلاب حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير ويترك كلب الحائط الكبير .

وروى مسلم عن أبى طلحة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة .

قال الإمام النووى فى شرح هذه الأحاديث :

قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم ، وهو من الكبائر ؛ لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور فى الأحاديث ، وسواء ما كان فى ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها ، وأما تصوير صورة الشجر ، ورحال الإبل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام ، هذا حكم التصوير نفسه ، وأما اتخاذ المصور فيه صورة حيوان فإن كان معلقًا على حائط أو ثوبا ملبوسا أو عمامة ونحو ذلك مما لا يعد ممتهنا فهو حرام ، وإن كان فى بساط يداس ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام ، ولكن هل يمنع دخول ملائكة الرحمة ذلك البيت ؟ فيه كلام نذكره قريبا إن شاء الله ، ولا فرق فى هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل له ، هذا تلخيص مذهبنا فى المسألة ، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وهو مذهب الثورى ومالك وأبى حنيفة وغيرهم ، وقال بعض السلف : إنما ينهى عما كان له ظل ، ولا بأس بالصور التى ليس لها ظل ، وهذا مذهب باطل فإن الستر الذى أنكر النبى ـــ ﷺ ـــ الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم ، وليس لصورته ظل ـــ مع باقى الأحاديث المطلقة فى كل صورة .

وقال الزهرى : النهى فى الصورة على العموم وكذلك استعمال ما هى فيه ، ودخول البيت الذى هى فيه سواء كانت رقما فى ثوب[1]

(١) رقم الثوب معناه : نقشه .

أو غير رقم وسواء كانت فى حائط أو ثوب أو بساط ممتهن أو غير ممتهن ؛ عملا بظاهر الأحاديث لاسيما حديث النمرقة الذى ذكره مسلم[1] وهذا مذهب قوى .

وقال اخرون : يجوز منها ما كان رقما فى ثوب سواء امتهن أم لا ، وسواء علق فى حائط أم لا ، وكرهوا ما كان له ظل أو كان مصورا فى الحيطان سواء كان رقما أو غيره ، واحتجوا بقوله فى بعض أحاديث الباب : (إلا ما كان رقما فى ثوب) ، وهذا مذهب القاسم ابن محمد .

وأجمعوا على ما كان له ظل ووجوب تغييره ـــ قال القاضى : إلا ما ورد فى اللعب بالبنات لصغار البنات والرخصة فى ذلك ، لكن كره الإمام مالك شراء الرجل ذلك لابنته ، وادعى بعضهم أن إباحة اللعب لهن بالبنات منسوخ بهذه الأحاديث والله أعلم . (أصبح يوما واجما) :

واجما : قال أهل اللغة : هو الساكت الذى يظهر عليه الهم والكآبة : وقيل : هو الحزين . يقال : وجم يجم وجوما . (أصبح يوما واجما فقالت ميمونة : يارسول الله لقد استنكرت هيئتك منذ اليوم ، قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : إن جبريل كان وعدنى أن يلقانى الليلة فلم يلقنى ، أو والله ما أخلفنى) : فيه أنه يستحب للإنسان إذا

(١) سنذكر هذا الحديث فى نهاية الشرح .

رأى صاحبه ومن له حق واجما أن يسأله عن سببه ، فيساعده فيما يمكن مساعدته أو يتحزن معه ، أو يذكره بطريق يزول به ذلك العارض .

وفيه أنه إذا تكدر وقت الإنسان ، أو تنكدت وظيفته ونحو ذلك فينبغى أن يفكر فى سببه كما فعل النبى — ﷺ — هنا حتى استخرج الكلب ، وهو من نحو قول الله تعالى : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

(ثم وقع فى نفسه جرو كلب تحت فسطاط لنا فأمر به فأخرج ثم أخذ بيده ماء فنضح مكانه) :

أما (الجرْوُ) فبكسر الجيم وضمها وفتحها ثلاث لغات مشهورات ، وهو الصغير من أولاد الكلب وسائر السباع . والجمع : أَجْرٍ وجِرَاءٌ . وجمع الجراء : أجرية .

وأما (الفُسطاط) بضم الفاء : ففيه ست لغات : فسطاط وفستاط بالتاء ، وفساط بتشديد السين وضم الفاء فيهن وتكسر وهو نحو الخباء . قال القاضى : والمراد به هنا بعض حِجَال البيت بدليل قولها فى الحديث الآخر (تحت سرير عائشة) وأصل الفسطاط عمود الأخبية التى يقام عليها والله أعلم .

وأما قوله (ثم أخذ بيده ماء فنضح به مكانه) :

فقد احتج به جماعة فى نجاسة الكلب ، قالوا : والمراد بالنضح : الغسل ، وتأولته المالكية على أنه غسله لخوف حصول بوله أو روثه .

(لا تدخلْ الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة) :

قال العلماء : سبب امتناعهم من بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة . وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى ، وبعضها فى صورة ما يعبد من دون الله تعالى ، وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب لكثرة أكله النجاسات ، ولأن بعضها يسمى شيطانا كما جاء به الحديث ، والملائكة ضد الشياطين ، ولقبح رائحة الكلب والملائكة تكره الرائحة القبيحة ، ولأنها منهى عن اتخاذها فعوقب متخذها بحرمانه، دخول الملائكة بيته وصلاتها فيه واستغفارها له وتبريكها عليه فى بيته ، ودفعها أذى الشيطان .

وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتا فيه كلب ولا صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار .

وأما الحفظة فيدخلون فى كل بيت ، ولا يفارقون بنى آدم فى كل حال ؛ لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها .

قال الخطابى : وإنما لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة مما يحرم اقتناؤه من الكلاب والصور ، فأما ما ليس بحرام من كلب الصيد والزرع والماشية،والصورة التى تمتهن فى البساط والوسادة وغيرها فلا يمتنع دخول الملائكة ، وأشار القاضى إلى نحو ما قاله

الخطابى ، والأظهر أنه عام فى كل كلب وكل صورة وأنهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الأحاديث ولأن الجرو الذى كان فى بيت النبى - ﷺ - تحت السرير كان له فيه عذر ظاهر ، فإنه لم يعلم به ومع هذا امتنع جبريل - ﷺ - من دخول البيت وعلل بالجرو ، فلو كان العذر فى وجود الصورة والكلب لا يمنعهم لم يمتنع جبريل والله أعلم .

(فأمر بقتل الكلاب حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير ويترك كلب الحائط الكبير) .

المراد بالحائط : البستان ، وفرق بين الحائطين لأن الكبير تدعو الحاجة إلى حفظ جوانبه ، ولا يتمكن الناظور[1] من المحافظة على ذلك ، بخلاف الصغير . والأمر بقتل الكلاب منسوخ[2] .

تعليق :

يمكن أن نلخص الأحكام المتعلقة بهذه الأحاديث فيما يلى :

أولا : اتفق جميع العلماء والأئمة فى النهى عن صور الحيوان المجسمة أى التى لها ظل ، وأن ذلك من الكبائر التى ورد فيها الوعيد الشديد ، لأن فيه مضاهاة لخلق الله .

ثانيا : أما صورة الحيوان التى ليس لها ظل فقد اختلفوا فيها :

---

(١) الناظور والناطور حافظ الزرع وحارسه

(٢) سيأتى بيانه فى الشرح إن شاء الله .

ففريق يرى أن النهى فى الصورة على العموم ، وكذلك استعمال ما هى فيه كالثوب أو الحائط ودخول البيت الذى هى فيه سواء كانت رقما فى ثوب ، أو غير رقم ، وسواء كانت فى حائط ، أو ثوب أو بساط ممتهن أو غير ممتهن ، واستدل هذا الفريق بظاهر الأحاديث لاسيما حديث النُّمْرُقة الذى رواه مسلم عن عائشة (أنها اشترت نمرقة[1] فيها تصاوير فلما رآها رسول الله ـ ﷺ ـ قام على الباب فلم يدخل فعَرفت ـ أو فَعُرِفت ـ فى وجهه الكراهية فقالت يارسول الله : أتوب إلى الله وإلى رسوله فماذا أذنبت ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إن أصحاب هذه الصور يعذبون ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم ، ثم قال : إن البيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة) .

وهذا الرأى أو هذا المذهب ـ على حد تعبير الإمام النووى ـ مذهب قوى ويميل إليه بل يؤيده الإمام النووى .

وقال آخرون : يجوز فيها ماكان رقما فى ثوب سواء امتهن أم لا ، وسواء علق فى حائط أم لا ، وكرهوا ما كان له ظل ، أو كان مصورا فى الحيطان سواء كان رقما أو غيره .

أما فيما يتعلق بقتل الكلب ونسخ ذلك فيما بعد فنقول :

---

(١) النمرُقة (بضم النون المشددة وضم الراء) الوسادة الصغيرة وجمعها نمارق ، وفى القرآن : ﴿ونمارق مصفوفة﴾ .

وردت عدة روايات متسلسلة فى هذا الموضوع ذكرها الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم فى كتاب « البيوع » .

ففى رواية جاء الأمر صريحا بقتل الكلاب .

فعن ابن عمر قال (أمر رسول الله ــ ﷺ ــ بقتل الكلاب فأرسل فى أقطار المدينة أن تقتل) .

وفى رواية عن ابن عمر أيضا (أن رسول الله ــ ﷺ ــ أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب غنم أو ماشية ، فقيل لابن عمر : إن أبا هريرة يقول : أو كلب زرع فقال ابن عمر : إن لأبى هريرة زرعا) .

ويعلق النووى على هذه الرواية بقوله : قال العلماء :

ليس هذا توهينا لرواية أبى هريرة ولا شكا فيها بل معناه : أنه لما كان صاحب زرع وحرث اعتنى بذلك وحفظه وأتقنه والعادة أن المبتلى بشىء يتقنه ما لا يتقنه غيره ، ويتعرف من أحكامه مالا يعرفه غيره .

ونلاحظ فى الرواية الثانية أن النبى ــ ﷺ ــ قد استثنى كلب الصيد وكلب الغنم أو الماشية وكلب الزرع .

ثم (نهى النبى ــ ﷺ ــ عن قتلها وقال : عليكم بالأسود البهيم ذى النقطتين فإنه شيطان) كما فى رواية جابر .

وفى رواية ابن المغفل قال (أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقتل الكلاب ثم قال : ما بالهم وبال الكلاب ؟ ثم رخص فى كلب الصيد وكلب الغنم) .

وفى رواية لأبى هريرة (من اقتنى كلبا ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينقص من أجره قيراطا كل يوم) .

ومما سبق يمكن أن نستخلص الأحكام الآتية :

أولا : لا يجوز اقتناء الكلاب إلا فى حالة الصيد والزرع والماشية ، والسؤال الآن هل يجوز اقتناء الكلب لحراسة الدور والدروب ونحوها ؟ فى هذه المسألة وجهان :
أحدهما لا يجوز لظواهر الأحاديث فإنها مصرحة بالنهى إلا لزرع أو صيد أو ماشية .

والرأى الثانى وهو الأصح : يجوز قياسا على الصيد والزرع والماشية عملا بالعلة المفهومة من الأحاديث و هى الحاجة .

السؤال الثانى : هل يجوز تربية الكلاب الصغيرة للصيد أو الزرع أو الماشية ؟ يوجد رأيان : أصحهما أنه يجوز .
السؤال الثالث : هل يجوز بيع الكلب وشراؤه ؟

الجواب : ظاهر الأحاديث النهى عن ثمن الكلب ؛ لكونه من شر الكسب وكونه خبيثا . روى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى (أن

رسول الله – ﷺ – نهى عن ثمن الكلب ومهر البغى ، وحُلْوان الكاهن[1]) وفى الرواية الأخرى (عن ابن خديج قال : سمعت النبى – ﷺ – يقول : شر الكسب مهر البغى ، وثمن الكلب ، وكسب الحجام) .

فهذا يدل على تحريم بيعه ، وأنه لا يصح بيعه ، ولا يحل ثمنه ، ولا قيمة على متلفه ، سواء كان معلما أو لا ، وسواء كان مما يجوز اقتناؤه أم لا ، وبهذا قال جماهير العلماء منهم أبو هريرة والحسن البصرى ، وربيعة والأوزاعى والحكم وحماد والشافعى وأحمد وداود وابن المنذر وغيرهم .

وقال أبو حنيفة : يصح بيع الكلاب التى فيها منفعة وتجب القيمة على متلفها ، وحكى ابن المنذر عن جابر وعطاء والنخعى جواز بيع كلب الصيد دون غيره ، وعن مالك روايات : إحداها لا يجوز بيعه ولكن تجب القيمة على متلفه ، والثانية : يصح بيعه وتجب القيمة ، والثالثة : لا يصح ولا تجب القيمة على متلفه .

دليل الجمهور هذه الأحاديث ، وأما الأحاديث الواردة فى النهى عن ثمن الكلب إلا كلب الصيد ، وفى رواية (إلا كلبا ضاريا) وأن عثمان غرم إنسانا ثمن كلب قتله عشرين بعيرا ، وعن ابن عمرو بن

---

(١) مهر البغى : ما تأخذه الزانية أجرا لمعاشرتها والزنا بها وسماه مهرا لكونه على صورته . وحُلْوان الكاهن (بضم الحاء وسكون اللام) ما يأخذه الكاهن مقابل كهانته .

العاص ـــ التغريم فى إتلافه ، فكلها ضعيفة باتفاق أئمة الحديث
وفى قتل الكلب نختم هذا الحديث فنقول :

لا خلاف بين العلماء فى قتل الكلب المؤذى ، والكلب العقور واختلفوا فى قتل ما لا ضرر فيه ، فقال إمام الحرمين : أمر النبى ـــ ﷺ ـــ أولا بقتلها كلها ثم نسخ ذلك ونهى عن قتلها إلا الأسود البهيم ، ثم استقر الشرع على النهى عن قتل جميع الكلاب التى لا ضرر فيها سواء الأسود وغيره ويستدل على ذلك بحديث ابن المغفل .

وقال القاضى عياض : ذهب كثير من العلماء إلى الأخذ بالحديث فى قتل الكلاب إلا ما استثنى من كلب الصيد وغيره قال : وهذا مذهب مالك وأصحابه ، قال : واختلف القائلون بهذا ، هل كلب الصيد ونحوه منسوخ من العموم فى الحكم بقتل الكلاب ، وأن القتل كان عاما فى الجميع ، أم كان مخصوصا بما سوى ذلك؟

قال : وذهب آخرون إلى جواز اتخاذ جميعها ، ونسخ الأمر بقتلها والنهى عن اقتنائها إلا الأسود البهيم .

قال القاضى : وعندى أن النهى أولا كان نهيا عاما عن اقتناء جميعها ، وأمر بقتل جميعها ، ثم نهى عن قتلها ما سوى الأسود ومنع الاقتناء فى جميعها إلا كلب صيد أو زرع أو ماشية ، وهذا الذى قاله القاضى هو ظاهر الأحاديث . ويكون حديث ابن المغفل مخصوصا بما سوى الأسود ، لأنه عام فيخص منه الأسود بالحديث الآخر .

٤٣ – أين الجبارون ؟ .. أين المتكبرون ؟

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : « يَطْوِى اللهُ عَزَّ وجَلَّ ـ السمواتِ يومَ القِيامَةِ ثُمَّ يأخذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى ثم يقولُ : أَنَا الملِكُ ، أينَ الجَبَّارُون ؟ أين المُتَكَبِّرونَ ؟ ثم يطوى الْأَرَضِينَ بشِمالِه ثم يقولُ : أنا المَلِكُ ، أينَ الجبارونَ ؟ أين المتكبرونَ ؟ » .

رواه مسلم

(يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يطوى الارضين بشماله)

وفى رواية أن ابن مقسم نظر إلى ابن عمر كيف يحكى رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ قال : (يأخذ الله سمواته وأرضيه بيديه ، ويقول : أنا الله ، ويقبض أصابعه ويبسطها ، أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه) .

قال العلماء : المراد بقوله (يقبض أصابعه ويبسطها) النبى ـ ﷺ ـ ولهذا قال : إن ابن مقسم نظر إلى ابن عمر كيف يحكى رسول الله ـ ﷺ .

وأما إطلاق اليدين لله تعالى فمتأول على القدرة ، وكنى عن ذلك باليدين لأن أفعالنا تقع باليدين ، فخوطبنا بما نفهمه ؛ ليكون أوضح

وأوكد فى النفوس ، وذكر اليمين والشمال حتى يتم المثال ؛ لأنا نتناول باليمين ما نكرمه ، وبالشمال ما دونه ، ولأن اليمين فى حقنا يقوى لما لا يقوى له الشمال ، ومعلوم أن السموات أعظم من الأرض فأضافها إلى اليمين ، والأرضين إلى الشمال ليظهر التقريب فى الاستعارة ، وإن كان الله سبحانه وتعالى لايوصف بأن شيئا أخف عليه من شيء ولا أثقل من شيء — هذا مختصر كلام المازرى فى هذا .

قال القاضى : وفى هذا الحديث ثلاثة ألفاظ : يقبض ، ويطوى ويأخذ ، كلها بمعنى الجمع لأن السموات مبسوطة ، والأرضين مدحوة ، وممدودة ، ثم يرجع ذلك إلى معنى الرفع والإزالة وتبديل الأرض والسموات ، فعاد كله إلى ضم بعضها إلى بعض ورفعها وتبديلها بغيرها .

قال : وقبض النبى — ﷺ — أصابعه وبسطها تمثيل لقبض هذه المخلوقات وجمعها بعد بسطها ، وحكاية للمبسوط والمقبوض وهو السموات والأرضون لا إشارة إلى القبض والبسط الذى هو صفة القابض والباسط سبحانه وتعالى ولا تمثيل لصفة الله تعالى السمعية المسماة باليد التى ليست بجارحة .

وقوله فى المنبر (يتحرك من أسفل شىء منه) :

أى من أسفله إلى أعلاه ؛ لأن بحركة الأسفل يتحرك الأعلى

ويحتمل أن تحركه بحركة النبى — ﷺ — بهذه الإشارة ، قال القاضى : ويحتمل أن يكون بنفسه هيبة لسمعه كما حن الجذع ، ثم قال : والله أعلم بمراد نبيه — ﷺ — فيما ورد فى هذه الأحاديث من مشكل ونحن نؤمن بالله تعالى وصفاته ولا نشبه شيئا به . ولا نشبهه بشىء ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ وماقال رسول الله — ﷺ — وثبت عنه فهو حق وصدق ، فما أدركنا علمه فبفضل الله تعالى ، وما خفى علينا آمنا به ، ووكلنا علمه إلى الله — سبحانه وتعالى — وحملنا لفظه على ما احتمل فى لسان العرب الذى خوطبنا به ، ولم نقطع على أحد معنييه بعد تنزيهه سبحانه عن ظاهره الذى لا يليق به — سبحانه — وبالله التوفيق .

تعليق :

روى مسلم عن عائشة قالت : سألت رسول الله — ﷺ — عن قوله عز وجل : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟) فقال : على الصراط .

* * *

٤٤ – طلبُ الكافرِ الفِداءَ بمِلْءِ الأرضِ ذهباً :

عن أنسِ بنِ مالكٍ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قالَ : يقولُ الله ـ تباركَ وتعالى ـ لِأَهْوَنِ أَهلِ النَّارِ عذابًا : « لو كانتْ لكَ الدُّنيَا وما فِيها أَكُنتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟ فيقولُ : نعمْ ، فيقولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أهونَ مِنْ هذا وأنتَ فى صُلبِ آدمَ : أَنْ لا تُشرِكَ ـ أَحسَبُهُ قال : ولاَ أُدخِلُكَ النارَ ـ فأَبَيْتَ إلا الشرْكَ » .

وفى روايةٍ ثانيةٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ أَن النبيَّ ـ ﷺ ـ قالَ : يُقَالُ للكافِرِ يومَ القِيامَةِ : « أرأيتَ لو كانَ لك مِلءُ الأرضِ ذهبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِى بِه ؟ فيقولُ : نعمْ ، فيُقالُ لهُ : قد سُئِلْتَ أَيْسرَ مِنْ ذَلِكَ » .

رواه مسلم

(يقول الله تعالى لأهون أهل الأرض عذابا : لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتديا بها ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من هذا ، وأنت فى صلب آدم : أن لا تشرك إلى قوله : فأبيت إلا الشرك) .

وفى رواية (فيقال : قد سئلت أيسر من ذلك) .

ـ المراد بـ (أردت) فى الرواية الأولى : طلبت منك وأمرتك وقد أوضحه فى الروايتين الأخيرتين بقوله (قد سئلت أيسر) فيتعين تأويل (أردت) على ذلك جمعا بين الروايات لأنه يستحيل عند أهل الحق أن يريد الله تعالى شيئا فلا يقع ، ومذهب أهل الحق ــ أن الله تعالى مريد لجميع الكائنات خيرها وشرها ، ومنها الإيمان والكفر ، فهو سبحانه وتعالى مريد لإيمان المؤمن ، ومريد لكفر الكافر ، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إنه أراد إيمان الكافر ولم يرد كفره ــ تعالى الله عن قولهم الباطل ــ فإنه يلزم من قولهم إثبات العجز فى حقه سبحانه وتعالى ، وأنه وقع فى ملكه ما لم يرده ، وأما هذا الحديث فقد بينا تأويله .

وأما قوله : (كذبت) فالظاهر أن معناه أن يقال له : لو رددناك إلى الدنيا وكانت لك كلها أكنت تفتدى بها ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : كذبت . قد سئلت أيسر من ذلك فأبيت ، ويكون هذا من معنى قوله تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادو لما نهوا عنه ﴾ ولابد من هذا التأويل ليجمع بينه وبين قوله تعالى : « ولو ردوا لعادو لما نهوا عنه ﴾ ولابد من هذا التأويل ليجمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة﴾ أى لو كان لهم يوم القيامة مافى الأرض جميعا ومثله معه، وأمكنهم الافتداء لافتدوا .

وفى هذا الحديث دليل على أنه يجوز أن يقول الإنسان (الله يقول) وقد أنكره بعض السلف ، وقال : يكره أن يقول

(الله يقول) وإنما يقول : (قال الله).وقد قدمنا فساد هذا المذهب وبينا أن الصواب جوازه وبه قال عامة العلماء من السلف والخلف ، وبه جاء القرآن العزيز فى قوله تعالى : ﴿ والله يقول الحق ﴾ وفى الصحيحين أحاديث كثيرة مثل هذا والله أعلم .

تعليق :

روى عن أنس بن مالك أن رجلا قال : يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة : بلى وعزة ربنا .

وروى مسلم عن عبد الله بن قيس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ما معناه : ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى : إنهم يجعلون له ندا ، ويجعلون له ولدا ، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم .

* * *

٤٥ - جَزاءُ المؤمِنِ بِحَسَنَاتِه فى الدُّنْيَا والآخرَةِ وتعْجيلُ حَسناتِ الكافِرِ فى الدُّنْيَا :

عن أنسِ بْنِ مالكٍ قالَ : رسولُ اللهِ - ﷺ - : «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فى النَّارِ صَبْغَةً ثم يُقَالُ : يا ابنَ آدَمَ هَلْ رأيتَ خيرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فيقولُ : لَا وَاللهِ يَارَبُّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الناسِ بُؤْسًا فى الدُّنْيَا من أهلِ الجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فى الجنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ : يا ابنَ آدمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤسًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فيقولُ : لَا واللهِ يَارَبِّ مَا مَرَّ بِى بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأيتُ شِدَّةً قَطُّ » .

وعَنْ أَنسِ بنِ مَالكٍ قَالَ : قَالَ رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : « إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حسنةً يُعْطِى بِهَا فى الدُّنْيَا ويَجْزِى بِهَا فى الآخرَةِ ، وأما الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بحَسَنَاتِ ما عَمِلَ بِها لِلّهِ فى الدُّنْيَا حتى إِذَا أَفْضَى إلى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا »

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَ عن رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ « إِنَّ الكَافِرَ إِذا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا ، وأَمَّا المؤمنُ فإنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِه فى الآخرةِ ويُعْقِبُه رِزْقًا فِى الدُّنْيَا على طَاعَتِه » .

رواه مسلم

(فيصبغ فى النار صَبغة) :
الصبغة بفتح الصاد : أى يغمس غمسة .
والبؤس هو الشدة والله أعلم .

(إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة) :
وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها .

وقد أجمع العلماء على أن الكافر الذى مات على كفره لا ثواب له فى الآخرة ، ولا يجازى فيها بشىء من عمله فى الدنيا متقربا إلى الله تعالى .

وصرح فى هذا الحديث بأنه يطعم فى الدنيا بما عمله من الحسنات ، أى بما فعله متقربا به إلى الله تعالى ، مما لا تفتقر صحته إلى النية ، كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها ، وأما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة ، ويجزى بها مع ذلك أيضا فى الدنيا ، ولا مانع من جزائه بها فى الدنيا والآخرة وقد ورد الشرع به فيجب اعتقاده .

(إن الله تعالى لا يظلم مؤمنا حسنة) :

معناه : لا يترك مجازاته بشىء من حسناته ، والظلم يطلق بمعنى النقص . وحقيقة الظلم مستحيلة من الله تعالى كما سبق بيانه .

ومعنى (أفضى إلى الآخرة) : صار إليها .

وأما إذا فعل الكافر مثل هذه الحسنات ثم أسلم فإنه يثاب عليها فى الآخرة على المذهب الصحيح .

تعليق :

تعرض الإمام النووى فى كتاب (الإيمان) من صحيح مسلم لبيان حكم عمل الكافر إذا أسلم وساق حديث حكيم بن حزام[1] عن عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال لرسول الله ـ ﷺ ـ : أرأيت أمورا كنت أتحنث بها فى الجاهلية هل فيها من شيء ؟ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : أسلمت على ما أسلفت من خير .

وفى رواية أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال لرسول الله ـ ﷺ : أى رسول الله أرأيت أمورا كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أسلمت على ما أسلفت من خير .

أما (التحنث) : فهو التعبد كما فسره فى الحديث ، وفسره فى الرواية الأخرى بالتبرر وهو فعل البر وهو الطاعة . قال أهل اللغة :

---

(١) حكيم بن حزام : الصحابى . ومن مناقبه : أنه ولد فى الكعبة ولا يُعرف أحد شاركه فى هذا ، ومن طريف أخباره : أنه عاش ستين سنة فى الجاهلية ، ومثلهما فى الإسلام ، وأسلم عام الفتح ، ومات بالمدينة سنة أربع وخمسين .

أصل التحنث ـــ أن يفعل فعلا يخرج به عن الإثم والحرج والهجود .

(أسلمت على ما أسلفت من خير) :

اختلف فى معناه فقال الإمام أبو عبد الله المازرى رحمه الله : ظاهره خلاف ما تقتضيه الأصول لأن الكافر لا يصح منه التقرب فلا يثاب على طاعته ، ويصح أن يكون مطيعا غير متقرب كنظيره فى الإيمان ، فإنه مطيع فيه من حيث كان موافقا للأمر والطاعة عندنا موافقة الأمر ولكنه لا يكون متقربا ، لأن من شرط المتقرب أن يكون عارفا بالمتقرب إليه وهو فى حين نظره لم يحصل له العلم بالله تعالى بعد : فإذا تقرر هذا علم أن الحديث متأول وهو يحتمل وجوها :

أولا : أن يكون معناه : اكتسبت طباعا جميلة وأنت تنتفع بتلك الطباع فى الإسلام وتكون تلك العادة تمهيدا لك ومعونة على فعل الخير .

ثانيا : معناه : اكتسبت بذلك ثناء جميلا فهو باق عليك فى الإسلام .

ثالثا : معناه : أنه لا يبعد أن يزاد فى حسناته التى يفعلها فى الاسلام ويكثر أجره كما تقدم له من الأفعال الجميلة ، وقد قالوا فى إذا كان يفعل الخير فإنه يخفف عنه به فلا يبعد أن يزاد هذا فى .. جور ـــ هذا آخر كلام المازرى رحمه الله .

قال القاضي عياض رحمه الله : وقيل معناه : ببركة ما سبق لك من خير هداك الله تعالى إلى الاسلام وأن من ظهر منه خير فى أول أمره فهو دليل على سعادة آخره وحسن عاقبته ـ هذا كلام القاضى .

وذهب ابن بطال وغيره من المحققين إلى أن الحديث على ظاهره وأنه إذا أسلم الكافر ومات على الإسلام يثاب على ما فعله من الخير فى حال الكفر واستدلوا بحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (إذا أسلم الكافر فحسن إسلامه كتب الله تعالى له كل حسنة زلفها ، ومحا عنه كل سيئة زلفها ، وكان عمله بعد الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله سبحانه وتعالى) وذكره الدارقطنى فى غريب حديث مالك ، ورواه عنه من تسع طرق ، وثبت فيها كلها أن الكافر إذا حسن إسلامه يكتب له فى الإسلام كل حسنة عملها فى الشرك .

قال ابن بطال رحمه الله تعالى : بعد ذكره الحديث : ولله تعالى أن يتفضل على عباده بما يشاء لا اعتراض لأحد عليه . قال : وهو كقوله ـ ﷺ ـ لحكيم بن حزام رضى الله عنه : أسلمت على ما أسلفت من خير والله أعلم .

وأما قول الفقهاء : لا يصح من الكافر عبادة ، ولو أسلم لم يعتد بها ، فمرادهم أنه لا يعتد له بها فى أحكام الدنيا ، وليس فيه تعرض لثواب الآخرة ، فإن أقدم قائل على التصريح بأنه إذا أسلم لا يثاب عليها فى الآخرة ، رد قوله بهذه السنة الصحيحة ، وقد يعتد ببعض

أفعال الكفار فى أحكام الدنيا فقد قال الفقهاء إذا وجب على الكافر كفارة ظهار أو غيرها فكفر فى حال كفره أجزأه ذلك ، وإذا أسلم لم تجب عليه إعادتها ، واختلف أصحاب الشافعى رحمه الله فيما إذا أجنب واغتسل فى حال كفره ثم أسلم هل تجب عليه إعادة الغسل أم لا ؟ وبالغ بعض أصحابنا فقال : يصح من كل كافر كل طهارة من غسل ووضوء وتيمم ، وإذا أسلم صلى بها والله أعلم .

* * *

٤٦ – أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالحِين مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ :

عن أبى هريرةَ عن النبيِّ – ﷺ – قالَ : قال الله – عَزَّ وجَلَّ «أعددتُ لعبادِى الصالحينَ مالا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خطرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ــ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فى كِتابِ اللهِ ــ ﴿ فلا تَعْلَمُ نفسٌ ما أُخْفِىَ لَهُم مِنْ قُرةِ أعينٍ جزاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وفى روايةٍ أُخْرَى لمُسْلِمٍ أضاف فيها (ذُخْرًا بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمْ اللهُ عَلَيْهِ) .

وعَنْ أبِى سَعِيدٍ الخُدْرِىِّ أَنَّ النَّبِىَّ ــ ﷺ ــ قالَ : « إن اللهَ يقولُ لأهلِ الجَنَّةِ : يا أهلَ الجَنَّةِ ، فيقولون لَبَّيْكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْكَ والخيرُ فى يَدَيْكَ ، فيقولُ : هَل رَضِيتُم ؟ فيقولُونَ : وما لَنَا لا نَرْضَى يارَبِّ وقد أعطَيْتَنَا ما لَمْ تُعْطِ أحداً مِنْ خَلْقِكَ ! فيقولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فيقولون : ياربِّ ، وأى شىءٍ أفضلُ من ذلك ؟ فيقولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلَا أَسْخطُ عليكُم بَعْدَهُ أبداً » .

رواه مسلم

(وأعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بَلْهَ ما أطلعكم الله تعالى) :

(بَلْهَ) بفتح الباء وإسكان اللام : معناها : دع عنك ما أطلعكم عليه فالذى لم يطلعكم عليه أعظم ، وكأنه أضرب عنه استقلالا له فى جنب ما لم يطلع عليه ، وقيل معناها : غير ، وقيل معناها : كيف .

(أحل عليكم رضوانى) : معناه : أنزله بكم .

تعليق :

وردت أحاديث صحيحة تصف أحوال أهل الجنة ونعيمها :

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : إن فى الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنا وجمالا فيرجعون إلى أهليهم ، وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : إن أول زمرة[1] يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين

---

(١) الزُّمرة بضم الزاى واسكان الميم : الجماعة .

يلونهم على أشد كوكب درى[1] فى السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألُوَّةُ ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً[2] وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة عن النبى — ﷺ — قال : ينادى مناد منكم ، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبداً فذلك قوله عز وجل ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾

وروى مسلم عن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبى — ﷺ — قال : إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا .

* * *

---

(١) كوكب درى : أى كوكب عظيم و [درى] فيها ثلاث لغات أحدها ضم الدال وتشديد الراء قيلا : سمى دريا لبياضه كالدر وقيل : لإضاءته ، وقيل لشبهه بالدر ، فى كونه أرفع من باقى النجوم ، كالدر أرفع الجواهر .

(٢) الألوة : بفتح الهمزة وضم اللام وفتح الواو المشددة أي العود الهندى الذى يتبخر به وهذا بخلاف مجامر الدنيا فإن وقودها قطع الخطب ، ومجامر الجنة وقودها العود الذى يتبخر به .

٤٧ - احتجاجُ الجَنّةِ والنارِ وشَكْوى النّارِ :

عن أبى هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : احتجَّتِ النارُ والجنةُ فقالتْ هذه : يَدخلُنى الجَبّارُونَ والمتَكَبِّرُونَ ، وقالتْ هَذِهِ : يَدخلُنى الضعفاءُ والمساكينُ ، فقال اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لِهذهِ : أنتِ عذابِى أعذِّبُ بكِ مَن أشاءُ ـ ورُبَّما قالَ : أُصيبُ بكِ من أشاءُ ـ وقالَ لهذه : أنتِ رحمتِى أَرْحمُ بكِ من أشاءُ ، ولِكُلِّ واحدةٍ مِنكُمَا مِلؤُها .

وفى روايةٍ أُخرى عن أبى هُريرةَ عن النبىِّ ـ ﷺ ـ قال : تحاجَّتِ النارُ والجنة فقالتِ النارُ : أُوثِرتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبرينَ ، وقالتِ الجنةُ فمالِى لا يدخُلُنى إلا ضعفاءُ الناسِ وسَقَطُهم وعَجَزُهم ؟ فقالَ اللهُ للجنةِ : أنتِ رَحْمتى أرحمُ بكِ من أشاءُ من عبادِى ، وقال للنارِ : أنت عذابِى أُعذِّب بك من أشاءُ من عبادِى، ولكُلِّ واحدةٍ مِنْكُما مِلؤها ، فأما النار فلا تمتلىء ، فيضع قدمَه عليها ، فتقول : قَطْ . قَطْ .. فهنالِكَ تمتلىءُ ويَزْوِى بعضُها إلى بعْضٍ .

(تحاجت النار والجنة) الخ :

هذا الحديث على ظاهره ، وأن الله تعالى جعل فى النار والجنة تمييزاً تدركان به فتحاجتا ، ولا يلزم من هذا أن يكون ذلك التمييز فيهما دائما .

(وقالت الجنة فمالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم ؟!) :

أما (سقطهم) بفتح السين والقاف أى ضعفاؤهم والمتحقرون منهم ، وأما (عجزهم) بفتح العين والجيم جمع (عاجز) أى العاجزون عن طلب الدنيا والتمكن فيها والثروة والشوكة .

وقيل : معنى الضعفاء هنا وفى الحديث الآخر (أهل الجنة كل ضعيف متضعف) إنه الخاضع لله تعالى المذل نفسه له ـــ سبحانه وتعالى ـــ ضد المتجبر المستكبر .

(فتقول قط قط .. فهنالك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض) .

معنى (يزوى) : يضم بعضها إلى بعض فتجتمع وتلتقى على من فيها ، ومعنى (قط) بفتح القاف وسكون الطاء : حسبى أى يكفينى ، وفى (قط) ثلاث لغات : بفتح القاف وسكون الطاء ، أو بفتح القاف وكسر الطاء بدون تنوين ، والثالثة بفتح القاف وكسر الطاء المنونة .

تعليق :

وردت أحاديث صحيحة فى ذكر الجنة والنار أعاذنا الله منها :

ومن ذلك ما روى فى الجنة : عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : ينادى مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون﴾ . رواه مسلم .

وروى مسلم عن أبى هريرة أن النبى ـ ﷺ ـ قال : ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يارسول الله ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها .

٤٨ – سَعَةُ رحمةِ اللهِ تعالى على المؤمنينَ وفِداءُ كُلِّ مسلمٍ بكافرٍ مِنَ النارِ :

عن أبى موسى قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : « إذا كانَ يومُ القِيامَةِ دفعَ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ إلى كلِّ مُسْلِمٍ يهودِيًّا أو نَصْرانِيًّا فيقولُ : هذا فِكَاكُكَ من النار » .

رواه مسلم

وروى مسلمٌ عن صفوانَ بنِ مُحْرِزٍ قالَ : قالَ رجلٌ لابنِ عُمَرَ كيف سَمِعْتَ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ يقولُ فى النَّجْوَى ؟ قال : سمعتُه يقولُ : يُدْنَى المؤمنُ يومَ القيامةِ من رَبِّهِ ـ عزَّ وجَلَّ ـ حتى يضع عليه كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِه فيقولُ : هل تعرفُ ؟ فيقولُ : أىْ رَبِّ أعْرِفُ ، قالَ : فإنِّى قد سَتَرْتُها عليكَ فى الدُّنْيَا وإنِّى أَغْفِرُها لَكَ الْيَومَ ، فَيُعْطَى صحيفةَ حسناتِه ، وأما الكُفَّارُ والمُنافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ على رُءُوسِ الخلائِقِ : هُؤلاءِ الذينَ كَذَبُوا عَلَىَ اللهِ » .

(إذا كان يوم القيامة دفع الله تعالى إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانيا فيقول : هذا فكاكك من النار) :

وفى رواية (لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً) .

وفى رواية (يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى) .

الفكاك : بفتح الفاء وكسرها والفتح أفصح وأشهر هو الخلاص والفداء .

ومعنى هذا الحديث ـــ ما جاء فى حديث أبى هريرة (لكل أحد منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر فى النار لاستحقاقه ذلك بكفره) .

ومعنى فكاكك من النار : أنك كنت معرضاً لدخول النار وهذا فكاكك ؛ لأن الله تعالى قدر لها عدداً يملؤها فإذا دخلها الكفار بكفرهم وذنوبهم صاروا فى معنى الفكاك للمسلمين .

وأما رواية (يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب) فمعناه : أن الله تعالى يغفر تلك الذنوب للمسلمين ، ويسقطها عنهم ويضع على اليهود والنصارى مثلها بكفرهم وذنوبهم ، فيدخلهم النار بأعمالهم لا بذنوب المسلمين ، ولابد من هذا التأويل لقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

وقوله : (ويضعها على اليهود والنصارى) :

مجاز . والمراد يضع عليهم مثلها بذنوبهم كما ذكرناه ، لكن لما أسقط سبحانه وتعالى عن المسلمين سيئاتهم وأبقى على الكفار سيئاتهم صاروا فى معنى من حمل إثم الفريقين لكونهم حملوا الإثم الباقى وهو

إثمهم ، ويحتمل أن يكون المراد : آثاما كان للكفار سبب فيها بأن سنوها ، فتسقط عن المسلمين بعفو الله تعالى ويوضع على الكفار مثلها لكونهم سنوها ، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها والله أعلم .

(يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه) الخ :

أما كَنَفه بفتح النون : معناه ستره وعفوه ، والمراد بالدنو هنا دنو كرامة وإحسان ، لا دنو مسافة ، والله تعالى منزه عن المسافة وقربها .

٤٩ – المسيحُ الدَّجَّالُ ونُزولُ عِيسَى عليهِ السلامُ :

عن النَّوّاسِ بنِ سمعانَ قال : ذكر رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ الدجالَ ذاتَ غَداةٍ فخفَّضَ فيه ورَفَّعَ حتى ظَنَنَّاهُ فى طائفةِ النَّخْلِ ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذلك فينَا فقال : « ما شأنُكُمْ ؟ » قُلْنَا : يا رسولَ اللهِ ذكرتَ الدجالَ غداةً فخفَّضْتَ فِيهِ ورَفَّعْتَ حتى ظَنَنَّاهُ فى طائفةِ النَّخْلِ ، فقال : « غيرُ الدّجالِ أَخوَفُنِى عَلَيْكُم ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فيكُم فأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وإن يَخْرُجْ ولَسْتُ فيكُمْ فامرُؤٌ حَجِيجُ نفسِهِ واللهُ خَلِيفَتِى على كلِّ مُسلِمٍ ، إِنَّهُ شابٌ قَطَطٌ عَيْنُه طَافِئَةٌ كأنّى أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بنِ قَطَنٍ ، فمَنْ أدركهُ مِنْكُم فلْيَقرَأْ عليه فَوَاتِحَ سورةِ الكَهفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بين الشامِ والعراقِ فعاثَ يميناً وعاثَ شِمالاً ، ياعبادَ اللهِ فاثبُتُوا » قلنا : يارسولَ اللهِ وما لَبْثُهُ فى الأَرْضِ ؟ ، قال : « أربعونَ يوماً . يومٌ كسنةٍ ، ويومٌ كشهرٍ ، ويوم كجُمُعَةٍ ، وسَائرُ أَيَّامِهِ كَأَيّامِكُم » ، قلنا : يارسولَ اللهِ فذلكَ اليومُ الذى كسنةٍ أتكفينا فيه صلاةُ يومٍ ؟ قال : « لا ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ » ، قلنا : يارسولَ اللهِ وما إِسْرَاعُهُ فى الأرضِ ؟ ،

قال : « كالغيثِ استَدْبَرتْهُ الريحُ فيأْتِى على القومِ فيَدْعُوهُم فيُؤمنونَ بِه ويَستجيبونَ لَهُ فيأمرُ السماءَ فتُمطِرُ والأرضَ فتُنْبِتُ فتروحُ عليهم سارحتُهم أطولَ ما كانت ذُراً وأسبغه ضُروعاً وأمَدَّهُ خواصِرَ ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قولَه فينصرف عنهم فيصبحون مُمْحِلينَ ليس بأيديهم شىءٌ من أموالِهم ، ويَمُرُّ بالخَرِبَةِ فيقول لها : أَخْرِجى كنوزَك فتَتْبَعَهُ كنوزُها كيعاسيبِ النحلِ ، ثم يدعو رجلا ممتلئاً شباباً فيضربُهُ بالسَّيف فيقطَعُه جزلتين رَمْيةَ الغرض ، ثم يدعوه فيقبلُ ويتهلَّلُ وجهُه ويضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث اللهُ المسيحَ ابنَ مريمَ فينزلُ عند المنارةِ البيضاءِ شَرْقِىَّ دِمشقَ بينَ مَهْرُودَتَيْنِ واضعاً كفَّيْهِ على أجنحةِ مَلَكَيْنِ ، إذَا طأطأَ رأسَه قَطَر وإذا رَفَعَه تَحَدَّرَ مِنْهَ جُمَانٌ كاللؤلؤ فلا يَحِلُّ لكافرٍ يَجِدُ ريحَ نفسِهِ إلا ماتَ ونَفَسُهُ ينتهى حيْثُ ينتهِى طرفهُ فيَطْلُبه حتى يُدْرِكَهُ ببابِ لُدٌّ فيقتُله ، ثم يأتى عيسى ابنُ مريمَ قوماً قد عصَمَهُم اللهُ منهُ فيمسَحُ عن وجوهِهم ويحدثهم بدرجاتِهم فى الجنةِ فبينما هو كذلك إذ أوحى اللهُ إلى عيسى إنى قد أخرجتُ عباداً لى لا يَدانِ لأحدٍ

بقتالِهِمْ فحَرِّزْ عِبادى إلى الطور ، ويبعثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ وهم من كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فيَمُرُّ أوائلُهم على بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّة فيشربونَ ما فيها ويمرُّ آواخرُهم فيقولون : لقد كان بهذه مرةً ماءٌ ، ويُحْصَرُ نبىُّ اللهِ عيسى وأصحابُه حتى يكونَ رأسُ الثورِ لأحدِهم خيراً من مائةِ دينارٍ لأحدِكمُ اليوم ، فيرغبُ نبىُّ اللهِ عيسى وأصحابُه فيُرسِلُ اللهُ عليهِمُ النَّغَفَ فى رِقابِهم فيُصبِحُون فَرْسَى كموتِ نفسٍ وَاحدةٍ ، ثم يَهبِطُ نبىُّ اللهِ عيسَى وأصحابُه إلى الأرضِ فلا يجدونَ فى الأرضِ موضعَ شِبْرٍ إلا ملأه زَهَمُهُمْ ونَتَنُهُمْ فيرغبُ نبىُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى اللهِ فيُرسِلُ اللهُ طيراً كأعناقِ البُخْتِ فتحملُهم فتطرحُهم حيث شاءَ اللهُ ثم يُرسِلُ اللهُ مطَراً لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ فيغسلُ الأرضَ حتى يترُكَها كالزَّلَفَةِ ثم يقالُ للأرض أَنْبِتِى ثَمَرَتَكِ ورُدِّى بَرَكَتَكِ فيومئذٍ تأكلُ العِصابةُ من الرُّمانةِ ويستظلونَ بقِحْفِهَا ، ويبارِكُ فى الرِّسْلِ حتى إن اللِّقْحَةَ من الإبِلِ لَتَكْفى الفئامَ من الناس ، واللِقحةَ من البقرِ لتكفى القبيلةَ من الناس ، واللِّقحةَ من الغنمِ لتكفى الفَخْذَ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعثَ اللهُ ريحاً طيبةً

فتأخذُهم تحتَ آباطِهم فتقبضُ روحَ كلِّ مؤمنٍ وكلِّ مسلمٍ ويبقى شِرارُ الناسِ يتهارجون فيها تهارُجَ الحُمُرِ فعليهم تقومُ الساعةُ ».

رواه مسلم.

(قال القاضى :

هذه الأحاديث التى ذكرها مسلم وغيره فى قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق فى صحة وجوده ، وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدرات الله تعالى : من إحياء الميت الذى يقتله ، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره ونهريه واتباع كنوز الأرض له ، وأمره السماء أن تمطر فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك ؛ فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ويبطل أمره ، ويقتله عيسى ـ ﷺ ـ ويثبت الله الذين آمنوا .

هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافاً لمن أنكره ، وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافاً لمن قال : إنه صحيح الوجود ، ولكن الذى يدعيه ليس سوى مخارف وخيالات لا حقائق لها ، وزعموا أنه لو كان حقاً لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهذا غلط من جميعهم ؛ لأنه لم

يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له ، وإنما يدعى الإلهية وهو فى نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ، ووجود دلائل الحدوث فيه ، ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذى فى عينيه ، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس ؛ لسد الحاجة والفاقة رغبة فى سد الرمق ، أو تقية وخوفاً من أذاه ؛ لأن فتنته عظيمة جداً ، تدهش العقول وتحير الألباب ، مع سرعة مروره فى الأمر ، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ، ودلائل الحدوث فيه والنقص ، فيصدقه من صدقه فى هذه الحالة ، ولهذا حذرت الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ من فتنته ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله.

وأما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله ، ولهذا يقول له الذى يقتله ثم يحييه : ما ازددت فيك إلا بصيرة . (ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة النخل) :

(خفَّضْ) بتشديد الفاء (ورفَّع) بتشديد الفاء أيضاً فى معناه قولان :

أحدهما : أن خفض بمعنى حقر ، وقوله : رفع أى عظمه وفخمه ، فمن تحقيره وهو انه على الله تعالى عوره ، ومنه قوله ـ ﷺ ـ : هو أهون على الله من ذلك وأنه لا يقدر على قتل أحد إلا

ذلك الرجل ثم يعجز عنه ، وأنه يضمحل أمره ويقتل بعد ذلك هو وأتباعه ، ومن تفخيمه وتعظيم فتنته والمحنة به هذه الأمور الخارقة للعادة وأنه ما من نبي الا وقد أنذره قومه .

والوجه الثانى : أن النبى ـ ﷺ ـ خفض من صوته فى حال الكثرة فيما تكلم فيه فخفض بعد طول الكلام والتعب ليستريح ، ثم رفع ليبلغ صوته كل أحد .

(غير الدجال أخوفنى عليكم) :

هكذا هو فى جميع نسخ بلادنا (أخوفنى) بنون بعد الفاء وروى بحذف النون (أخوفى) وهما لغتان صحيحتان و معناهما واحد أى أخوف مخوفاتى عليكم كقوله ﷺ : « أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون » .

(انه شاب قطط) :

(قطط) بفتح القاف والطاء معناه : شديد جعودة الشعر مباعد للجعودة المحبوبة .

(عينيه طافئة) رويت بالهمز وتركه ، وكلاهما صحيح ، والمهموزة هى التى ذهب نورها . وغير المهموزة هى التى نتأت وطفت مرتفعة وفيها ضوء . والرواية الثانية أقرب إلى حديث ابن عمر وفيه « أنه لقيه وقد نفرت عينه » . والله أعلم .

(انه خارج خله بين الشام والعراق) :

هكذا فى نسخ بلادنا (خلة) بفتح الخاء واللام وتنوين الهاء ، وقال القاضى : المشهور فيه (حلة) بالحاء ونصب التاء (يعنى غير منونة) ومعناه : جهته أو مكانه واتجاهه وفى كتاب العين (الحلة) موضع حزن[1] وصخور ، قال : ورواه بعضهم (حلة) بضم الحاء أى : نزوله وحلوله وذكره الهروى (خلة) بفتح الخاء واللام المشددة وفسره بأنه ما بين البلدين وهذا القول الأخير هو الأرجح .

(فعاث يمينا وعاث شمالا) :

العيث : الفساد أو أشد الفساد والإسراع فيه .

(يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم) :

قال العلماء : هذا الحديث على ظاهره وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور فى الحديث ، يدل عليه قوله : — ﷺ — : (وسائر أيامه كأيامكم) .

وأما قولهم : يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ فقال : « لا .. اقدروا له قدره » فقال القاضى وغيره : هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعه لنا صاحب الشرع ، قالوا :

---

(١) الحزن (بفتح الحاء وسكون الزاى) الأرض غير السهلة والتى يصعب السير فيها .

ولولا هذا الحديث ووكلنا إلى اجتهادنا لاقتصرنا فيه على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة فى غيره من الأيام ومعنى (اقدروا له قدره) : أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر ، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا العصر ، وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب ، وكذا العشاء والصبح ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب وهكذا حتى ينقضى ذلك اليوم وقد وقع فيه صلوات سنة ، فرائض كلها مؤداة فى وقتها .

وأما الثانى الذى كشهر ، والثالث الذى كجمعة فقياس اليوم الأول أن يقدر لهما كاليوم الأول على ما ذكرناه والله أعلم .

(فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر) :

أما (تروح) فمعناه : ترجع آخر النهار ، (والسارحة) هى الماشية التى تسرح أى تذهب أول النهار الى المرعى ، وأما (الذرى) بضم الذال فهى الأعالى ، والأسنمة جمع (ذِروة) بضمهم الذال وكسرها (وأسبغه) : أى أطوله لكثرة اللبن وكذا (أمده خواصر) لكثرة امتلائها من الشبع .

(فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) :

(يعاسيب النحل) : ذكور النحل هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون ، قال القاضى : المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه

كنى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها لأنه متي طار تبعته والله أعلم .

(جزلتين) بفتح الجيم على المشهور وقيل بكسرها أى قطعتين ، ومعنى (رمية الغرض) : أنه يجعل بين الجزلتين مقدار رميته ، هذا هو الظاهر المشهور وحكى القاضى هذا ثم قال :

وعندى أن فيه تقديماً وتأخيراً وتقديره : فيصيبه إصابة رمية الغرض فيقطعه جزلتين ، والصحيح الأول .

(فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين) :

أما (المنارة) فبفتح الميم وهذه المنارة موجودة اليوم شرقى دمشق. (دمشق) بكسر الدال وفتح الميم وهذا هو المشهور ، وحكى صاحب المطالع كسر الميم ، وهذا الحديث من فضائل دمشق . وفى (عند) ثلاث لغات : كسر العين وضمها وفتحها والمشهور الكسر .

وأما (المهرودتان) فروى بالدال والذال ، والدال أكثر ، والوجهان مشهوران للمتقدمين والمتأخرين من أهل اللغة ومعناه : لابس مهروذتين أى ثوبين مصبوغين بورس[1] ثم بزعفران ، وقيل : هما شقتان والشقة نصف الملاءة .

(تحدر منه جمان كاللؤلؤ) :

(١) الورس : (بفتح الواو وسكون الراء) نبات كالسمسم يتخذ مادة للصباغة .

(الجُمَان) بضم الجيم وفتح الميم : حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار ، والمراد : يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ فى صفائه ، فسمى الماء جماناً لشبهه به فى الصفاء .

(فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات) :

(يحِل) بكسر الحاء و(نفسه) بفتح الفاء ومعنى (لا يحل) لا يمكن ولا يقع ، وقال القاضى :

معناه : عند حق وواجب ، قال : ورواه بعضهم بضم الحاء وهو وهم وغلط .

(يدركه بباب لد) :

(لد) بضم اللام وتشديد الدال : هى بلدة قريبة من بيت المقدس .

(ثم يأتى عيسى ـ ﷺ ـ قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم) :

قال القاضى : يحتمل أن هذا المسح حقيقة على ظاهره فيمسح على وجوههم تبركاً وبراً ، ويحتمل أنه إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف .

قوله تعالى : (أخرجت عباداً لى لا يَدَانِ لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور) :

(يدان) بكسر النون تثنية (يد) قال العلماء : معناه : لا قدرة

ولا طاقة ، يقال : مالى بهذا الأمر يد ، ومالى به يدان ؛ لأن المباشرة والدفع إنما يكون باليد ، وكأن يديه معدومتان لعجزه عن دفعه .

ومعنى (حرزهم إلى الطور) أى ضمهم واجعله لهم حرزاً ، يقال : أحرزت الشيء أحرزه إحرازاً إذا حفظته وضممته إليك وصنته عن الأخذ ، ووقع فى بعض النسخ (حزب بالحاء والزاى والباء أى اجمعهم ، قال القاضى : وروى (حوز) بالواو والزاى ومعناه : نحهم وأزلهم عن طريقهم إلى الطور .

(وهم من كل حدب ينسلون) :

(الحدب : النشز[1] و(ينسلون) يمشون مسرعين .

(فيرسل الله تعالى عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى) :

(النغف) بفتح النون والغين : دود يكون فى أنوف الابل والغنم ، والواحد نغفة .

و(الفرسى) : القتلى واحدهم فريس .

(ملأه زهمهم ونتنهم) :

(زهمهم) : بفتح الزاى أى دسمهم ورائحتهم الكريهة . (لا يكن منه بيت مدر) : أى لا يمنع من نزول الماء بيت .

---

(١) النَّشَز : (بفتح النون المشددة وسكون الشين أو فتحها) المكان المرتفع .

(والمدر) بفتح الميم والدال : الطين الصلب .

(فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة) :

(الزلفة) : روى بفتح الزاى واللام والقاف ، وروى (الزلفة) بضم الزاى وإسكان اللام و بالفاء وروى (الزلفة) بفتح الزاى واللام وبالفاء ، وقال القاضى : روى بالفاء والقاف وبفتح اللام وإسكانها وكلها صحيحة .

قال فى المشارق : والزاى مفتوحة واختلفوا فى معناه فقال ثعلب وأبو زيد وآخرون : معناه كالمرآة ، وحكى صاحب المشارق هذا عن ابن عباس أيضاً شبهها بالمرآة فى صفائها ونظافتها ، وقيل :

كمصانع الماء أى أن الماء يستنقع حتى تصير كالمصنع[1] الذى يجتمع فيه الماء ، وقال أبو عبيد :

معناه : كالإجانة[2] الخضراء ، وقيل : كالصحفة[3]، وقيل : كالروضة .

---

(١) المصنع : مايجمع فيه الماء كالحوض .

(٢) الإجانة : إناء تغسل فيه الثياب .

(٣) الصحفة : قصعة كبيرة منبسطة .

(تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها) :

(العصابة) : الجماعة ، (وقحفها) بكسر القاف : هو مقعر قشرها ، شبهها بقحف الرأس وهو الذى فوق الدماغ ، وقيل : ما انفلق من جمجمته وانفصل .

(ويبارك فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس) .

(الرِّسل) بكسر الراء وإسكان السين : هو اللبن .

و(اللقحة) بكسر اللام وفتحها لغتان مشهورتان والكسر أشهر : هى القريبة العهد بالولادة وجمعها (لقح) بكسر اللام وفتح القاف كبركة وبرك ، واللقوح ذات اللبن وجمعها لقاح .

و(الفِئام) بكسر الفاء : هى الجماعة الكثيرة .

(لتكفى الفخذ من الناس) :

قال أهل اللغة : الفخذ : الجماعة من الأقارب وهم دون البطن ، والبطن : دون القبيلة ،

قال القاضى : قال ابن فارس : الفخذ هنا (بمعنى الجماعة) الخاء فيها ساكنة لا غير ، بخلاف الفخذ (كعضو من إنسان أو حيوان) فإن الخاء فيها تسكن وتكسر .

(يتهارجون تهارج الحمير) :

أى يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ولا يكترثون لذلك .

و(الهرج) بإسكان الراء : الجماع يقال : هرج زوجته أى جامعها ، ويهرجها بفتح الراء وضمها وكسرها .

تعليق :

جاء ذكر الدجال فى أحاديث أخرى نذكر منها :

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : الدجال ممسوخ العين ، مكتوب بين عينيه كافر ، ثم تهجاها : ك . ف . ر ، يقرؤه كل مسلم .

رواه مسلم

٥٠ – قولُ الله للعبدِ : أىْ فُل ، ألَمْ أُكْرِمْكَ ؟ وأُسَوِّدْكَ وأُزَوِّجْكَ؟

عن أبى هريرةَ رضى اللهُ عنه قالَ : قالوا : يارسولَ اللهِ ، هل نرى ربَّنا يومَ القيامةِ ؟ قال : « هل تُضَارُّون فى رؤيةِ الشمسِ فى الظهيرةِ ، ليستْ فى سحابةٍ ؟ قالوا : لا ، قال: هل تُضَارُّون فى رؤية القمر ليلةَ البَدْرِ ليس فى سحابةٍ ؟ قالوا : لا ، قالَ : فوالذى نفسى بيدِه لا تضارُّونَ فى رؤيةِ رَبِّكُم إلا كما تُضَارُّونَ فى رُؤيةِ أَحَدِهِما ، قال : فيَلْقَى العَبْدَ فيقول : أى فُلْ ، ألم أُكْرِمْكَ ؟وأُسَوِّدْكَ ، وأُزَوِّجْكَ ، وأُسَخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ ؟ فيقولُ : بلىَ ، قال : فيقول : أَفَظَنَنْتَ أَنَكَ مُلَاقِيَّ ؟ فيقولُ : لاَ ، فيقول : فإنى أنساكَ كَمَا نَسِيتَنِى ، ثم يَلْقَى الثَّانِى فيقول : أى فُلْ ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ ؟ وأُسَوِّدْكَ ، وأُزَوِّجْكَ وأسخرْ لك الخَيْلَ والإبلَ ؟ وأذَرْكَ تَرَأَسُ وتَرْبَعُ ؟ فيقول : بلى ، أَىْ ربِّ ، فيقول : أفَظَنَنْتَ أنك مُلَاقِيَّ ؟ فيقولُ : لا ، فيقولُ : فإنى أنساكَ كما نِسِيتَنِى ، ثم يلقى الثالث ، فيقول له مثل ذلك فيقول : يارب آمنتُ بكَ وبكتابِك ، وبِرُسُلِكَ ، وصليتُ وصمتُ وتصدقتُ ، ويثنى

بخيرٍ ما استطاع ، فيقول : هاهنا إذاً ، قال : ثم يُقال له : الآنَ نبعثُ شاهدنا عليك ، ويتفكرُ فى نفسِه : من ذا الذى يَشهَدُ عَلَىَّ ؟ فيختَم على فيه ، ويقال لفَخِذِه ولَحْمِهِ وعظامِه : انطِقى ، فتنطقُ فخذُه ، ولحمُه ، وعظامُه بعملِه ، وذلك ليُعذِرَ من نفسِه ، وذلك المنافِقُ ، وذلك الذى يَسْخَطُ اللهُ عليه » .

وروى مُسلمٌ عن أنسِ بنِ مالكٍ قال : كنا عند رسولِ الله ـــ ﷺ ـــ فضحِك ، فقال : « هل تَدرونَ ممَّ أضحكُ ؟ قال : قلنا : اللهُ ورسولُه أعلم ، قال : من مخاطبةِ العبدِ رَبَّهُ ـــ عز وجل ـــ يقول : يارَبِّ ، ألم تُجِرْنِى من الظلْمِ ؟ قال : يقولُ : بَلَى ، قال : فيقولُ : فإنى لا أجيزُ على نفسِى إلا شاهِداً مِنِّى قالَ : فيقولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عليكَ شهيدًا ، وبالكرامِ الكاتبينَ شُهودًا ، قال : فيُخْتَمُ على فِيهِ ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ : انْطِقِى ، قال : فتنطِقُ بأعمالِه ، قال : ثم يُخلَّى بينَه وبينَ الكلامِ ، قال : فيقولُ : بُعْداً لكُمْ وسُحقاً فعَنْكُمْ كنتُ أناضِلُ » .

(فيقول : أى فُلْ) :

(فل) بضم الفاء وسكون اللام معناه : يا فلان وهو ترخيم على خلاف القياس ، وقيل : هى لغة بمعنى فلان حكاها القاضى .

ومعنى (أسودك) : أجعلك سيداً على غيرك .

قوله تعالى : (أذرك ترأس وتربع) :

أما (تَرْأس) بفتح التاء وسكون الراء وبعدها همزة مفتوحة فمعناه : رئيس القوم وكبيرهم .

وأما (تربع) بفتح التاء والباء فمعناه : تأخذ المرباع الذى كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها ، يقال : ربعتهم أى أخذت ربع أموالهم ، ومعناه : ألم أجعلك رئيساً مطاعاً ؟ ، وقال القاضى بعد حكايته نحو ما ذكرته عندى : إن معناه : تركتك مستريحاً لا تحتاج إلى مشقة وتعب من قولهم : اربع على نفسك أى ارفق بها .

وقد جاء فى رواية أخرى لابن ماهان (وأذرك ترأس وترتع) ومعناه تتنعم ، وقيل : تأكل ، وقيل : تلهو ، وقيل : تعيش فى سعة.

(فإنى أنساك كما نسيتنى) :

أى أمنعك الرحمة كما امتنعت من طاعتى .

(فيقول : ها هنا إذاً) .

معناه : قف هنا حتى يشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكراً .

(فيقال لأركانه) : أى لجوارحه .

(كنت أناضل) : أى أدافع وأجادل .

* * *

٥١ – يَدْنِى المؤمنُ يومَ القيامةِ من رَبِّه حتى يَضعَ عليه كَنَفَهُ :

عن صفوانَ بنِ مُحْرِزٍ قالَ : قالَ رجلٌ لابنِ عُمَرَ : كيف سمعتَ رسولَ الله ﷺ ـ يقول فى النَّجْوَى ؟ قال : سمعتُه يقولُ : يَدْنِى المؤمنُ يومَ القيامةِ من رَبِّهِ ـ عَزَّ وجلَّ ـ حتى يضعَ عليه كَنَفَه ، فَيُقَرِّرُهُ بذُنوبِه فيقولُ : هل تعرفُ ؟ فيقولُ : أىْ رَبِّ ؟ أعْرِفُ ، قال : فإنِّى قد سَتَرتُها عليكَ في الدنيَا ، وإنِى أَغْفِرُها لك اليومَ ، فيُعْطَى صحيفة حسناتِه ، وأمّا الكفارُ والمنافقون فيُنادَى بهِمْ على رؤوس الخلائق ﴿هؤلاءِ الذين كذَبُوا على ربهم﴾ .

رواه مسلم

(النجوى) :

هى التى تكون فى القيامة بين الله تعالى وبين المؤمنين ، أى حين حسابهم .

(يدنى المؤمن) : يقرب من ربه .

(يضع عليه كنفه) :

(الكَنَف) بفتح الكاف والنون : الجانب ، والدنو والكنف مجازان ، والمراد : الستر والرحمة والعفو ، أى يستره عن أهل الموقف ، لئلا يفتضح بينهم .

ويستدل من الحديث على أن ستر الله فى الآخرة لمن لم يتجاهر بالمعاصى فى الدنيا ، وكانت فى ستر الله تعالى ، أما من جهر وتجاهر بالمعصية فليس أهلا لستر الله عليه فى الآخرة .

اللهم إنا نسألك أن تستر علينا فى الدنيا والآخرة بحبك وفضلك ياكريم آمين .

٥٢ – تُحَشَرُونَ إلى اللهِ حُفاةً عُراةً غُرلاً[1]:

عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ : قامَ فينَا رسولُ اللهِ – ﷺ – خطيباً بموعظةٍ فقالَ : أيها الناسُ إنكم تُحشَرونَ إلى اللهِ حُفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿ كَما بَدَأنا أولَ خَلْقٍ نُعيدُه وعْداً علينا إنا كُنَّا فاعِلينَ ﴾ ألاَ وإنَّ أوّلَ الخلائِق يُكْسَى يومَ القِيامَةِ إبراهيمُ « عليه السلامُ » ، ألاَ وإنّه سيُجَاءُ بِرجالٍ من أُمّتى فيُؤْخذُ بهم ذاتَ الشمالِ فأقولُ : ياربِّ أَصحابِى ، فيُقالُ : إنكَ لا تدرِى ما أَحدَثُوا بعدَكَ ، فأقولُ : كما قالَ العبدُ الصالحُ : ﴿ وكنتُ عليهِمْ شهيداً ما دمتُ فيهم ، فلما توَفيْتَنِى كُنْتَ أنْتَ الرقيبَ عليهِمْ وأنتَ على كلِّ شئٍ شهيدٌ ، إنْ تُعَذبْهمْ فإنهُمْ عبادُك ، وإن تَغفِرْ لهم فإنكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ ، قالَ : فيُقالُ – إنهُم لم يَزالُوا مُرْتَدِّينَ على أَعقابِهِم منذُ فارقتَهم – وفى حديثِ وكيعٍ ومُعاذٍ – فيقالُ : إنكَ لا تَدْرِى ما أحدَثُوا بعدَك .

رواه مسلم

(إنكم تحشرون) : أى بعد الخروج من القبور .

(١) شرح الحديث للإمام القسطلانى .

(حفاة) : جمع حاف أى بلا خف ولا نعل .

(عراة) : أى لا ثياب عليكم جميعاً ، أو بعضكم يحشر عاريا ، وبعضكم كاسياً ، لحديث سعيد عند أبى داود ، وصححه ابن حبان مرفوعاً : (إن الميت يبعث فى ثيابه التى مات فيها) .

(وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه ا لسلام) :

(وأول من يكسى) أى بعد حشر الناس كلهم عراة — أو بعضهم كاسياً — أو بعد خروجهم من قبورهم بأثوابهم التى ماتوا فيها ، ثم تتناثر عنهم ابتداء الحشر ، فيحشرون كلهم عراة ثم أول من يكسى ابراهيم من الجنة .

(غُرْلا) بضم الغين واسكان الراء ، أى غير مختونين ، والغرلة : ما يقطعه الخاتن عند الختان ، وهى القلفة .

﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ :

أى نعيده للحياة كما خلقناه أول مرة .

﴿ وعداً علينا ﴾ :

أى وعدنا بالإعادة وعداً ثابتاً بفضلنا وقدرتنا .

﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ : تأكيد للوعد وتحقيقه .

وفى قوله : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ : دليل على إعادتهم — كما أخبر — حفاة عراة غرلا ، أى كما ولدوا من أمهاتهم ، ولا شك أن كل مولود يولد حافياً عارياً غير مختون .

ثم قيل : والحكمة فى كون إبراهيم الخليل ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أول من يكسى لكونه جرد من ثيابه حين ألقى فى النار ، أى وذلك بسبب دعوته إلى الله وتوحيده .

ثم قالوا : ولا يلزم من تخصيص إبراهيم بأولية الكسوة ــ هنا أفضليته على نبينا محمد ﷺ ــ لأن حلية نبينا ــ ﷺ ــ أعلى وأكمل ، فتجبر بنفاستها ما فات من الأولين ، على أن المزية لا تقتضى الأفضلية ، وكم لنبينا محمد ــ ﷺ ــ من فضائل مختصة به ، لم يسبق إليها ، ولم يشارك فيها ، ولو لم يكن له سوى خصوصية الشفاعة العظمى ــ لكفاه .

(سيجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال) :

أى يؤخذ بهم جهة النار .

(فأقول : يارب أصحابى) : أى هؤلاء أصحابى .

وفى رواية : (أصيحابى ، أصيحابى بالتصغير إشارة إلى قلة عددهم ، والتكرير للتأكيد .

(لم يزالوا مرتدين على أعقابهم) :

أى مرتدين على أعقابهم بالكفر ــ قيل المراد بهم من ارتد من الناس بعد وفاته ــ ﷺ ــ وحاربهم أبو بكر ــ رضى الله عنه .

بقدح ذلك فى الصحابة المشهورين ، فإن أصحابه ــ وإن

شاع استعماله عرفاً فيمن لازمه من المهاجرين والأنصار ـــ شاع استعماله فى كل من تبعه أو أدركه ووفد عليه ولو مرة .

أى فيحمل لفظ (أصحابى) فى الحديث على مثل هؤلاء .

وقد ارتد كثير منهم وحاربهم أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ فرجع كثير منهم إلى الإسلام ونصروه ، ومات كثير منهم مرتداً عن الإسلام ، والعياذ بالله تعالى .

(فأقول : كما قال العبد الصالح) : هو عيسى عليه السلام .

﴿ وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ﴾ : أى رقيباً عليهم ، أو مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

٥٣ – أنا أغْنى الشُّركاءِ عن الشركِ :

عن أبي هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهُ ﷺ ـــ : قالَ اللهُ تباركَ وتعالى ـــ : أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عن الشّرْكِ ، من عَمِلَ عملاً أَشْرَكَ فيهِ غيرِى ، تركتُه وشِرْكَهُ .

رواه مسلم

(أنا أغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيرى ، تركته وشركه) :

هكذا وقع فى بعض الأصول : (وشركه) وفى بعضها (وشريكه) .

ومعناه : أنه غنى عن المشاركة وغيرها فمن عمل عملا لى ولغيرى لم أقبله منه ، بل أتركه لذلك الغير ، كما قال : (فليطلب ثوابه من عند غير الله) . ففيه حث على الإخلاص فى العمل ، وتحريم للرياء .

والمراد أن عمل المرائى باطل ، لا ثواب فيه ويأثم به أى لعدم الإخلاص فيه ، والإخلاص فى العبادة مأمور به فقد قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ .

والرياء فى العمل هو الشرك الخفى ، وبه يتوصل الشيطان إلى

إبطال الأعمال والحرمان من ثوابها . والإخلاص هو روح العبادة ، فكل عبادة تفقد الإخلاص تكون كالجسم الذى فقد الروح ، فلا ينتفع به فضلا عن أنه يصير جيفة نتنة تؤذى الناس برائحتها الكريهة .

والعمل بالإخلاص يزكو ويطيب ، وتظهر ثمرته على صاحبه ، حتى يكون له نور يتلألأ على وجهه ، وتوجد له حلاوة فى منطق صاحبه ، وتؤثر كلماته فى نفوس سامعيها ، فيعمل بها السامعون ، ويهتدى بها الضالون ، لأن الكلام إذا كان صادراً من قلب المتكلم وصل إلى قلوب السامعين وأثر فيهم ، رزقنا الله الاخلاص فى القول والعمل . آمين .

* * *

٥٤ - حوضُ نَبِيِّنا ﷺ وصِفَتُه :

عن ابن أبى مُلَيْكَةَ قال : قال عبدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو ابنِ العاص قال رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : « حَوْضى مسيرةُ شهرٍ ، وزَواياهُ سواءٌ ، وماؤُهُ أبيضُ من الوَرِق ، وريحُه أطيبُ من المِسكِ ، وكيزانُه كنجومِ السّماءِ ، فمن شَرِبَ مِنْه فلا يَظْمأُ بعدَه أبداً ، قال : وقالت : أسماءُ بنتُ أبى بَكرٍ قال رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : إنِّى على الحوضِ حتى أَنظُرَ من يَرِدُ علَىّ مِنكُم ، وسيُؤْخذُ أُناسٌ دُونِى ، فأقولُ : ياربِّ مِنىِّ ومِنْ أُمَّتِى ؟ ، فيُقالُ : أما شَعَرْتَ ما عمِلُوا بعدَك ؟ واللهِ ما برِحُوا يَرجِعُونَ على أعقابِهم . قال : فكان ابنُ أبى مُلَيكَةَ يقولُ : اللهمَّ إنا نعوذُ بكَ أن نَرجِعَ على أعقابِنا أو أن نُفْتَنَ عن دينِنَا » .

رواه مسلم

قال القاضى عياض رحمه الله ـ أحاديث الحوض صحيحة ، والإيمان به فرض ، والتصديق به من الإيمان ، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة ، لا يتأول ولا يختلف فيه .

قال القاضى : وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة

فذكره مسلم من رواته ابن عمرو بن العاص ، وعائشة وأم سلمة ، وعقبة بن عامر ، وابن مسعود ، وحذيفة وحارثة بن وهب ، والمستورد ، وأبو ذر ، وثوبان وأنس وجابر بن سمرة .

ورواه غير مسلم من رواية أبى بكر الصديق ، وزيد بن أرقم ، وأبى أمامة ، وعبد الله بن زيد ، وأبى برزة وسويد بن حبلة ، وعبد الله بن الضابحى والبراء بن عازب وأسماء بنت أبى بكر ، وخولة بنت قيس وغيرهم .

قلت : ورواه البخارى ومسلم أيضاً من رواية أبى هريرة ، ورواه غيرهما من رواية عمر بن الخطاب وعائذ بن عمر وآخرين ، وقد جمع ذلك كله الإمام الحافظ البيهقى فى كتاب « البعث والنشور » بأسانيده وطرقه المتكاثرات ، قال القاضى : وفى بعض هذا ما يقتضى كون الحديث متواتراً .

(حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء) :

قال العلماء : معناه : طوله كعرضه كما قال فى حديث أبى ذر (عرضه مثل طوله) .

(ماؤه أبيض من الوَرِق) :

هكذا هو فى جميع النسخ (الورِق) بكسر الراء وهو الفضة والنحويون يقولون : إن فعل التعجب الذى يقال فيه ما أفْعَلَ ، وأفْعِل

به مثل : ما أحسن هذا الكلام ، وأحسن به وكذلك أفعل التفضيل الذي يقال فيه هو :

أفعل من كذا — إنما يكون فيما كان ماضيه على ثلاثة أحرف ، فإن زاد لم يتعجب من فعله ، ولا يصاغ من أفعل تفضيل ، وإنما يتعجب من مصدره فلا يقال ما أبيض زيداً ، ولا زيد أبيض من عمرو ، وإنما يقال ما أشد بياضه ! ، وهذا أشد بياضاً من كذا ، وقد جاء فى الشعر أشياء من هذا الذى أنكروه فعدوه شاذاً لا يقاس عليه ، وهذا الحديث يدل على صحته ، وهى لغة وإن كانت قليلة الاستعمال ، ومنها قول عمر — رضى الله عنه — : ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ؛ فضيع فعل غير ثلاثى ، لأنه مضعف العين وهو الياء والحرف المشدد بحرفين ، وعلى ذلك فهو رباعى ، ومع هذا فقد جاء على وزن أفعل فى قول عمر : فهو لما سواها أضيع .

(كيزانه كنجوم السماء) :

وفى رواية (فيه أباريق كنجوم السماء) وفى رواية (والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها) وفى رواية (ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء) وفى رواية (آنيته عدد النجوم) وفى رواية (ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء) وفى رواية (كأن الأباريق فيه النجوم) :

المختار والصواب : أن هذا العدد للآنية على ظاهره ، وأنها أكثر عدداً من نجوم السماء ، ولا مانع عقلياً وشرعياً يمنع من ذلك ، بل

ورد الشرع به مؤكداً كما قال — ﷺ — : (والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء) وقال القاضى عياض : هذا إشارة إلى كثرة العدد وغايته الكثيرة من باب قوله — ﷺ — : لا يضع العصا عن عاتقه) وهو باب من المبالغة معروف فى الشرع واللغة ، ولا يعد كذباً إذا كان المخبر عنه فى حيز الكثرة والعظم ومبلغ الغاية فى بابه بخلاف ما إذا لم يكن كذلك ، و مثله « كلمته ألف مرة » « ولقيته مائة كرة » فهذا جائز إذا كان كثيراً وإلا فلا ، هذا كلام القاضى والصواب الأول .

(فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً) :

(الظمأ) مهموز مقصور كما ورد به القرآن العزيز هو العطش ، يقال ظمىء يظمأ ظمأ فهو ظمآن وهم ظِماء بالمد كعطش يعطش عطشاً فهو عطشان وهم عطاش .

قال القاضى : ظاهر هذا الحديث — أن الشرب منه يكون بعد الحساب والنجاة من النار ، فهذا هو الذى لا يظمأ بعده ، قال : وقيل : لا يشرب منه إلا من قدر له السلامة من النار ، قال : ويحتمل أن من شرب منه من هذه الأمة وقدر عليه دخول النار لا يعذب فيها بالظمأ بل يكون عذابه بغير ذلك ، لأن ظاهر هذا الحديث أن جميع الأمة يشرب منه إلا من ارتد وصار كافراً ، قال : وقد قيل : إن جميع الأمم من المؤمنين يأخذون كتبهم بأيمانهم ثم يعذب الله تعالى من شاء من عصاتهم ، وقيل : إنما يأخذه بيمينه الناجون خاصة ، قال

القاضى : وهذا مثل قوله ـــ ﷺ ـــ (من ورد شرب) هذا صريح فى أن الواردين كلهم يشربون ، وإنما يمنع منه الذين يذادون[1] ويمنعون الورود لارتدادهم .

تعليق :

جاء ذكر الحوض فى أحاديث أخرى رواها البخارى ومسلم نذكر منها :

عن سهل بن سعد ، رضى الله عنه قال : قال النبى ـــ ﷺ ـــ : إنى فَرَطكم[2] على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردن على أقوام ، أعرفهم ويعرفوننى ، ثم يحال بينى وبينهم .

قال أبو حازم : فسمعنى النعمان بن أبى عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت : نعم ، فقال : أشهد على أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ لسمعته ، وهو يزيد فيها :

(فأقول : إنهم منى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سحقاً ، سحقاً[3] ، لمن غير بغدى) .

---

(١) يذادون : يطردون ويمنعون .

(٢) فرطكم بفتح الفاء والراء : سابقكم إليه لأصلحه وأهيئه لكم .
والفرط : الذى يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض . فهنيئاً لوارديه ، جعلنا الله منهم ، بوجهه الكريم ، من غير عذاب ، إنه كريم وهاب .

(٣) سحقاً سحقاً : أى بعداً لكم ، وكررها للتأكيد .

واختلف فى حوضه ـ ﷺ ـ هل هو قبل الصراط أو بعده ؟

قال أبو الحسن القابسى : الصحيح أن الحوض قبل الصراط .

قال القاضى فى تذكرته : والمعنى يقتضيه ؛ فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم ـ واستدل بما فى البخارى من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ مرفوعا (بينا أنا قائم على الحوض ، إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم ، خرج رجل من بينى وبينهم ، فقال : هلم ، فقلت أين ؟ قال : إلى النار .. الحديث .

قال القرطبى : فهذا الحديث يدل على أن الحوض يكون فى الموقف قبل الصراط ؛ لأن الصراط إنما هو جسر ممدود ، يجاز عليه ، فمن جازه سلم من النار .

وقال آخرون : إنه بعد الصراط ، وصنيع البخارى فى إيراده لأحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة ، وبعد نصب الميزان مشعر بذلك .

وفى حديث أنس عن الترمذى ما يدل له ولفظه :

(سألت رسول الله ـ ﷺ ـ أن يشفع لى فقال : أنا فاعل ، فقلت : أين أطلبك ؟ قال : اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الحوض) .

ويؤيده ظاهر قوله ــ ﷺ ــ (من شرب منه لم يظمأ أبداً) لأنه يدل على أن الشرب منه يكون بعد الحساب والنجاة من النار ؛ لأن ظاهر حال من لا يظمأ أن لا يعذب فى النار ثم قال :

وأما حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ المستدل به على القبلية ــ فأجيب عنه باحتمال أنهم يقربون من الحوض ، بحيث يرونه ، فيدفعون إلى النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط .

ونحن نرجح القول الأول .

٥٥ – أَسْلَمُ سَالَمهَا اللهُ وغِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا :

عن أبي هريرة أن رسولَ الله – ﷺ – قال : « أَسْلَمُ سالَمها اللهُ ، وغِفَارٌ غفرَ اللهُ لها ، أَمَا إنّى لَمْ أَقُلْهَا ، ولكنْ قالَها اللهُ – عزّ وجلّ » .

رواه مسلم

(أسلم سالمها الله) :

قال العلماء : من المسالمة وترك الحرب . قيل : هو دعاء لهم ، وقيل : هو خبر عن حالهم .

قال القاضي فى « المشارق » : هو من أحسن الكلام ، مأخوذ من سالمته إذا لم تر منه مكروها ، فكأنه دعا لهم بأن يصنع الله بهم ما يوافقهم ، فيكون (سالمها) بمعنى سلمها ، وقد جاء (فاعل) بمعنى (فعل) كقاتله الله أى قتله .

تعليق :

جاء فى باب الفضائل ذكر الأنصار بالخير وثناء النبى – ﷺ – وحبه لهم ومن ذلك ما رواه مسلم :

عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله – ﷺ – : اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

* * *

٥٦ – النّهىُ عن سبِّ الدّهرِ :

قال أبو هريرةَ سمعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ : قال اللهُ – عز وجل – : « يَسُبُّ ابنُ آدمَ الدّهرَ وأنا الدهرُ ؛ بيدى الليلُ والنهارُ »

رواه مسلم

(يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدى الليل والنهار) :

وفى رواية (يؤذينى ابن آدم ؛ يسب الدهر ؛ وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار) .

وفى رواية (يؤذينى ابن آدم ، يقول : ياخيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم ياخيبة الدهر ، فإنى أنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما) .

وفى رواية (لا تسبوا الدهر ؛ فإنّ الله هو الدهر) .

أما قوله – عز وجل – : (يؤذينى ابن آدم) فمعناه : يعاملنى معاملة توجب الأذى فى حقكم .

وأما قوله – عز وجل : (وأنا الدهرُ) برفع الراء ، هذا هو الصواب المعروف الذى قاله الشافعى وأبو عبيد وجماهير المتقدمين والمتأخرين ، وقال أبو بكر ومحمد بن داود الأصبهانى الظاهرى : إنما هو الدهر بالنصب على الظرف ، أى أنا مدة الدهر أقلب ليله

ونهاره ، وحكى ابن عبد البر هذه الرواية عن بعض أهل العلم ، وقال النحاس : يجوز النصب أى : فإن الله باق مقيم أبداً لا يزول :

قال القاضى : قال بعضهم : هو منصوب على التخصيص ، قال : والظرف أصح وأصوب ، أما رواية الرفع وهى الصواب فموافقة لقوله (فإن الله هو الدهر) قال العلماء : وهو مجاز وسببه أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها ، من موت ، أو هرم ، أو تلف مال أو غير ذلك فيقولون : ياخيبة الدهر ، ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر فقال النبى ـ ﷺ ـ لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر ، أى لا تسبوا فاعل النوازل فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله تعالى ؛ لأنه هو فاعلها ومنزلها ، وأما الدهر الذى هو الزمان فلا فعل له ، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى ومعنى (فإن الله هو الدهر أى فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات والله أعلم) .

(بيدى الليل والنهار) :

أى أنا الذى أصرف الحوادث التى تكون فى الليل والنهار .

روى الإمام أحمد بسند صحيح عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه : (لا تسبوا الدهر ، فان الله تعالى قال : أنا الدهر : الأيام والليالى إلى ، أجددها وأبليها ، وآتى بملوك بعد ملوك) .

وقد جاء الحديث لتصحيح العقيدة ، وحسن الأدب فى اللفظ ، فقد كان الناس يزعمون أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، ويضيفون كل حادث إلى الدهر .

وأشعارهم ناطقة بشكوى الزمان .

وكانوا يقولون : (يا بؤس الدهر ، ويا خيبة الدهر) .

والله سبحانه وتعالى ـــ هو وحده الفاعل لجميع الحوادث المصرف لها ، والزمان ما هو إلا ظرف لها ، فجاء النهى عن سب الدهر لذلك والله أعلم .

* * *

٥٧ - كذَّبنى ابنُ آدمَ ، ولم يكنْ له ذلك[1] :

عن أبى هريرةَ - رضىَ اللهُ عنه - عن النبىِّ - ﷺ - قال : قال اللهُ تعالى : « كذَّبَنِى ابنُ آدمَ ، ولم يَكُنْ له ذلك ، وشَتَمنِى ولَمْ يَكُنْ له ذلك ، فأما تكذيبُه إياىَ ، فقولهُ : لَنْ يُعيدَنى كما بدأَنى ، وليسَ أولُ الخلق بأهونَ علىَّ من إعادتِه ، وأما شَتْمُه إياىَ ، فقولُه : اتخذَ اللهُ ولداً ، وأنا الأحدُ الصّمدُ ، لم ألدْ ولم أُولَدْ ، ولم يَكُنْ لِى كُفُواً أحدْ » .

رواه البخارى

(كذَّبنى ابن آدمَ) بتشديد الذال :
أى بعض بنى آدم ، وهم من أنكر البعث ، أو المراد جنس ابن آدم .

(ولم يكن ذلك) :
أى لم يكن له ذلك التكذيب ، أى لا يحق له أن يكذب .
(وشتمنى ولم يكن له ذلك) :
أى لم يكن له ذلك الشتم .

(١) شرح الحديث للإمام القسطلانى .

(فأما تكذيبه اياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من اعادته) :

أى أنه جرت العادة بأن إعادة الشيء أهون وأسهل من البدء فيه ، وإن كان كلاهما بالنسبة إلى الله سواء ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

(وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً) .

وإنما كان ذلك شتماً لما فيه من التنقيص ، لأن الولد إنما يكون عن والد يحمله ، ثم يضعه ، ويستلزم ذلك سبق نكاح ، والناكح يستدعى باعثاً على ذلك ، والله منزه عن ذلك .

(وأنا الأحد الصمد) :
صَمَد : فَعَلٌ بمعنى مفعول ، أى مصمود إليه ومقصود من كل الخلق .

(لم ألد ولم أولد) :

لما كان الله لا يشبهه أحد من خلقه ولا يجانسه ، حتى لا يكون له من جنسه صاحبة ، فيتولد عنهما ، انتفت الوالدية .

ولأنه تعالى لما كان واجب الوجود لذاته ، كان قديماً قبل كل موجود ، ولما كان كل مولود محدثاً ــ أى له أول ــ انتفت الولدية عنه .

(ولم يكن له كفواً أحد) :
أى مكافئاً ومماثلا .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام ـــ رحمه الله تعالى ـــ : السلوب الواجب لله تعالى على قسمين : أحدهما سلب نقيصة ، كالسِّنَةِ والنوم والموت ـــ وسلب للمشارك فى الكمال ، كسلب الشريك .

وأما قوله : (لم يلد ولم يولد) فإنه سلب للنقص ، إذ الولد والوالد لا يكونان إلا من جسمين ، وهما من الأغيار والأغيار نقص يتنزه الله تعالى عنه .

ثم قال أبو عبد الله البخارى ـــ رحمه الله تعالى :

(قوله : الله الصمد) والعرب تسمى أشرافها الصمد .

قال أبو وائل شقيق بن سلمة : هو السيد الذى تناهى سؤدده .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الذى تصمد إليه الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم (أى تقصده الناس فى الحوائج)

وهو من صمد إذا قصد ، وهو الموصوف به عند الإطلاق ، فإنه مستغن عن خلقه وعن غيره مطلقاً ، وكل ما عداه محتاج إليه فى جميع جهاته .

وقال الحسن وقتادة : هو الباقى بعد خلقه .

وعن الحسن (الصمد : الحى القيوم الذى لا زوال له) .

وعن الضحاك والسدى : (الذى لا جوف له) أى فلا يكون محتاجاً .

وعن عبد الله بن زيد : (الصمد نور يتلألأ) .

وكل هذه الأوصاف صحيحة فى صفاته تعالى .

ثم نقل القسطلانى عن الغزالى فى فتوح الغيب ما يأتى :

فقوله : (الله أحد) دليل على إثبات ذاته المقدسة ، المنزهة ، والصمدية تقتضى نفى الحاجة — عن الله تعالى ، وتقتضى احتياج غيره إليه .

٥٨ - أَصْبَحَ من عبادى مؤمنٌ بى وكافرٌ[١]:

عن زيدِ بنِ خالدٍ الجهنيِّ ـ رضى الله عنه ـ قال : صلى لنا رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ صلاةَ الصبح بالحُديْبية ، على إثْرِ سماءٍ كانت من الليلةِ ، فلما انصرف النبيُّ ـ ﷺ ـ أقبَلَ على الناسِ فقال لهم : « هل تدرون ماذا قال ربُّكم ؟ قالوا : اللهُ ورسولُه أعلم . قال : أصبح من عبادى مؤمنٌ بى وكافرٌ ، فأما من قال : مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتِه ، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا ، فذلك كافرٌ بى ، مؤمنٌ بالكوكبِ » .

رواه البخارى

(صلاة الصبح بالحديبية) :

(الحديبية مخففة الياء وعليه المحققون ، ومشددة عند الأكثرين من المحدثين ، سميت بشجرة حدباء (شجرة مقوسة) وكانت بيعة الرضوان تحتها .

(على إثر سماء) :

(إثر) بكسر الألف وسكون الثاء معناه : عقب ، (وإثر سماء)

أى عقب مطر ، وأطلق عليه سماء لكونه ينزل من جهتها ، وكل جهة علو تسمي سماء .

(فلما انصرف النبى ــ ﷺ) :

أى انصرف من صلاته أو من مكانه .

(هل تدرون ماذا قال ربكم ؟)

اللفظ هنا لفظ استفهام ، ومعناه التنبيه واستحضار أذهان السامعين .

(أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر) :

أى كفر إشراك ــ لمقابلته للإيمان ــ أو كفر نعمة ، بدلالة حديث مسلم : (قال الله : ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين) .

والإضافة فى قوله تعالى (عبادى) للملك ، لا للتشريف .

(وأما من قال : مطرنا بنوء كذا ، وكذا) :

(النوء) بفتح النون وسكون الواو معناه : الكوكب .

والمعنى : من نسب ذلك إلى الكوكب.معتقداً ما كان عليه أهل الشرك من إضافة المطر إلى النوء ، وأن المطر كان بسبب أن الكوكب (ناء) أى سقط وغاب ، أو نهض وطلع ، وأنه هو الذى هاجه (فذلك كافر بى) لأن النوء وقت ، والوقت مخلوق ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً (مؤمن بالكوكب) .

وأما من قال : (مطرنا فى وقت كذا) فلا يكون كفراً .

قال الإمام الشافعى رحمه الله : فمن زعم أن المطر يحصل عند سقوط الثريا مثلا فإنما هو إعلام للوقت والفصول ، فلا محذور فيه ، وليس من وقت ولا زمن إلا وهو معروف بنوع من مرافق العباد يكون فيه دون غيره .

وحكى عن أبى هريرة أنه كان يقول : مطرنا بنوء الله تعالى ، وفى رواية (مطرنا بنوء الفتح) – ثم يتلو : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ .

وقال ابن العربى : أدخل الامام مالك ــ رحمه الله ــ هذا الحديث فى أبواب الاستيبقاء لوجهين : أحدهما أن العرب كانت تنتظر السقيا فى الأنواء ، فقطع النبى ــ ﷺ ــ هذه العلاقة بين القلوب والكوكب .

الوجه الثانى : أن الناس أصابهم القحط فى زمن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فسأل كم بقى من أنواء الثريا ؟ فقال له العباس : زعموا ياأمير المؤمنين أنها تعترض فى الأفق سبعاً ، فما مرت حتى نزل المطر – فنظروا إلى عمر والعباس ، وقد ذكر الثريا ونوأها ، وتوكفا[1] ذلك فى وقتها .

---

(١) توكف الأمر أى تعهده ونظر فى أمره .

ثم قال : إن من انتظر المطر من الأنواء على أنها فاعلة له من دون الله فهو كافر ، ومن اعتقد أنها فاعلة بما جعل الله فيها فهو كافر ؛ لأنه لا يصلح الخلق والأمر إلا لله تعالى كما قال تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ .

ومن انتظرها وتوكف[1] المطر فيها على أنها عادة أجراها الله تعالى فلا شيء عليه ؛ لأن الله تعالى قد أجرى العوائد فى السحاب والرياح والأمطار لمعان ترتبت فى الخلقة وجاءت على نسق فى العادة .
(كذا ، وكذا) :

كذا ، وكذا كلمة مركبة من (كاف التشبيه) و(ذا) للإشارة وتستخدم فى الكناية عن العدد كقوله (حججت كذا مرة) أى عدة مرات ، كما تستخدم فى الكناية عن غير العدد كما فى الحديث القائل : (إنه يقال للعبد يوم القيامة : أتذكر يوم كذا وكذا ، فعلت كذا وكذا) .

وتكون أيضا كلمتين باقيتين على أصلهما : من كاف التشبيه ، وذا للاشارة كقوله : رأيت زيداً فاضلا ، ورأيت عمراً كذا وتدخل عليهما (ها) التنبيه كقوله تعالى : ﴿أهكذا عرشك﴾؟ فهذه الثلاثة أوجه المعروفة فى ذلك .

---

(١) توكف هنا بمعنى انتظر .

٥٩ – ومن أَظْلَمُ مِمَّن ذهبَ يَخْلُقُ كخَلْقِى[1]:

عن أبى زَرعةَ ، سمع أبا هريرة – رضى اللهُ عنه – قال : سمعتُ النبىّ – ﷺ – يقولُ : قال اللهُ – عزّ وجلَّ – : « ومَن أظلَمُ مِمّن ذهب يَخْلُق كخَلْقى ، فلْيخلُقوا ذَرَّةً – أو لِيَخلُقوا حَبةً ، أو شَعيرةً » .

رواه البخارى

وروى الإمام مسلم الحديث بلفظ :

دخلت مع أبى هريرة فى دار مروان فرأى فيها تصاوير ، فقال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : قال الله – عز وجل – : ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا شعيرة .

(ومن أظلم مِمَّن ذهب) : أى قصد .

(يخلق كخلقى) :

أى لا أحد أظلم ممن قصد أن يصنع ويقدر كخلقى .

وهذا التشبيه لا عموم له ، يعنى كخلقى فى فعل الصورة ، لا من كل الوجوه .

(١) شرح هذا الحديث للإمام القسطلانى .

واستشكل التعبير ؛ لأن الكافر أظلم قطعاً من المصور .

وأجيب بأنه إذا صور الصنم للعبادة كان كافراً ، فهو هو ، أو يزيد عذابه على سائر الكفار ، لزيادة قبح كفره .

(فليخلقوا ذَرة) :

بفتح الذال أى نملة صغيرة ، أو الهباء[1] .

(أو ليخلقوا حبة) :

أى حبة منتفعا بها كالحنطة .

(أو شعيرة) :

هو من باب عطف الخاص على العام ، أو هو شك من الراوى .

والمراد : تعجيزهم وتعذيبهم تارة بطلب خلق الحيوان ، وأخرى بخلق غير الحيوان .

---

(١) الذرة جسيم صغير لايرى بالعين المجردة كما أثبت العلم الحديث .

٦٠ – مَن قاتَل للرياءِ والسُّمْعَةِ استَحقَّ النَّارَ :

عن سُليمانَ بْنِ يَسارٍ قال : تفرق الناسُ عن أبى هريرةَ فقال له ، ناتل أهل الشام : أيها الشيخُ حدِّثنا حديثاً سمعتَه من رسولِ الله ـــ ﷺ ـــ قال : نعم ، سمعتُ رسولَ الله ـــ ﷺ يقول :

« إن أولَ الناس يُقضَى يومَ القيامةِ عليه رجلٌ استُشهِد فأُتِيَ به فعَرَّفه نعمَه فعرَفها ، قال : فما عمِلتَ فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استُشهدتُ ، قال : كذبتَ ، ولكنك قاتلتَ لِأَنْ يُقالَ : جرىءٌ فقد قيل ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلْقِيَ فى النارِ . ورجلٌ تعَلم العلمَ وعلَّمه ، وقرأ القرآنَ فأتِيَ بهِ فعرَّفه نِعمَه ، فعرَفَها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : تعلمتُ العلمَ وعلَّمتُه ، وقرأتُ فيك القرآنَ ، قال : كذبتَ ، ولكنك تعلمتَ العلمَ لِيقالَ : عالمٌ ، وقرأتَ القرآنَ لِيقالَ : : هو قارىءٌ ، فقد قيل ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِ حتى أُلْقِيَ فى النارِ .

ورجلٌ وسَّع اللهُ عليه وأَعطاه من أصنافِ المالِ كلِّه فأُتِيَ به فعرَّفه نِعَمَه ، فعَرَفها ، قال : فما عَمِلتَ فيها ؟ قال : ما

تركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيها إلا أنفَقْتُ فيها لكَ ، قال : كَذَبتَ ، ولكنك فعلتَ لِيُقالَ : هُوَ جَوَادٌ ، فقد قيلَ ، ثم أُمرَ به فسُحِبَ على وجهِهِ ثم أُلْقِىَ فى النارِ » .

رواه مسلم

(تفرق الناس عن أبى هريرة فقال له ناتل أهل الشام : أيها الشيخ) :

وفى الرواية الأخرى (فقال له ناتل الشامى) :

(ناتل) : هو ناتل بن قيس الحزامى الشامى من أهل فلسطين وهو تابعى ، وكان أبوه صحابياً وكان ناتل كبير قومه .

قال الإمام النووى رحمه الله :

قوله — ﷺ — فى الغازى والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته ، وعلى الحث على وجوب الإخلاص فى الأعمال ، كما قال الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

وفيه أن العمومات الواردة فى فضل الجهاد إنما هى لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً ، وكذلك الثناء على العلماء ، وعلى المنفقين فى وجوه الخيرات ؛ كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً .

٦١ - خَلقُ آدمَ ومَشْروعِيةُ السَّلامِ :

عن أبي هُرَيرَةَ رضىَ اللهُ عَنْهُ . عن النبىِّ ﷺ — قالَ : « خلقَ اللهُ آدمَ ، وطُولُه ستونَ ذِراعًا ، ثم قال : اذهب ، فسَلِّم على أولئكَ من الملائكةِ ، فاستَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ تَحِيَّتَكَ ، وتحيةَ ذُرِّيَّتِكَ ، فقال : السلامُ علَيْكُمْ ، فقالوا : السلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ — فزادُوهُ : (ورحمةُ اللهِ) — فكلُّ مَنْ يدخلُ الجَنَّةَ على صورةِ آدمَ ، فلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حتى الآن » .

رواه البخارى

(خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام) :

زاد عبد الرازق عن معمر (على صورته) — والضمير يعود لآدم ، أى أن الله أوجده على الهيئة التى خلقها الله عليها ، ولم ينتقل فى النشأة أحوالا ، ولا تردد فى الأرحام أطوارا كما هو الحال فى خلق بنى آدم بل خلقه كاملا سويا .

وعورض هذا التفسير بقوله فى حديث آخر : (خلق الله آدم على صورة الرحمن) — وأجيب على ذلك بأن هذه الإضافة تشريف وتكريم لأن الله تعالى خلقه على صورة — لم يشكلها شيء من الصور فى الكمال والجمال .

(وطوله ستون ذراعا) :

زاد أحمد من حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة مرفوعا : (فى سبعة أذرع عرضا) .

(ثم قال تعالى له : اذهب فسلم على أولئك) :

أى النفر (من الملائكة ، فاستمع ما يحيونك) من التحية ، وهذه (تحيتك وتحية ذريتك) من بعدك وهذه أول مشروعية السلام وتخصيصه بالذكر ؛ لأنه فتح لباب المودة ، وتأليف قلوب الإخوان ، المؤدى إلى استكمال الإيمان ، كما فى حديث مسلم عن أبى هريرة مرفوعا : (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم) .

(فكل من يدخل الجنة) :

يدخلها وهو (على صورة آدم عليه السلام) فى الحسن والجمال والطول ، ولا يدخلها على صورته من السواد أو بوصف من العاهات .

(فلم يزل الخلق ينقص) فى الجمال والطول (حتى الآن) أى فانتهى التناقص إلى هذه الأمة . فإذا دخلوا الجنة عادوا إلى ما كان عليه آدم عليه السلام من الجمال وطول القامة .

وفى كتاب « مثير الغرام فى زيارة القدس والخليل عليه السلام » لتاج الدين التدمرى مما نقله عن ابن قتيبة فى المعارف ما يلى :

(إن آدم عليه السلام كان أمْرَدَ وسيما ، وإنما نبتت اللحية لولده بعده ، وكان طوالا كثير الشعر ، جَعدا أجمل البرية) .

وحديث الباب أخرجه البخارى أيضا فى الاستئذان ، ومسلم فى صفة الجنة ، وصححه ابن حبان ، ورواه البزار والترمذى ، والنسائى من حديث سعيد المقبرى وغيره عن أبى هريرة مرفوعا .

(إن الله خلق آدم من تراب ، فجعله طينا ، ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ، ثم تركه حتى إذا صار صلصالا كالفخار ـــ كان إبليس يمر به فيقول : (خلقت لأمر عظيم) . ثم نفخ فيه من روحه ، فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فقال : الحمد لله فقال الله : يرحمك ربك .. الحديث .

وفى حديث أبى موسى مما أخرجه أبو داود ، وصححه ابن حبان مرفوعا : (ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض) .

ففى هذا أن الله تعالى لما أراد خلق آدم ، وإبرازه من العدم إلى الوجود ، قلبه فى الستة الأطوار : طور التراب ، وطور الطين اللازب ، وطور الحمأ المسنون ، وطور الصلصال ، وطور التسوية ، وهى جعل الزخرفة ، التى هى الصلصال عظما ولحما ودما ، ثم نفخ فيه الروح .

ثم قال القسطلانى ــ رحمه الله تعالى :

وقد خلق الله الإنسان على أربعة أضرب : إنسان من غير أب ولا أم ، وهو آدم عليه السلام وإنسان من أب لا غير ، وهو حواء ، وإنسان من أم لا غير ، وهو عيسى عليه السلام وإنسان من أب وأم ، وهو الذى خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ــ يعنى من صلب الرجل ، ومن ترائب الأم

وهذا الضرب يتم بعد ستة أطوار أيضا : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام ، ثم كسوة العظام لحما ، ثم نفخ الروح .

وقد شرف الله الإنسان على سائر المخلوقات ، فهو صفوة العالم وخلاصته وثمرته قال تعالى : ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾وقال ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه﴾.

ولا ريب أن من خلقت لأجله وبسببه جميع المخلوقات ، علويها وسفليها خليق بأن يرفل فى ثياب الفخر على من عداه ، وتمتد الى اقتطاف زهرات النجوم يداه ، وقد خلقه الله تعالى واسطة بين شريف ــ وهو الملائكة ــ ووضيع ــ وهو الحيوان ، ولذلك كان فيه قوى العالمين ، وأهل لسكن الدارين ، فهو كالحيوان فى الشهوة ، وكالملائكة فى العقل والعلم والعبادة ، وخصه برتبة النبوة ، واقتضت الحكمة أن تكون شجرة النبوة صنفا منفردا ، ونوعا واقعا بين الانسان والملك ومشاركا لكل منهما على وجه ، فانه كالملائكة فى

الاطلاع على ملكوت السموات والأرض ، وكالبشر فى أحوال المطعم والمشرب وغيرهما .

وإذا طهر الإنسان من نجاسته النفسية ، وقاذوراته البدنية ، وجعل فى جوار الله — كان حينئذ أفضل من الملائكة ، قال تعالى :

﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ﴾

وفى الحديث (الملائكة خدم أهل الجنة) .

قال ابن كثير : واختلف هل ولد لآدم فى الجنة ؟ فقيل : لا ، وقيل : ولد فيها قابيل وأخته . قال : وذكروا أنه كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى . وفى تاريخ ابن جرير : أن حواء ولدت أربعين ولدا فى عشرين بطنا ، وقيل : مائة وعشرين بطنا ، فى كل بطن ذكر وأنثى أولهم قابيل وأخته إقليما .

(وفى القاموس : وإقليمياء بالكسر بنت آدم عليه السلام) .

وآخرهم : عبد المغيث وأخته أمة المغيث . وقيل : إنه — أى آدم — لم يمت حتى رأى من ذريته : من ولده وولد ولده أربعمائة ألف نسمة . فالله أعلم .

وذكر السدى عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره : أنه كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى البطن الآخر ، وأن هابيل أراد أن يتزوج أخت قابيل ، فأبى — قابيل ، فأمرهما آدم أن يقربا قربانا ، ففعلا ،

فنزلت نار فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فغضب قابيل ، وقال لهابيل ، لأقتلنك ؛ حتى لا تتزوج أختى ، فقال له : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ وضرب قابيل هابيل فقتله . كما قص الله ذلك فى كتابه العزيز .

وكانت مدة حياة آدم : ألف سنة ، وعن عطاء الخراسانى مما رواه ابن جرير؛أنه لما مات بكت الخلائق عليه سبعة أيام .

وقال القسطلانى ــ رحمه الله فى شرح الحديث :

(خلق الله آدم على صورته) الضمير عائد على آدم ، أى خلقه تاما مستويا ، لم يتغير عن حاله ، ولا كان من نطفة ، ثم علقة ، ثم من مضغة ، ثم جنينا ، ثم طفلا ، حتى تم ، ولم ينتقل فى هذه الأطوار كذريته .

وفيه إبطال لقول الدهرية : إنه لم يكن قط إنسان إلا من نطفة ، ولا نطفة إلا من إنسان ــ وذكر ذلك ابن بطال .

وللبخارى فى الأدب المفرد ، وأحمد من طرق ابن عجلان عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا : (لا يقولن قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته) أى صورة المدعو عليه بهذه المقالة . وهو ظاهر فى عود الضمير على المقول له ذلك ، وهو المدعو عليه .

وقيل : الضمير لله تعالى ، لما فى بعض الطرق : (خلقه على

صورة الرحمن) أى على صفته تعالى من العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك . وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شىء .

وقال التوربشتى : وأهل الحق فى ذلك على طبقتين . إحداهما : المتنزهون عن التأويل مع نفى التشبيه ، وإحالة ذلك إلى علم الله تعالى ، الذى أحاط بكل شىء علما ، وهذا أسلم الطريقتين .

والطبقة الأخرى يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف ، وذلك أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورة لم يشاكلها شىء من الصور فى الجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة .

وقال الطيبى : التأويل فى هذا المقام حسن يجب المصير إليه ، لأن قوله : (طوله) بيان لقوله : (على صورته) كأنه قال : خلق آدم على ما عرف عليه ، من صورته الحسنة ، وهيئته من الجمال والكمال وطول القامة وخص الطول منها ؛ لأنه لم يكن بين الناس .

أقول : ومما يقوى هذا التأويل قوله تعالى ممتنا على الإنسان : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ والله أعلم .

٦٢ – شهادةُ الملائكةِ للمؤمنينَ :

عن أبى هُرَيْرَةَ رضىَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : قالَ النبىُّ ﷺ : « المَلائكةُ يتعاقبونَ : ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهارِ ، ويجتمعونَ فى صلاةِ الفجرِ ، وصلاةِ العصرِ ، ثم يَعْرُجُ الذين باتوا فيكُمْ ، فيسألُهم ـ وهو أعلَمُ ـ فيقولُ : كيف تركْتُم عِبادِى ؟ فيقولُونَ : تركناهُمْ وهُم يُصَلُّون ، وأتيناهم يُصَلُّونَ » .

رواه البخارى

التعاقب : أن تأتى الجماعة عقب الأخرى ، ثم تعود الأولى عقب الثانية ، وتكرير ملائكته فى الموضعين ، ليفيد أن الثانية غير الأولى ، كما قيل فى قوله تعالى : ﴿إن مع العسر يسرا﴾ إنه استئناف وعده تعالى بأن اليسر مشفوع بيسر آخر ؛ لقوله ﷺ : (لن يغلب عسر يسرين) ؛ فإن العسر معرف فلا يتعدد ، سواء كان للعهد أو للجنس ، واليسر منكر فيكون الثانى غير الأول .

والمراد بالملائكة ـ الحفظة عند الأكثرين . وتعقب بأنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد ، ولا أن حفظة الليل غير حفظة النهار .

وقال القسطلانى فى بدء الخلق ـ فى هؤلاء الملائكة الذين

يتعاقبون : (وقال الأكثرون : هم حفظة الكتاب أى فيكونون حفظة على الكتبة الذين يكتبون الأعمال) .

وقوله : (ثم يعرج الذين باتوا فيكم) .

ذكر الذين باتوا ، دون الذين ظلوا فيكم : إما للاكتفاء بذكر أحد المثلين عن الآخر ، نحو ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أى والبرد . وإما لأن طرفى النهار يعلم من طرفى الليل . وإما لأنه استعمل بات بمعنى ــ أقام ــ مجازا فلا يختص ذلك بليل دون نهار .

ويؤيد هذا ما رواه النسائى عن موسى بن عقبة ، عن أبى الزناد : (ثم يعرج الذين كانوا فيكم) .

والسؤال لإظهار فضل بنى آدم للملائكة ؛ لأنهم يجيبون بالثناء عليهم ، فيكون من ذلك شهادة من الملائكة لبنى آدم وذلك شرف لهم .

نسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يجعلنا من الذين تشهد لهم الملائكة بالخير والصلاح ويجعلنا من الذين تستغفر لهم الملائكة ويقولون فى حقهم : ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

٦٣ – فضلُ الجهادِ فى سبيلِ اللهِ :

عن أبى هريرةَ رضىَ اللهُ عنهُ ــ عن النبىِّ ــ ﷺ ــ قالَ : « انتدبَ اللهُ لِمنْ خَرَجَ فى سبيلِه ، لا يُخْرِجُهُ إلا إيمانٌ بِى وتَصْدِيقٌ بِرُسُلِى ، أن أَرْجعَهُ بما نالَ مِنْ أَجْرٍ أو غنيمةٍ ، أو أُدخِلَه الجَنَّةَ ، ولولَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتى مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ ، ولَوَدِدْتُ أَنّى أُقْتَلُ فى سبيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيا ثم أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَل » .

رواه البخارى

(انْتَدب الله)

بنون ساكنة ، وتاء فوقية مفتوحة ، ودال مهملة ، ومعناه تكفل الله ، كما رواه المؤلف فى أواخر الجهاد أو سارع بثوابه و حسن جزائه وأصله من ندبت فلانا إلى كذا ، فانتدب ، أى أجاب اليه . وفى القاموس : ندبه إلى الأمر دعاه وحثه .

(لا يخرجه إلا إيمان بى .. الخ) .

المقصود من ذلك أن يكون مخلصا لله تعالى فى خروجه . فليس له باعث على الخروج إلا الإيمان بوعد الله والامتثال لأمر الله .

(أنْ أَرجعه) بفتح الهمزة من رجع ــ وأنْ ــ مصدرية ، والأصل بأن أرجعه ، أى يرجعه إلى بلده .

(بما نال من أجر) أى بالذى أصابه ـ من النيل ، و هو العطاء ـ أى بأجر فقط إن لم يغنموا .

(أو غنيمة) .

أى بأجر مع غنيمة إن غنموا ، ويمكن أن تكون (أو) بمعنى الواو كما رواه أبو داود : (بأجر وغنيمة) بالواو بدل ـ أو ـ وعبر بالماضى فى قوله (بما نال) لتحقق وعده تعالى .

(أو أدخله الجنة) عند دخول المقربين بلا حساب ولا مؤاخذة بذنوب ، إذ تكفرها الشهادة ، أو عند موته ، لقوله تعالى : ﴿ أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

(ولولا أن أشق على أمتى)

أى لولا المشقة على أمتى .

(ما قعدت خلفَ)

بالنصب على الظرفية ـ أى بعد (سرية) بل كنت أخرج معها بنفسى لعظم أجرها والمعنى : امتنع عن عدم القعود خلف سرية أى امتنع القيام والذهاب والخروج خلف سرية لوجود المشقة .

وسبب المشقة صعوبة تخلف الصحابة بعده ﷺ ولا قدرة لهم جميعا على المسير معه ، لضيق حالهم . وقال ذلك ﷺ ، شفقة منه على أمته ، جزاه الله عنا أفضل الجزاء .

(ولوددت)

عطفا على ما قعدت ، واللام للتأكيد ، أو جواب قسم محذوف ، أى والله لوددت ، أى أحببت .

(أن أُقتل فى سبيل الله ، ثم أُحيا ، ثم أُقتل ، ثم أُحيا ، ثم أُقتل) .

بضم الهمزة فى كل من أقتل وأحيا . وهى خمسة ألفاظ — وفى رواية الأصيلى (أنى أقتل) بدل (أن أقتل) .

ولأبى ذر : (فأقتل ، ثم أحيا ، فأقتل ، ثم أحيا ، فأقتل) كذا فى اليونينية وختم قوله : (ثم أقتل) ، لأن المراد الشهادة ، فختم الحال عليها — والإحياء للجزاء أمر معلوم ، فلا حاجة إلى ودادته ، لأنه ضرورى الوقوع — وثم للتراخى فى الرتبة أحسن من حملها على تراخى الزمان ، لأن المتمنى حصول مرتبة بعد مرتبة إلى الانتهاء إلى الفردوس الأعلى . والله أعلم .

٦٤ - تضعيف الأجرِ والثَّوابِ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ :

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ بنِ الخطَّابِ ــ رضى الله عَنْهُمَا ــ أن رسولَ اللهِ ﷺ ــ قال : « إنما مَثَلُكم واليهود والنصارى كرَجُلٍ استعمل عُمَّالاً ، فقالَ : من يعملُ لى إلى نصفِ النهارِ على قيراطٍ ، قيراطٍ ، فعَمِلَتْ اليهودُ على قيراطٍ ، قيراطٍ ، ثم عَمِلَتْ النَّصَارَى على قِيراطٍ ، قيراطٍ ، ثم أَنْتُمْ الذينَ تعملُونَ مِنْ صلاةِ العصرِ الى مغاربِ الشمسِ على قيراطين قيراطين ، فغضبَ اليهودُ والنصارى ، وقالوا : نحن أكثرُ عملاً ، وأقلُّ عطاءً . قال : هل ظَلمتُكُمْ مِنْ حِقِّكُمْ شيئًا ؟ قالوا : لا قال : فذلك فَضْلِى ، أُوتِيهِ مَنْ أشَاءُ » .

رواه البخارى

هذا الحديث برواياته المتعددة ، فيه بيان لحال كل من اليهود والنصارى الذين عمل كل منهم بكتابه ، وماتوا على ذلك قبل أن ينسخ كتابهم ، فعمل اليهود بكتابهم (التوراة) قبل بعثة المسيح عليه السلام ، وكذلك عمل النصارى بكتابهم (الإنجيل) قبل أن يبعث بنبينا محمد ﷺ .

فكل من هؤلاء يعطون الأجر على العمل بكتابهم — قيراطا قيراطا ، ويعطى من آمن بمحمد ﷺ بعد مبعثه أجره ، قيراطين ، قيراطين ، قال الله تعالى ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾. بعد قوله : ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون ﴾.

وذكر ﷺ من الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين (رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى) فهذا هو المراد من الحديث . والله أعلم .

٦٥ – صفةُ النبىِّ فى التوراةِ :

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ – رضى اللهُ عنهما – : أنَّ هذه الآيةَ التى فى القرآنِ : « يا أيها النبىُّ إنا أرسلناكَ شاهِدًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا » – قال فى التوراةِ : « يا أيها النبىُّ إنا أرسلناكَ شاهدًا ومبشراً ونذيراً وحِرْزاً للأُمِّيين ، أنتَ عبدى ورسولى ، سميتُكَ المُتَوَكِّل ، ليسَ بفَظّ ولا غَليظٍ ، ولا سَخَّابٍ بالأسواقِ ، ولا يدفعُ السيئةَ بالسيئةِ ، ولكنْ يَعْفُو ويصفَحُ ، ولن يَقْبِضَهُ اللهُ حتى يُقيمَ به المِلَّةَ العَوْجاءَ ، بأن يقولوا : لا إلهَ إلا اللهُ ، فيفتحُ بها أعْيُنًا عُمْيًا ، وآذانًا صُمًّا ، وقُلوبًا غُلْفًا » ..

وأخرج البخارىُّ أيضًا فى أولِ كتابِ البُيوعِ وفيه بسنَدِهِ إلى عطاءِ بنِ يسارٍ قالَ : لقِيتُ عبدَ اللهِ ابنَ عمرِو بنِ العاصِ – رضىَ اللهُ عنهما – قلتُ له : أَخبرْنِى عن صِفَةِ رسولِ اللهِ – ﷺ – فى التوراةِ ، قالَ : أَجَلْ واللهِ إنه لَمَوْصُوفٌ فى التوراةِ ببعضِ صفتِه فى القرآنِ : « يا أيها النبىُّ إنا أرسلناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذيراً » .. إلى آخر الحديث ..

رواه البخارى

قوله : (قلت له)
أى لعبد الله بن عمرو بن العاص :
(أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة)
أى لأن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — كان قد قرأ التوراة وعرف ما فيها .

(قال عبد الله : أَجَلْ) هى حرف جواب مثل نعم ، فيكون تصديقا للمخبر ، وإعلاما للمستخبر ، ووعدا للطالب

وقيل : تختص بالخبر .

وقال فى القاموس : هى جواب ، كنعم ، إلا أنه أحسن منه فى التصديق ، ونعم — أحسن منه فى الاستفهام .

قال الطيبى : وفى الحديث جاء جوابا للأمر ، على تأويل — قرأت التوراة ، فهل وجدت صفة رسول الله ﷺ فيها ؟ فأخبرنى ، قال : أجل ، (والله انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن) .

أكد كلامه بتأكيدات : الحلف بالله ، والجملة الاسمية ، ودخول — إن عليها ، ولام التأكيد على الخبر .

﴿ إنا أرسلناك شاهدا ﴾
لأمتك المؤمنين بتصديقهم ، وعلى الكافرين بتكذيبهم .
﴿ ومبشرا ﴾
للمؤمنين بالجنة .

﴿ ونذيرا ﴾
للكافرين بالنار
(وحرزا) أى حصنا
(للأميين)
أى للعرب لأن أغلبهم كانوا لا يقرءون ولا يكتبون .
(أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل)

على الله تعالى لقناعتك — باليسير من الرزق ، واعتمادك على الله تعالى فى النصر ، والصبر على انتظار الفرج والأخذ بمحاسن الأخلاق ، واليقين بتمام وعد الله تعالى . لذلك توكل على الله فسماه المتوكل .

(ليس بفظ)
أى ليس سيىء الخلق جافيا
(ولا غليظ)
أى ليس قاسى القلب

وهذا موافق لقوله تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾

وذلك بالنسبة للمؤمنين . وأما بالنسبة للكافرين والمنافقين ، فأمره الله تعالى أن يغلظ عليهم بقوله : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ .

وفى قوله : (ليس بفظ ... الخ)
التفات من الخطاب إلى الغيبة
(ولا سخاب)

بتشديد الخاء بعد السين ، وهى لغة فى — صخاب — أثبتها الفراء وغيره . والصخاب أشهر ، وهو الذى يرفع صوته على الناس . لسوء خلقه .

فهو لا يكثر الصياح عليهم فى الأسواق ، بل يلين جانبه لهم ، ويرفق بهم . وفيه ذم لأهل السوق الذين يكونون بهذه الصفة المذمومة ، من الصخب ، واللغط ، والزيادة فى المدح لما يتبايعونه ، والأيمان الكاذبة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (شر البقاع الأسواق) أى لما يغلب على أهلها من هذه الأحوال المذمومة .

(ولا يدفع بالسيئة السيئة)
هو كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾
(ولكن يعفو ويغفر)
أى ما لم تنتهك حرمات الله تعالى
(ولن يقبضه الله) :
أى لن يميته الله
(حتى يقيم به الملة العوجاء)

أى ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فإنها قد اعوجت فى أيام الفترة ، فزيدت ونقصت ، وغيرت من استقامتها ، وأميلت بعد

قوامها ، ومازلت كذلك حتى قام الرسول ﷺ ، فأقامها بنفى ما كان عليه العرب من الشرك وإثبات التوحيد بأن يقولوا (لا إله إلا الله ، فيفتح بها) أى بكلمة التوحيد (أعينا عميا) أى يقيم الله بواسطته ﷺ — الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بواسطة هذه الكلمة أعينا عميا عن الحق (وآذانا صما ، وقلوبا غلفا)

(صُمًّا)

بضم الصاد وتشديد الميم جمع صماء ، صفة — آذانا — و(غُلْفًا)

بضم الغين وسكون اللام جمع أَغْلَف ، صفة — قلوب .

والأغلف كل شيء كان فى غلاف ، يقال : سيف أغلف ، إذا كان فى غلاف . قاله البخارى وقال — قوس غلفاء — إذا كانت فى غلاف كالجعبة ونحوها ، وكذا رجل أغلف — إذا لم يكن مختونا .

وقال القسطلانى — رحمه الله .

ولا منافاة بين الحديث ، وبين قوله تعالى : ﴿ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ﴾ ؛ لأن المنفى عنه — ﷺ — الاستقلال بذلك ، وأما أنه ﷺ سبب فى ذلك ، فقد ثبت له ﷺ الهداية بهذا المعنى فى القرآن الكريم ، فقال الله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ . والله أعلم .

٦٦ – جزاءُ الصَّبْرِ على فَقْدِ العَيْنَيْنِ :

عن أنسِ بنِ مالكٍ ـــ رضىَ اللهُ عنهُ ـــ قالَ سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ ـــ يقولُ : « إن اللهَ تعالَى قالَ : إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِى بِحَبيبَتَيْهِ فصَبَرَ ، عَوَّضْتُه مِنْهُمَا الجَنَّة ـــ يُرِيدُ عَيْنَيْهِ » ..

رواه البخارى

(إذا ابتليت عبدى)

المؤمن

(بحبيبتيه)

بالتثنية أى محبوبتيه ، إذ هما أحب أعضاء الإنسان إليه ، لما يحصل له بفقدهما من الأسف الشديد ، على فوات رؤيته من خير فيسر به ، أو شر فيجتنبه .

(فصبر)

لتذكره ما وعد الله به الصابرين من الثواب .

(عوضته منهما الجنة)

وهى أعظم العوض ؛ لأن الالتذاذ بالبصر يفنى بالموت مع أن الالتذاذ بالجنة باق لا يفنى .

وفى حديث أبى امامه فى الأدب للبخارى :

(إذا أخذت كريمتيك ، فصبرت عند الصدمة الأولى واحتسبت) قال فى الفتح :

فأفاد أن الصبر النافع هو ما يكون فى أول وقوع البلاء فيفوض ويسلم ، فلو ضجر فى أول وهلة ، ثم يئس فصبر ، لا يحصل له الغرض المقصود . والله أعلم .

وفى الحديث الصحيح : (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) .

والأجر على المصيبة متوقف على الصبر عليها ، والرضا بقضاء الله والتسليم لأمر الله تعالى وعدم الجزع للبلاء .

وأما من لم يقابل البلاء بالرضا ، ولا يكون مستسلما للقضاء ، فلا أجر له ولا جزاء ولا ثواب ، بل يكون جزعه مصيبة يعاقب عليها ، والإيمان الصحيح : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره) . اللهم ارزقنا الإيمان الخالص ، والعطف بنا فى قضائك وقدرك ، واكفنا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن .

٦٧ – ما جاءَ فى استخراجِ النَّذْرِ من البَخِيلِ :

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ــ رضىَ اللهُ عنهما ــ قالَ : نهَى النبىُّ ــ ﷺ ــ عن النَّذْرِ ، وقال : « إنه لا يَرُدُّ شيئًا ، وإنما يُسْتَخْرَجُ بِهِ من البخيلِ » ..

وأَخْرَجَ البُخَارِىُّ أيضاً : عن أبى هريرةَ رضىَ اللهُ عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « لا يَأْتِى ابنَ آدمَ النَّذْرُ بشىءٍ ، لم يَكُنْ قَدْ قَدَّرْتُه ، ولكن يُلْقِيه إلى القدر ، وقَدْ قَدَّرْتُه لَه ، أَسْتَخْرِجُ بِهِ ، من البَخيلِ » ..

رواه البخارى

الحديث الأول ليس فيه دليل ولا إشارة إلى أنه حديث قدسى ، بل هو حديث نبوى ، وهذا الحديث أخرجه مسلم أيضا ، وأبو داود والنسائى فى النذور ، وابن ماجه فى الكفارات ، والنهى عن النذر فى الحديث للتنزيه ، لا للتحريم .

والمعنى : لا تنذروا على أنكم تقصدون أن تصرفوا به ما قدره الله عليكم ، أو على أنكم تدركون به شيئا لم يقدره الله لكم .

وقوله : (وإنما يستخرج به من البخيل) :

أى يستخرج بالنذر من الشخص البخيل فكأنه لا يتصدق إلا بعوض يستوفيه أولا ــ والنذر قد يوافق القدر الذى قدره الله

للعبد ـــ فيتصدق البخيل ، ويخرج ما لولاه لم يكن يريد أن يخرجه .

وفى قوله (يستخرج به) ..
دلالة على وجوب الوفاء .

والمنهى عن النذر الذى يعتقد فيه أنه يغنى عن القدر بنفسه كما زعموا ، وكم من جماعة يعتقدون ذلك لما شاهدوه فى غالب الأحوال من حصول المطالب بالنذر .

وأما إذا نذر واعتقد أن الله تعالى هو الضار وهو النافع وأن ما قدره فهو لابد واقع ـــ وأن النذر كالوسيلة والذريعة لقضاء الحوائج فلا يكون حينئذ منهيًا عنه ، بل هو طاعة يجب الوفاء به .

وأما الحديث الثانى فالظاهر منه أنه حديث قدسى ، لقوله فيه (لا يأتى ابن آدم النذر بشىء لم يكن قد قدرته) .. ثم قال : (أستخرج به من البخيل) فإن الأفعال فيه مسندة إلى من يقدر ـــ ومن يستخرج ـــ وليس هناك من يفعل ذلك إلا الله تعالى .

٦٨ - حديثُ موسى مَعَ الخَضِرِ عليهمَا السَّلامُ :

عن عمرو بنِ دينارٍ ، قال : أخْبَرَنى سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، قالَ : قلتُ لابنِ عَبَّاسٍ ــ رَضِىَ اللهُ عنهُمَا : إنَّ نَوْفًا البِكَالِى يزعم أن موسَى صاحبَ الخِضْرِ ليسَ هو صاحبَ بَنى اسرائيلَ وإنما هُوَ مُوسَى آخرُ ، فقال : كَذَبَ عدوُّ اللهِ ــ حدثنا أُبىُّ بنُ كعبٍ عن النبىِّ ــ ﷺ ــ « أَنَّ موسَى قَامَ خطيباً فى بنى إسرائيلَ ، فسُئِلَ أىُّ الناسِ أعلمُ ؟ فقال أنا ، فعَتَبَ اللهُ عليهِ إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إليه ، فقالَ لَهُ : بَلَى لِى عبدٌ بمَجْمَعِ البَحْرَينِ ، هو أعلَمُ منكَ ، قالَ : أىْ رَبِّ ، ومَنْ لِى بِهِ ؟ ــ وَرُبَّما قالَ سُفْيانُ : أىْ رَبِّ ، وكيفَ لِى به ؟ ــ قال : تأخذُ حوتًا فتجعلُهُ فى مِكْتَلٍ ، حيثُما فقَدتَ الحوتَ ، فهو ثَمَّ ــ ورُبَّمَا قالَ : فهو ثَمَّهْ ــ وأخذ حوتا فى مِكْتَلٍ ، ثم انطلق هو وفتاه ، يوشَعُ بنُ نونٍ ــ حتىَّ إذا أتَيَا الصخرَة ، وَضَعَا رءوسَهُمَا .. الحديث بطُولِهِ » ..

رواه البخارى

(قلت لابن عباس : إن نَوْفًا) :

بفتح النون وسكون الواو وتنوين الفاء ، ابن فَضَالة ، بفتح الفاء والضاد ، أبا يزيد القاضى (البكالى) بكسر الباء وتخفيف اللام والكاف على الصواب ونقل عن المهلب والصدفى وابن الحسن بن سراج نسبة الى بكال من حمير : وضبطه أكثر المحدثين فيما قاله عياض البكالى بفتح الباء وتشديد الكاف — قال — وكذا قيدناه عن أبى بحر وابن أبى جعفر عن العذرى قاله أبو ذر : نسبه إلى بكال بن دعمى (يزعم أن موسى صاحب الخضر ، الذى قص الله عنهما فى سورة الكهف ليس هو موسى بنى إسرائيل إنما هو موسى آخر) يسمى موسى بن ميشا بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب . وموسى الثانى منون للفرق .

(فقال ابن عباس : كذب عدو الله نوف فيما زعم) ، قاله مبالغة فى الإنكار والزجر وكان فى شدة غضبه لأنه اعتقد ذلك . ثم قال :

(حدثنا أبى بن كعب عن النبى ﷺ أن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟) أى منهم (فقال بحسب اعتقاده) (أنا) أى أعلم الناس .

(فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه) ..

فيقول الله أعلم ونحوه .

فقال الله له : (بلى ، لى عبد) هو الخضر ..

(بمجمع البحرين) ..
ملتقى بحر فارس والروم مما يلى الشرق ..
(هو أعلم منك) ..
أى بشىء مخصوص ..
قال موسى : (أى رب ومن لى به) ؟
أى ومن يتكفل لى برؤيته ؟ ..
(وربما قال سفيان) بن عيينة (أى رب ، وكيف لى به ؟) أى كيف يتهيأ لى أن أظفر به ؟ .
قال تعالى : (تأخذ حوتا) مملوحا ..
فتجعله فى مِكْتَل) ..
بكسر الميم وسكون الكاف ، وفتح التاء ، زنبيل .
(حيثما فقدت الحوت) ..
بفتح القاف ..
(فهو) أى الخضر ..
(ثَمَّ) بفتح المثلثة وتشديد الميم ..
(وربما قال : فهو ثمهْ) ..
بزيادة هاء السكت الساكنة أى هناك ..

(وأخذ) بالواو أى موسى (حوتا) مملوحا (فجعله فى مكتل) كما أمر (ثم انطّلق هو وفتاه ــ يوشع بن نون) ونون كنوح مصروف
(حتى أتيا) ..

ولأبى ذر (حتى إذا أتيا الصخرة) عند ساحل مجمع البحرين — ويقال : هناك عين تسمى بعين الحياة ..

(وضعا رءوسهما) .. (بقية الحديث من البخارى) ..

(فرقد موسى ، واضطرب الحوت) ..

أى تحرك ؛ لأن الحياة حلت فيه بإذن الله ..

(فخرج) من المكتل ..

(فسقط فى البحر ، فاتخذ سبيله فى البحر سَرَباً ، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء) فصار عليه مثل الطاق .

(فقال : هكذا مثل الطاق) ..

أى مثل عقد البناء ، معجزة لموسى والخضر عليهما السلام فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما ، حتى إذا كان الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ ..

(ولم يجد موسى التعب حتى جاوز حيث أمره الله ، فقال لفتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت ﴾

أى نسيت أن أخبرك بحياته ، وانتصاب الماء مثل الطاق .

﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾

لما بهر العقل من عظيم القدرة ..

(واتخذ) أى الحوت (سبيله فى البحر) سبيلا (عجبا) وهو كونه كالسرب (فكان للحوت مسلكا (سرباً) (ولهما) أى لموسى وفتاه (عجبا) فإنه جمد الماء .

قال له موسى : ﴿ ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا ﴾

أى رجعا يقصان الطريق الذى جاءا فيه ..

(يقصان آثارهما قصصا) أى يتبعان آثار مسيرهما اتباعا .

(حتى إذا انتهيا الى الصخرة) فذهبا يلتمسان الخضر .

(فإذا رجل نائم مسجى بثوب) أى مغطى به كله ..

(فسلم موسى ، فرد عليه) الخضر ..

(فقال : وأنى بأرضك السلام ؟ وفى رواية : وهل بأرضى من سلام ؟ قال الخضر) ..

(قال : أنا موسى قال) الخضر (موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم) ..

(آتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا) ولم يرد أن يعلمه شيئا من أمر الدين ؛ لأن الأنبياء لا يجهلون ما يتعلق بدينهم الذى تعبدت به أمتهم .

(قال : ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه) ..

أى لا أعلم جميعه ، وأنت لا تعلم جميع ما عندى ..

﴿ قال موسى : هل أتبعك ؟ ﴾ قال : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾

لأن موسى عليه السلام لا يصبر على ترك الإنكار إذا رأى ما يخالف الشرع .

﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ ﴾ .

أى وكيف تصبر وأنت نبى على ما أفعله من أمور ظواهرها مناكير ، وبواطنها لم تحط بها خبرا .. إلى قوله ﴿ ولا أعصى لك أمراً ﴾ ..

﴿ فانطلقا ﴾ موسى والخضر ..

(يمشيان على ساحل البحر) ومعهما يوشع .

(فمرت بهما سفينة كلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه) أى وموسى وفتاه ..

(بغير نول) بفتح النون أى بغير أجرة ..

(فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين ، قال له الخضر : ياموسى ، ما نقص علمى وعلمك من علم الله) أى من معلومه (إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر) ..

ولفظ النقص ليس على ظاهره ، وإنما معناه أن علمى وعلمك بالنسبة إلى علم الله تعالى كنسبة ما نقره هذا العصفور من ماء البحر ، فهو على التقريب إلى الأفهام ..

(إذ أخذ الخضر الفأس) بالهمزة (فنزع لوحا) من ألواح السفينة ..

فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع الخضر (لوحا) من السفينة (بالقَدُّوم) بفتح القاف وتشديد الدال .

(فقال له موسى) منكرا (‹ما صنعت ؟) هؤلاء (قوم حملونا) فى سفينتهم (بغير نول عمدت) بفتح الميم إلى سفينتهم ، فخرقتها لتغرق أهلها فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضى إلى غرق أهلها .

﴿ لقد جئت شيئا إمراً ﴾ أى عظيما ..

(قال) الخضر مذكرا لموسى لما سبق من الشرط :

﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ استفهام على سبيل الإنكار .

(قال) موسى للخضر ..

﴿ لا تؤاخذنى بما نسيـر ﴾ يعنى وصيته ، وهو اعتذار بالنسيان ـــ أو أراد بالنسيان الترك ، أو لا تؤاخذنى بما تركت .

﴿ ولا ترهقنى ﴾ أى تغشنى ..

﴿ من أمرى عسرا ﴾ ، فكانت الأولى من موسى نسيانا ..

فلما خرجا من البحر مرا بغلام يلعب مع الصبيان ، فأخذ الخضر برأسه ، فقلعه بيده هكذا ـــ وأومأ سفيان بأطراف أصابعه كأنه يقطف شيئا (فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ﴾ واستضافوهم ﴿ فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ مائلا ، أومأ الخضر

بيده هكذا ، وأشار سفيان كأنه يمسح شيئا إلى فوق) ..

(قوم أتيناهم) فاستطعمناهم واستضفناهم ..
(فلم يطعمونا ولم يضيفونا عمدت إلى حائطهم) المائل فأقمته
﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ أى جعلا ..
(قال) الخضر : ﴿ هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا ﴾ لكونه منكرا بحسب ظاهره (قال النبى ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما ـــ قال سفيان : قال النبى ﷺ : يرحم الله موسى لو كان صبر لقص الله علينا من أمرهما) .

وفى التفسير ، من طريق الحميد عن سفيان : (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما) والله أعلم .

٦٩ – جزاءُ الانتحارِ النارُ :

حدثَنا محمَّدٌ ، حدثنا حَجّاجٌ ، حدثنا جَريرٌ ، عن الحسنِ ، حدَّثنا جُنْدُبُ بنُ عبدِ اللهِ فى هذا المسجدِ وما نَسِينَا مُنْذُ حَدَّثَنَا وما نَخشَى أن يكونَ جُندُبُ كَذَبَ على رسولِ اللهِ ــ ﷺ ــ : كان فيمَنْ كانَ قَبْلَكُم رجلٌ ، به جُرْحٌ ، فَجَزِعَ ، فأخَذَ سِكِّينًا ، فحَزَّ بِهَا يَدَهُ ، فما رَقأَ الدَّمُ ، حتىَّ مَاتَ ، قال اللهُ تعالى : (بَادَرَنِى عَبْدِى بِنَفْسِه ، حَرَّمْتُ عليه الجَنَّةَ) .

رواه البخارى

(كان فيمن كان قبلكم) أى من بنى إسرائيل أو من غيرهم والأول هو الظاهر ..

(رجل به جُرح) بضم الجيم وسكون الراء ..

(فجَزِع) بفتح الجيم وكسر الزاى أى لم يصبر على ألمه ..

(فأخذ سكينا فحز بها يده) أى قطع يده بها من غير إبانة .

(فما رقأ الدم) أى لم ينقطع ..

(حتى مات) لفراغ الدم من بدنه بهذا الجرح .

(قال الله تعالى : بادرنى عبدى بنفسه) ..

أى استعجل الموت لنفسه بنفسه ..

(حرمت عليه الجنة) ..

أى أنه استحل ذلك ، فكفر ، فيكون مخلدا فى النار بكفره ، لا بقتل نفسه ، أو كان كافرا فى الأصل ، وعوقب فهذه المصيبة زيادة على كفره ..

واستشكل قوله (بادرنى بنفسه) إذ مقتضاه أن من قتل فقد مات قبل أجله ، مع أنه لا يموت أحد بسبب من الأسباب إلا بانقضاء أجله ، وقد علم الله أنه يموت بالسبب المذكور ، وما علم الله لا يتغير .

وأجيب بأنه لما وجدت منه صورة المبادرة بقصده واختياره ولم يطلعه الله على علمه فاختار هو قتل نفسه فكأنه قد بادر فاستحق المعاقبة لعصيانه .

والحديث أصل كبير فى تعظيم قتل النفس : سواء كان قتل نفسه أم قتل غيره ، لأن نفسه ليست ملكا له . بل هى ملك لله تعالى . والله أعلم .

٧٠ – لا غِنَى لأَحَدٍ عن فضلِ اللهِ :

عن أبى هريرةَ – رضى اللهُ عنه – عن النبىِّ – ﷺ – قال : « بينَا أيوبُ يغتسلُ عُرْيَاناً ، فخَرَّ عليه جَرَادٌ من ذهبٍ ، جعلَ أيوبٌ يَحْتَثِى فى ثَوْبِهِ ، فناداه ربُّهُ : ألم أكُنْ أغْنَيْتُك عَمَّا ترى ؟ قال بَلَىَ ، وعِزَّتِكَ ، ولكن لا غِنَى بى عَنْ بَرَكَتِكَ » .

رواه البخارى

(فخر عليه جراد من ذهب) ..

قال القسطلانى رحمه الله – وهل كان جراداً حقيقة ذا روح ، إلا أنه كان من ذهب – أو على شكل الجراد وليس فيه روح ؟

قال فى شرح التقريب : الأظهر الثانى . والله أعلم ..

وقوله : (يحتسى فى ثوبه) ..

أى يأخذ بيديه ، ويرمى فى ثوبه ..

وقوله : (فناداه ربه) ..

أى كلمه ربه كما كلم موسى عليهما السلام ، أو كان ذلك بواسطة ملك من الملائكة ..

(بلى وعزتك) أى أنت أغنيتنى ..

(ولكن لا غنى بى عن بركتك) ..

وفى رواية — لى — عن بركتك ، أى خيرك . وغنى — بكسر الغين والقصر من غير تنوين — قال ورويناه بالتنوين ..

ثم قال القسطلانى — رحمه الله — ومحال أن يكون أيوب — صلوات الله وسلامه عليه — أخذ هذا المال حبا للدنيا ، وإنما أخذه كما أخبر هو عن نفسه ، لأنه بركة من ربه ، حيث إنه قريب العهد بتكوين الله عز وجل ، أو أنه نعمة جديدة خارقة للعادة — فينبغى تلقيها بالقبول ، ففى ذلك شكر لها . وتعظيم لشأنها ، وفى الإعراض عنها كفر بها ورد لنعمة الله .

وفى الحديث جواز الاغتسال عريانا ؛ لأن الله تعالى لم يعاتبه على الاغتسال عريانا حيث لا يراه أحد . وإنما عاتبه على جمع الجراد .

أقول : وقد ورد أن موسى كان يغتسل عريانا فذهب الحجر بثوبه ، فضربه وقال : ثوبى حجر متين .

٧١ – بشارةُ أمِّ المؤمنينَ خديجةَ ببَيتٍ فى الجَنَّةِ :

عن أبى هريرة – رضىَ اللهُ عنهُ – قالَ : أتَى جبريلُ – عليه السلامُ – النبىّ – ﷺ – فقال : « يا رسولَ الله ، هذه خديجةُ قد أتتْ معها إناءٌ ، فيه إدامٌ – أو طَعَامٌ – أو شَرَابٌ فإذَا هى أتَتْكَ ، فاقْرَأْ عَليْها السلامَ من رَبِّها ومِنِّى وبَشِّرْها ببيتٍ فى الجَنةِ من قَصَبٍ ، لا صخَبَ فيه ولا نَصَبَ » .

رواه البخارى

(أتى جبريل عليه السلام النبى ﷺ) ..

وعند الطبرانى فى رواية سعيد بن كثير ، أن ذلك كان وهو بحراء .

(فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت) أى إليك ..

(معها إناء ، فيه إدام) بكسر الهمزة ..

(أو طعام) فى رواية الطبرانى المذكورة أنه كان حَيْساً ..

(والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديدا وربما جعل فيه سويق)

(أو قال : شراب) والشك من الراوى ..

(فإذا أتتك فاقرأ) بهمزة وصل وفتح الراء ..

(عليها السلام من ربها) جل وعلا (ومنى) ــ وهذا خاصة لم تكن لسواها ..

زاد الطبرانى فى روايته المذكورة (فقالت : هو السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام) ..

وزاد النسائى من حديث أنس : (وعليك يارسول الله السلام ورحمة الله وبركاته) ..

فجعلت مكان رد السلام على الله الثناء عليه تعالى ، ثم غايرت بين ما يليق بالله تعالى وبين ما يليق بغيره ، وهذا يدل على وفور فقهها ، كما لا يخفى ..

(وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب) أى ليكون منزلها الذى بشرها به ربها مناسبا بالصفة المقابلة لفعلها وصورة حالها ــ رضى الله عنها .

ومن خواصها ــ رضى الله عنها ــ أنه لم تسؤه قط ، ولم تغاضبه أبدا ..

قال القسطلانى ــ رحمه الله ــ وهذا الحديث من المراسيل (أى مراسيل الصحابة) لأن أبا هريرة رضى الله عنه ــ لم يدرك خديجة وأيامها ..

٧٢ – حديث الشفاعةِ :

عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ – أن النبيَّ ﷺ . قال : « يُحْبَسُ المؤمنونَ يومَ القيامةِ حتى يَهتَمُّوا بذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى رَبِّنَا فيُريحُنَا من مكانِنَا ، فيأتون آدمَ فيقولونَ : أنتَ آدمُ ، أبو الناسِ ، خلقكَ اللهُ بيدِه ، وأسكنَك جنَّتَهُ ، وأسْجَدَ لكَ ملائِكَتَهُ وعلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شَيءٍ لتَشْفَعَ لنا عِنْدَ رَبِّكَ حتى يُريحَنَا مِن مكانِنَا هذَا ، قالَ : فيقولُ : لستُ هُناكُمْ ، قال ويذكرُ خطيئتَه التى أصابَ : أكْلَه من الشجرةِ ، وقد نُهِى عَنْهَا ، ولَكِنْ آئْتُوا نوحًا ، أولَ نَبِيّ بعثَه اللهُ إلى أهلِ الأرضِ ، فيأتون نوحًا ، فيقولُ : لستُ هُنَاكُمْ ، ويذكرُ خطيئتَه التى أصابَ : سُؤالَه ربَّه بِغيرِ عِلْمٍ ، ولكِنْ آئْتوا خليلَ الرحمنِ ، قال فيأتون ابراهيمَ فيقولُ : إنِى لستُ هُنَاكُمْ ، ويذكرُ ثلاثَ كَلِمَاتٍ كَذَبَهُنَّ ، ولكن ائْتُوا موسَى عبدًا آتاه اللهُ التوراةَ ، وكلَّمهُ وقَرَّبَهُ نَجِيًّا ، قال فيأتون موسَى ، فيقولُ : إنِى لست هُناكُمْ ، ويذكرُ خطيئتَه التى أصابَ : قتْلَهُ النَّفْسَ ، ولكن ائتوا عيسَى ، عبدَ اللهِ ورسولَهُ ، وروحَ اللهِ

وكَلِمَتَهُ ، قال فيأتونَ عيسَى ، فيقولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ ، ولكن ائتوا مُحَمَّدًا ــ ﷺ ــ عبدًا غفَر اللهُ لهُ ما تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ ، فيأتونَنِي ، فأَسْتَأْذِنُ علَى رَبِّي في دَارِهِ ، فيؤْذَنُ لِي علَيْهِ ، فإذَا رأيتُهُ وقعتُ سَاجِدًا ، فَيَدَعُنِي ما شاءَ اللهُ أن يدَعَنِي ، فيقولُ : آرفَعْ مُحَمَّدُ ، وقُلْ يُسْمَعْ ، واشفَعْ تُشَفَّعْ ، وسَلْ تُعْطَ ، قال فأَرْفَعُ رأسِي ، فأُثْنِي على ربِّي بثَناءٍ وتحميدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ، ثم أَشْفَعُ فَيحدُّ لى حَدًّا ، فأَخْرجُ فأُدْخِلُهمْ الجَنَّةَ ، قال قَتادةُ : وسمعتُه أيضًا يقول : فأَخْرُجُ فأُخْرِجُهُمْ من النَّارِ ، وأُدْخِلُهُمُ الجَنةَ ، ثم أعودُ فأستأْذِنُ على ربِّي في دارِه ، فيؤْذَنُ لِي عليه ، فاذا رأيتُهُ وقعتُ ساجدًا فيدَعُنِي ما شاءَ اللهُ أن يدَعَني ثم يقول : ارفَعْ مُحَمَّدُ ، وقُلْ يُسْمَعْ ، وآشفَعْ تُشَفَّعْ ، وسَلْ تُعْطَ ، قال : فأرفعُ رأسِي ، فأُثْنِي على ربِّي بثناءٍ وتحميدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ، قال ثُمَّ أَشْفَعُ ، فيحدُّ لِي حَدّاً ، فأخرجُ فأُدْخِلُهُم الجَنَّةَ ، قال قتادةُ : وسمعتُه يقولُ : فأخرجُ فأُخرجُهُم من النار وأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ، ثم أعودُ الثالثةَ ، فأستأْذنُ على ربِّي في دارِه ، فيؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ ، فإذا رأيتُه وقعتُ ساجداً فيدَعُنِي ما شاءَ اللهُ أن

يدَعَني ؛ ثُمَّ يقول : ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، وقُلْ يُسْمَعْ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ ، وسَلْ تُعْطَهْ ، قال : فأرفعُ رأسي ، فأُثْني علَى رَبِّي بثناءٍ وتحميدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ، قال : ثُمَّ أشْفَعُ فيحدُّ لِي حَدًّا فأخرُجُ فأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ، قال قتادةُ ، وقد سَمِعْتُه يقولُ : فأَخرُجُ فأُخْرِجُهُمْ من النارِ وأُدْخِلُهُم الجَنَّةَ حَتَّى ما بَقِيَ في النَّارِ إلا مَنْ حَبَسَهُ القرآنُ أي وَجَبَ عَلَيْهِ الخلودُ — قالَ ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا ﴾ قال : وهذا المقامُ المَحمُودُ الذى وُعِدَه نَبِيُّكُم » — ﷺ .

رواه البخارى

قوله (يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهْتموا بذلك) ..
أى حتى يحزنوا بذلك الحبس فيقولون .. الخ ..
وقوله (أكله من الشجرة) ..
بدل من خطيئة أو بيان لها (وقد نهى عنها) أى والحال أنه قد نهى عنها أى عن الأكل منها بقوله تعالى :
﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾

وقوله فى نوح عليه السلام : (ويذكر خطيئته التى أصاب : سؤاله ربه .. الخ ..) بيان لخطيئته قوله : ﴿ رب إن ابنى من أهلى ﴾ وكذا ما يأتى بعده فى خليل الله ابراهيم عليه السلام فى قوله :

(ويذكر ثلاث كذبات) إحداها قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ والثانية : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ والثالثة فى شأن سارة (هى اختى) .
وهذه فى الحقيقة ليست كذبا بل هى معاريض، وإن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب . لكن لما كانت صورتها صورة الكذب أشفق على نفسه منها ، وكلما كان العبد أعرف بربه كان أشد خوفا له من غيره .

وقوله : (فاستأذن على ربى فى داره) ..

أى فى جنته التى اتخذها داراً لأوليائه وأضافها إليه تشريفاً .
أى فهو كقولك فى المسجد : هذا بيت الله ، ويقال فى الكعبة : بيت الله . وذلك كله لتشريفها وللتنويه بمكانة من يعظمها ويطهرها وقد قال تعالى : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ ..

قوله (قال قتادة : وقد سمعته أيضا يقول ـــ الخ ..) المعنى أن قتادة روى عن أنس قول النبى ﷺ : (فأخرج ـــ أى من داره ـــ فأدخلهم الجنة) كما أنه روى أيضا عن أنس زيادة هى قوله : (فأخرج ، فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة) .

ثم الاستئذان الذى يكون منه ﷺ : هو استئذانه ربه فى الشفاعة ، لقوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ولذلك كان ﷺ بعد أن يؤذن له يقدم بين يدى شفاعته السجود لله ثم الثناء عليه ، ثم التحميد له تعالى ، مقدمة للشفاعة .

وقوله (فيؤذن لى عليه) أي يؤذن لى فى التقدم الى الشفاعة ، كما قال تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال:﴿وكم من ملك فى السموات والأرض لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾.

وقوله (إلا من حبسه القرآن) ..

أى من وجب عليه الخلود فى النار وهم الكفار الذين قال فيهم ﴿خالدين فيها أبدا﴾ وأنهم ليسوا أهلا للمغفرة . لقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾. فليس هناك من يجرؤ على الإقدام للشفاعة لهؤلاء الكفرة ؛ لأنهم لا شفيع لهم قال تعالى : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ على معنى نفى الشفاعة لهم أصلا — على أنه لو فرض المستحيل وجاء من يشفع لهم ، فما تنفعهم شفاعتهم ؛ لأنها غير مقبولة ، حيث كانت دون إذن ، كما قال تعالى:﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ .

قوله : (ثم تلا الآية) ..

الظاهر أن الذى تلا الآية هو النبى ﷺ — ثم قال النبى ﷺ بعد تلاوة الآية (وهذا المقام المحمود) أى هو المقام المحمود (الذى وعده نبيكم ﷺ) أى الذى وعده الله نبيكم فى قوله : ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ والظاهر أن

الإشارة لما تقدم من الشفاعات التى منها ــ بل أعظمها الشفاعة للناس فى فصل القضاء ، ليريحهم من كرب الموقف وطوله ..

اللهم إنا نسألك أن تشفع فينا نبينا محمدا ﷺ آمين . والحمد لله رب العالمين .

٧٣ – الجنةُ محرَّمةٌ على الكافرين ولا تنْفَعُهم قرابةٌ :

عن أبي هريرةَ رضى الله عنه – عن النبيِّ ﷺ – قال : « يَلْقَى ابراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامة ، وعلى وجهِ آزرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تَعْصِنِى ؟ فيقول أبوه : فاليومَ لا أَعصيك ، فيقولُ إبراهيمُ : ياربِّ إنك وعدتَنِي ألا تُخْزِيَنِى يومَ يُبعَثُون ، وأىُّ خِزْيٍ أَخْزَى من أبِى الأبْعَدِ ؟ فيقولُ اللهُ تعالى : إنى حرَّمتُ الجَنَّةَ على الكافرينَ ، ثم يُقَالُ : يا ابراهيمُ ، ما تحتَ رِجْلَيْكَ ؟ فينظرُ ، فإذا هو بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فيُؤْخَذُ بقوائِمِه فيُلْقَى فى النارِ » .

رواه البخارى

يلقى ابراهيم عليه السلام أباه آذر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة – أى سواد كالدخان وغبرة أى غبار – فيقول له ابراهيم عليه السلام : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا۝يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا۝ ﴾ .

فيقول أبوه : (فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم عليه السلام –

يارب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون) أى فإنه دعا بذلك ولم يكن بدعاء ربه شقيا ، فهو كان يرجو الإجابة .

قال (وأى خزى أخزى من أبى الأبعد) أى من رحمة الله . فالفاسق بعيد من رحمة الله والكافر أبعد منه قال تعالى « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

فيقول الله تعالى (انى حرمت الجنة على الكافرين) أى وإن أباك كافر ؛ فالجنة حرام عليه .

(ثم يقال يا ابراهيم ما تحت رجليك ؟) على الاستفهام ، ليلتفت عن النظر لآزر (فاذا هو بذيخ) بكسر الذال وسكون الياء ، آخره خاء معجمة : ضبع كثير الشعر (ملتطخ) أى بالدم أو بالرجيع الذى يخرج منه (فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار) .

وعند ابن المنذر : (فإذا رآه كذلك تبرأ منه وقال : لست أبى) والحكمة فى مسخه ضبعاً دون غيره من الحيوانات : أن الضبع أحمق الحيوان ، ومن حمقه أن يغفل عما يجب التيقظ له . فلما لم يقبل آزر النصيحة من أشفق الناس إليه ــ شبه به ــ والحديث دليل على أن شرف الولد لا ينفع الوالد إذا لم يكن مسلما ــ وكذا العكس . كنوح عليه السلام مع ابنه والله أعلم .

٧٤ - الإنسانُ يَحِنُّ إلى ما كان عليه ولو كان غنيًّا :

عن أبى هريرةَ - رضى اللهُ عنه - أن النبىَّ - ﷺ - كان يومًا يُحَدِّثُ وعنده رجلٌ من أهلِ الباديةِ - « أن رجلاً من أهلِ الجَنَّةِ ، استأذنَ ربَّه فى الزرعِ ، فقالَ : أوَ لَسْتَ فيما شئتَ ؟ قال : بلى ، ولكنى أُحِبُّ أنْ أَزْرَعَ - فأَسْرَعَ وبَذَرَ ، فبادر الطرفَ نباتُه واستواؤُه ، واستحصادُهُ وتكويرهُ أمثالَ الجبالِ ، فيقول اللهُ تعالى : دونك يا ابنَ آدمَ ، فإنه لا يُشبِعُك شىءٌ . فقال الأعرابى : يارسولَ اللهِ ، لا تجدُ هذا إلا قرشيًّا أو أنصارياً ، فإنهم أصحابُ زَرْعٍ ، فأَمّا نحنُ فلَسْنا أصحابَ زرعٍ ، فضحك رسولُ اللهِ ﷺ » .

رواه البخارى

(أن النبى ﷺ) ولأبى ذر (أن رسول الله ﷺ كان يوما يحدث أصحابه - وعنده رجل من أهل البادية : أن رجلا من أهل الجنة) بفتح الهمزة فى - أن - لأنه فى موضع المفعول (استأذن ربه) أى يستأذن - وصيغة الماضى للتحقيق .

ولأبى ذر عن الحموى : (يستأذن ربه فى الزرع ، فقال) أى ربه له : أو لست ؟ كائنا (فيما شئت) من المشتهيات ؟ (قال : بلى ،

ولكنى) ولأبى ذر عن الكشميهنى : ولكن أحب أن أزرع أى فأذن له . (فأسرع وبذر ، فبادر الطرف نباته) أى أسرع كطرف العين (نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره) أى جمعه فى البيدر .

(أمثال الجبال) كل ذلك كان قبل طرف العين (فيقول الله تعالى) له : (دونك) خذه (يا ابن آدم فانه لا يشبعك شيء) لما فى طبعه أنه لا يزال يطلب المزيد ، أو لا يقنع بما عنده (فقال الأعرابى : يارسول الله لا تجد هذا) الذى زرع (إلا قرشيا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع) أى يحبون الزرع (فأما نحن) أهل البادية فلسنا أصحاب زرع ، فضحك ﷺ ، والحديث دليل على أن الإنسان يحن إلى ما كان عليه ولو كان غنيا . والله أعلم .

٧٥ – رحمةُ اللهِ وسعت كلَّ شيءٍ :

عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه . سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « كان رجلان من بني إسرائيلَ مُتَواخيين ، فكان أحدُهما يُذْنِبُ والآخر مجتهدٌ في العبادةِ ، فكان لا يزالُ المجتهدُ يرى الآخر على الذَّنبِ ، فيقولُ له : أَقصِرْ . فقال : خلِّني وربِّي ، أبعثتَ عليَّ رقيبا ؟ فقالَ : واللهِ لا يغفرُ اللهُ لكَ ، أو لا يُدخِلُكَ اللهُ الجنةَ ، فقبضَ أرواحَهُمَا ، فاجتمعا عندَ ربِّ العالمين ، فقال : (أي اللهُ) لهذا المجتهِدِ : أكُنتَ عالمًا بي ؟ أو كُنتَ على ما في يدي قادرًا ؟ وقالَ للمُذْنبِ : اذهبْ فادْخُلِ الجنَّةَ برحمتي ، وقال للآخرِ اذهبوا به إلى النارِ .

أخرجه أبو داود

(كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين) ..

أي اتخذ كل واحد منهما الآخر — أخا له في الله تعالى يتناصحان لعمل الخير ، لذلك كان المجتهد في العبادة ينكر على الآخر الذنب ، ويقول له : أقصر ، أي كف عن فعل الذنوب وتب إلى الله تعالى .

(فقال له) أي المذنب :

(خلنى وربى) أى اتركنى وما يفعل ربى بى فإنى أعتقد أن الله تعالى غفور رحيم ، يغفر الذنوب جميعا ورحمته وسعت كل شيء .

وفيه إشارة إلى أنه كان حسن الظن بالله تعالى . راجيا منه أن يغفر له ذنوبه ، إذا تاب منها ، وندم عليها ، واستغفر ربه منها ، ولذا قال : (خلنى وربى) أى فإن ظنى بالله وبمغفرته عظيم ، ثم قال له : (أبعثت) أى أرسلت (على رقيبا) من جهة الله تعالى ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ ..

فالرقيب على العباد هو الله تعالى وحده ، وهذا منه حسن فى العقيدة . تستأهل وتستدر مغفرة الله تعالى لمن اتصف بها .

(فقال) له المجتهد فى العبادة : (والله لا يغفر الله لك) أو قال له : (والله لا يدخلك الله الجنة) وهذه الكلمة كما قال أبو هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ : هى التى أوبقت وأهلكت دنياه وآخرته .

أوبقت دنياه ، فأحبطت أعماله الصالحة التى كان يجتهد فيها ، لكفره بذلك ، قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ وأبقت آخرته ، فلم تبق لأعماله ثوابا ولا أجرا . لذلك استحق أن يقال فيه : (اذهبوا به الى النار) .

ويحتمل كما قال النووى ، أن المراد اذهبوا به إلى النار مخلدا ، إذا كان قد صدر منه ـــ ولو بقلبه ـــ ما يكون كفراً .

ويحتمل أن المراد اذهبوا به إلى النار يعذب فيها عذاب عصاة

المؤمنين تطهيرا لهم من ذنوبهم التى ارتكبوها لأن هذا قد اقترف إثما عظيما ، وهو حكمه جازما بأن الله تعالى لن يغفر لأخيه العاصى ، ولا يدخله الجنة .

والله تعالى يقول : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ ﴾ والمغفرة والعذاب الوارد الوعد والوعيد بهما تحت مشيئة الله وحده ، ليس لمخلوق أن يجزم بحصول أحدهما لمخلوق : لنفسه أو لغيره وإلا كان تحكما منه فى إرادة الله وعلى أفعاله تعالى .

فالمذنب الراجى لمغفرة الله أدخله الجنة ، والطائع الذى تألى على الله دخل النار .

نعوذ بالله تعالى من الزلل فى القول والعقيدة والعمل ـــ آمين ..

٧٦ – السعادَةُ اليَومِيَّةُ :

عن نعيم بنِ هَمَّازٍ ــ رضىَ اللهُ عَنْهُ ــ قال سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ . يقولُ : يقولُ اللهُ ــ عزَّ وجل ــ يا ابنَ آدَمَ ، لا تُعْجِزْنِى من أربعِ رَكَعاتٍ فى أولِ نهارِك ، أكْفِكَ آخرَه .

أخرجه أبو داود

(لا تعجزنى من أربع ركعات) :

أى لا تترك أربع ركعات أول النهار عجزا منك عن عبادتى . فلا تفوتك صلاة الركعات الأربع أول النهار أكفك شر آخره .

قال فى القاموس : أعجزه الشيء : فاته ، أى لا تفوت على نفسك ثواب هذه الركعات الأربع .

والحديث يستفاد منه استحباب صلاة الضحى ــ وهى سنة مؤكدة ، وأقلها عند الشافعية ركعتان ، وأفضلها ثمان ، ويجوز أن تصلى ثنتى عشرة ركعة ، وفعلها ثمانيا أفضل . ويدخل وقتها بارتفاع الشمس إلى الزوال ، وصلاتها إذا مضى ربع النهار أفضل يكون فى كل ربع من أرباع النهار صلاة . والله أعلم .

وقوله (أكفك آخره) أى يكفيه الله تعالى شر آخر النهار ، الحسية كالآفات ، أو الشرور المعنوية كحفظه من شرور المعاصى .. والله أعلم .

٧٧ – ما عندَ اللهِ خيرٌ وأبْقى :

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ــ رَضى اللهُ عنه ــ قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ ــ عَجِبَ ربُّنَا من رجلٍ غزا فى سبيلِ اللهِ فانهزَمَ ــ فَعَلِمَ ما عليهِ فرَجَعَ حتَّى أُهْرِيقَ دمُهُ ، فيقولُ اللهُ تعالىَ للملائكتِهِ : (أنظُروا إلى عبدى رَجَعَ رَغْبةً فيمَا عندى ، وشفقةً مِمَّا عِندى ، حتى أُهريقَ دَمُهُ) .

أخرجه أبو داود

(عجب ربنا من رجل غزا فى سبيل الله) ..

أصل العجب يكون من فعل عظيم خارق للعادة ، ويلزمه الرضا بهذا الفعل والسرور به ، وإطلاق العجب على الله محال ؛ لأنه لا يكون إلا ممن تتأثر نفسه استحسانا ، فيراد منه لازمه وهو الرضا بهذا الفعل ، وإعطاء الثواب العظيم والأجر الكبير على هذا العمل ، فالرجل الذى غزا فى سبيل الله تعالى ، ثم انهزم وترك المعركة فرارا من القتل فرجع ــ وباع نفسه لله تعالى ابتغاء رضاه ، وانتصارا لدينه ، وقاتل حتى قتل ــ لا يضيع الله عمله ، بل يرضى عنه ، ويجعله من الشهداء الذين قال الله فيهم :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ..

فقد رغب هذا الرجل فيما عند الله من الجزاء . وخاف من الوعيد والعذاب الذى توعد الله به الذين يفرون من الزحف ، حيث قال تعالى : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ لذلك أقبل وباع نفسه وقاتل حتى قتل . فرضى الله عنه وأرضاه . والله أعلم ..

٧٨ – أَتانِى رَبِّى فى أحسنِ صُورةٍ :

عن ابن عباسٍ – رضى الله عنهما – قال : قال رسولُ الله ﷺ : أتانى رَبِّى فى أحسنِ صُورَةٍ . أحسَبُه فى المَنَامِ ، قالَ : كَذَا فى الحديثِ ، فقالَ : يامحمدُ هل تَدْرى فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلــى؟ قال : قلتُ : لا ، قال : فوضَعَ يدَهُ بينَ كَتِفَىَّ حتىوجدتبَرْدَهَا بين ثَدْيِى ، أو قال : فى نَحْرِى فعلمتُ ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ ، قال : يامحمدُ ، هل تدرى فيمَ يَختصمُ الملأُ الأعلَى ؟ قلتُ : نَعَمْ ، قال : فى الكَفَّاراتِ ، والكَفَّارَاتُ : المُكْثُ فى المساجدِ بعدَ الصَّلَوَاتِ ، والمَشْىُ على الأَقدامِ إلى الجماعاتِ ، وإسباغُ الوُضُوءِ على المَكارِهِ ، ومَنْ فَعَلَ ذَلَكَ عاش بخيرٍ ، ومات بخيرٍ ، وكان مِن خطيئتِه ، كيومٍ وَلَدَتْه أُمُّهُ ، وقال : يامحمدُ ، إذا صليتَ فقلْ : اللّهُمَّ أسأَلُكَ فِعلَ الخيراتِ وتركَ المُنْكَراتِ ، و حُبَّ المسَاكِينِ ، وإذا أردتَ بعبادِكَ فتنةً ، فاقبِضْنِى إليكَ غيرَ مَفتونٍ ، قال ، وللدرجاتِ إفشاءُ السلامِ ، وإطعامُ الطعامِ ، والصلاةُ بالليلِ والناسِ نيامٌ .

أخرجه الترمذى

أقول : إن أول ما يجب على المؤمن أن يعتقد تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه ، قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وقال تعالى ﴿ قل هو الله أحد*الله الصمد*لم يلد ولم يولد*ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ..

واعتقاد غير ذلك مخل بالإيمان ، واتفق أئمة المسلمين قاطبة على أن ما ورد من الكتاب والسنة مما ظاهره يوهم تشبيه الله تعالى ببعض خلقه ، يجب الإيمان بأن ظاهره غير مراد ، ولا يصح وصف الله تعالى بما يفيده هذا الظاهر من حيث عمومه . بل يسمون مثل هذا بالمتشابه . ولعلماء الأمة فيه مذهبان :

مذهب السلف ومذهب الخلف فمذهب السلف : يعتقدون أن ظاهره غير مراد ، ويفوضون علمه إلى الله مع إيمانهم بأن الله تعالى منزه عن مشابهة خلقه ، ولا يعينون معنى خاصا ، لهذا التشابه ، بل عقيدتهم هي التفويض الكلي في علمه إلى الله تعالى ، أخذا بقول الله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ثم يبدءون في القراءة بقوله تعالى : ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ..

ومذهب الخلف : ــ مع اعتقادهم تنزيه المولى تعالى عن مشابهة خلقه ــ يؤولون اللفظ المشابه بمعنى ليس من المستحيل إطلاقه على الله تعالى ، مثلا يؤولون الصورة هنا المذكورة في قول النبي ﷺ : (أتاني ربي في أحسن صورة) .. وفي قوله في رواية أخرى : (فإذا

أنا بربي تبارك وتعالى فى أحسن صورة) فيقولون : الصورة مراد بها صفات الجلال والكمال التى تليق به تعالى ، وهي التى تجلى بها ربه له ﷺ ..

كما أنهم يقولون : إن وضع الكف بين كتفيه ﷺ ــ هو كناية عما أفاض ربه على قلبه ﷺ ــ من العلوم والمعارف ، لأن القلب يحاذى ذلك المكان من البدن بدليل قوله ﷺ : (حتى وجدت برد ذلك بين ثديى) والمقصود من ذلك امتلاء قلبه ﷺ بالعلوم التى تطمئن قلبه ، فإن اليقين يثلج الصدر ، ويطمئن القلب كما قال الخليل ﷺ : ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ والذى يقوى ذلك أيضا قوله ﷺ بعد ذلك : (فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض) .

وفى رواية : (فعلمت ما بين المشرق والمغرب) ــ وفى رواية : (فتجلى لى كل شىء وعرفت) وكانت نتيجة امتلاء قلبه ﷺ بالعلوم والمعارف أن أجاب عن سؤال ربه تعالى : (فى أى شىء يختصم الملأ الأعلى ؟) ..

والملأ الأعلى : هم الملائكة الكرام سكان السموات وما فوقهن من الكرسى والعرش ، والحافين بالعرش . واختصاصهم فى ذلك يحتمل وجهين :

أحدهما – أنهم يتخاصمون فى التسابق إلى كتابة ثواب هذه الأمور – أو يتخاصمون فى معرفة كنه ثوابها ، فبعضهم يزيد الآخر فى تقديره له .

الوجه الثانى ـــ يحتمل أنهم يتمنون أن يكونوا من أهل الأرض ، حتى يتمكنوا من ا لتسابق فى هذه الأعمال ، لما أنهم على يقين من جزيل ثوابها ، وحسن عاقبتها . ثم إن بعض هذه الروايات إجمالا ، يفسره بعض ما ورد فى الروايات الأخرى ، والمفهوم عموما من هذه الروايات أن الملأ الأعلى يختصمون فى شيئين : فى الكفارات وفى الدرجات أى فى الأعمال التى تكون سببا لتكفير الذنوب والخطايا ، وفى الأعمال التى تكون سببا فى رفع الدرجات ، ثم بين الكفارات بأنها : مشى الأقدام إلى الحسنات من صلاة جماعة ، أو حضور علم ، أو زيارة مريض ، أو غيرها ، والجلوس فى المساجد لانتظار الصلوات ، وإسباغ الوضوء على المكاره .

ورفع الدرجات يكون : بإطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . والله أعلم .

والمراد بإسباغ الوضوء على المكاره : هو الوضوء فى البرد وغيره ومثله جميع أنواع الطهارات ، والله أعلم .

٧٩ – أنا الملكُ ، أنا الدَّيانُ :

عنِ ابنِ أُنَيْسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ـــ قال : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : يَحْشُرُ اللهُ العبادَ ، فيُنادِيهِم بصوتٍ يسمَعُه مَنْ بَعُدَ ، كَما يسمعه من قَرُبَ : (أنا المَلِكُ ، أنا الدَّيانُ)

أخرجه البخارى

يذكر الإمام القسطلانى فى شرحه لهذا الحديث :

قوله : (فيناديهم) يقول لهم (بصوت) مخلوق غير قائم بذاته تعالى ، أو يأمر الله تعالى من ينادى ، ففيه مجاز الحذف ـــ أو مجاز الإسناد .

وقال البيهقى : ـــ رحمه الله ـــ الكلام ما ينطق به المتكلم ، وهو مستقر فى ذهنه ، ومن قول عمر رضى الله عنه ـــ فى حديث السقيفة : (وكنت هيأت فى نفسى كلاما) قبل أن يتكلم به .

فإن كان المتكلم ذا مخارج ؛ سمع كلامه ذا حروف ومخارج

أما حديث ابن أنيس فاختلف الحفاظ فى الاحتجاج بروايات ابن عقيل لسوء حفظه .

ولم يثبت لفظ الصوت فى حديث صحيح مرفوع غير حديثه فإذا ثبت رجع إلى حديث ابن مسعود يعنى أن الملائكة يسمعون عن

حصول الوحى صوتا ، فيحتمل أن يكون صوت السماء ، أو الملك الآتى بالوحى ، أو صوت أجنحة الملائكة .

وإذا احتمل ذلك لم يكن نصا فى المسألة ، . أو أن الـراوى أراد : (فينادى نداء) فعبر عنه بقوله : (بصوت) .

قال فى الفتح : وهذا يلزم منه أن الله تعالى لم يسمع أحدا من ملائكته ولا رسله كلامه ، بل ألهمهم إياه .

وحاصل الاحتجاج للنفى الرجوع إلى القياس على أصوات المخلوقين ، لأنها هى التى عهد أنها ذات مخارج ، ولا يخفى ما فيه ، إذ الصوت قد يكون من غير مخارج ، كما أن الرؤية قـد تكـون من غير اتصال أشعة كما تقرر ، سلفا ، لكن تمنع القياس المذكور ، وصفة الخالق لا تقاس على صفة المخلوقين . وإذا ثبت ذكر الصوت بهذه الأحاديث الصحيحة ، وجب الإيمان به ، ثم التفويض أو التأويل .

وقوله : « يسمعه » أى الصوت (من بعد كما يسمعه من قرب) فيه خرق العادة إذ فى سائر الأصوات التفاوت ظاهر بين القريب والبعيد .

وليعلم أن المسموع كلام الله تعالى ، كما أن موسى عليه السلام لما كلمه الله كان يسمعه من جميع الجهات . هذا ما قاله القسطلانى .

ويقول أحد العلماء المحدثين تعليقا على كلام القسطلانى قد كان

ذلك من باب خرق العادة بالنسبة لزمانهم فى عصر القسطلانى وغيره ، ولكن اليوم وبعد ظهور المذياع وغيره ، ليس غريبا أن يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، والله تعالى لا تقاس صفاته بصفات الحوادث ، كما قال صاحب الفتح وغيره .

فالإيمان واجب بما صح عنه ـ ﷺ ـ دون بحث عن حقيقته ولا عن كيفيته فليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقوله تعالى : (أنا الملك) أى ذو الملك .

(أنا الدَّيانُ) أى لا مالك إلا أنا ولا مجازى على الخير والشر إلا أنا وقال الحليمى : هو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وهو المحاسب المجازى لا يضيع أجر عامل .

وقال فى الكواكب : واختار هذا اللفظ ؛ لأن فيه إشارة إلى الصفات السبعة : الحياة ، العلم ، الإرادة ، القدرة ، السمع ، البصر ، الكلام ليمكن المجازاة على الكليات والجزئيات قولا وفعلا .

٨٠ – فى سؤالِ اللهِ لعبادِه :

عن أنسٍ — رضى اللهُ عنه — عن النبىِّ — ﷺ — قال : « يُجَاءُ بابنِ آدَمَ يومَ القيامَةِ كأنه بَذَجٌ ، فيوقف بين يَدَيِ اللهِ ، فيقولُ اللهُ لهُ : أعطيتُك و خوَّلتُكَ وأنعمتُ عَلَيْكَ ، فماذا صَنَعْتَ ؟ فيقولُ : يَارَبِّ جمعتُه وثمَّرْتُه ، فتركتُه أكثرَ ما كانَ فأرْجِعْنى آتِكَ بِه ، فإذا عبدٌ لم يُقَدِّمْ خيرًا — فيَمْضَى بِهِ إلى النَّارِ » ..

أخرجه الترمذى

قوله : (كأنه بَذَجٌ) ..

قال فى القاموس : البذج بفتح الباء والذال : ولد الضأن ، كالعَتُودِ والحولى من أولاد المعز جمعه بذجان (بكسر الباء) .

والحديث دليل على أن العبد إذا لم يقدم مما يملكه — شيئا لآخرته ، فلن يغنيه ذلك من الله شيئا قال تعالى : ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ . فعلى العاقل ألا يغتر بكثرة ما يجمع ولكن يفرح بخير ما يقدم ، حتى لا يندم حيث لا ينفعه الندم ، قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت﴾ وفقنا الله لعلم الآخرة آمين .

٨١ - حُفَّت الجنةُ بالمكارهِ ، وحُفَّتْ النارُ بالشَّهواتِ :

عن أبى هريرةَ - رضى اللهُ عنهُ - عن رسولِ اللهِ - ﷺ - قال : « لما خلقَ اللهُ الجنةَ والنارَ ، أرسلَ جبريلَ إلى الجنةِ ، فقالَ : آنظر إليها ، وإلى ما أعددتُ إلى أهلِها فيها ، قال : فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعدَّ اللهُ لأهلِها فيها ، قال : فرجع إليه ، قال : فَوَعِزَّتِكَ لا يسمَعُ بها أحَدٌ إلا دخلَها ، فأمرَ بها فحُفَّتْ بالمكارِهِ ، فقالَ : ارجِعْ إليها ، فانظر الى ما أعددت لأهلها فيها ، قالَ : فرَجَعَ إليها ، فإذا هِيَ قد حُفَّتْ بالمكارِهِ ، فرَجَعَ إليه ، فقالَ : وَعِزَّتِكَ لقد خِفتُ أن لا يَدخُلَها أحدٌ قال : اذهب إلى النارِ فانظرْ إليها ، وإلى ما أعددتُ لأهلِها فيها ، فإذا هِيَ يَرْكَبُ بعضُها بعضًا ، فرجع اليه فقال : وعِزَّتِكَ لا يسمعُ بها أحدٌ فيدخلَها ، فأمر بها فحُفَّت بالشهواتِ فقال : ارْجع إليها ، فرجَع إليها ، فقال : وعِزَّتِكَ لقد خشيتُ أن لا ينجوَ منها أحدٌ إلا دَخلها » .

أخرجه الترمذى

وفى رواية أخرى أخرج أبو داودَ فى سُنَنِه

عن أبى هريرةَ — رضى اللهُ عنه — أن رسولَ الله ﷺ — قال : لما خلق اللهُ الجنةَ قال لجبريلَ : اذهب فانظر إليها ، فذهبَ فنظرَ إليها ، ثم جاءَ فقال : أَىْ رَبِّ ، وعِزَّتِك لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلَها ، ثم حَفَّها بالمكارِهِ ، ثم قالَ : ياجبريلُ اذهب فانظُر إليها ، فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال : أَىْ رَبِّ ، وعِزّتِك لقد خشيتُ أنْ لا يدخلَها أحدٌ ، قال : فلما خلق اللهُ النارَ ، قال : ياجبريلُ ، اذهب فانظُر إليها ، فذهب فنظر إليها ، ثم جاء فقال : وَعِزَّتِكَ لا يسمعُ بها فيدخلَها فحفها بالشهواتِ ، ثم قال : يا جبريلُ ، اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها فقال : أَىْ رَبِّ ، وعِزّتِك لقد خشِيتُ أن لا يبقى أحدٌ إلا دخلها .

قوله : (حفت بالمكاره) وقوله : (حفها بالمكاره) :

اى جعل الأمور التى تكرهها النفوس بطبعها محيطة بها من كل جانب ، فلا يصل إليها أحد إلا إذا تجرع غصص هذه المكاره التى تحيط بها .

والكلام على التمثيل ، فقد شبه حال التكاليف الشاقة على النفوس ، التى لا يصل أحد إلى الجنة إلا بأدائها ، و القيام بها ،

والمحافظة عليها — ومنها الصبر على البلايا والمحن والمصائب — شبه ذلك كله بحال أسوار كثيفة من الأشواك ، التى يكمن فيها كل حيوان ضار : من الوحوش والحيات والعقارب وهذه الأسوار الكريهة محيطة ببستان عظيم ، تلتف به من كل مكان ، بحيث لا يصل أحد إلى هذا البستان ، ولا يحظى بالتنعم بما فيه من النعيم إلا بعد أن يتخطى هذه الأسوار البغيضة ، ويتجشم المشاق التى تلحقه حين سلوكه فيها من وخز أشواكها ، ولدغ عقاربها وحيّاتها ، ومقارعة حيواناتها المفترسة ، ولاشك أن ذلك يحتاج إلى جهاد شاق طويل وصبر دائم ، فكذلك الجنة ، لا ينالها ويحظى بنعيمها الدائم السرمدى إلا من تخطى شدائد دنياه ، مجاهدا لنفسه ، صابرا على ما يصيبه فيها ، راضيا بقضاء الله تعالى ، قائما بتكاليف الإسلام خير قيام مستهينا بكل شدة تعترضه ، مسترخصا كل تضحية أمام مرغوبه مضحيا بالنفس والمال أمام مطلوبه من الجنة .

فهى الثمن الذى اشترى الله به نفوس المؤمنين وأموالهم فقال : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ . ؛ لذلك قال جبريل عليه السلام بعد أن رآها قد حفت بالمكاره :

(وعزتك لقد خفت أو خشيت أن لا يدخلها أحد) .

وأما النار فقد حفت بالشهوات التى تميل إليها النفوس بطبعها ،

ولا يحتاج مرتكبها إلى تعب وعناء فى ملابستها ، بل إن نفسه تجذبه إلى الانحدار إليها ، والتردى فيها ، فالنار بئس المستقر وساءت مرتفقا ، ولكن أحيط بها كل ما ترغب فيه النفوس وتستلذه الأعين .

فتقرب النفوس هذه الشهوات ، وتجنى من تلك اللذات ، وهى تظن أنها بعيدة من الوقوع فى النار ، وكلما جنت منها لذة أوقعتها فى لذة أحسن منها ، والنفس راغبة دائما فى الزيادة ، ولاتزال تنغمس فى لذة تحبها إلى لذة أحسن منها ، ولا تفيق حتى تقطع سور الملذات ، فتقع فى النار وهى لا تشعر وتريد الخلاص منها فلا تقدر .

فكل إنسان يميل بطبعه إلى الشهوات ، لاسيما من كان فى مجتمع سوء وبيئة فاسدة ، ولايزال ينغمس فى الشهوات حتى يأتيه الموت ، وهو غارق فى شهواته ، غافل عما ينجيه من الإيمان والعمل الصالح فيقع فى النار .

لذلك قال جبريل عليه السلام (بعد أن رآها قد حفت بالشهوات) :

(وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها) .

أى دخلها مخلدا إن كان كافرا مشركا بالله تعالى غيره ، أو دخلها معذبا للتطهير من ذنوبه إن كان مؤمنا عاصيا اغترفت نفسه من الشهوات المحرمة . نجانا الله من النار وأدخلنا الجنة دار القرار مع المتقين والأبرار .. آمين . والحمد لله رب العالمين ..

٨٢ - يلقى على أهل النار الجوع :

عن أبي الدرداءِ - رضى اللهُ عنه - قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « يُلْقى على أهلِ النارِ الجوعُ - فيَعْدِلُ ما هُمْ فيه من العذابِ ، فيستغيثونَ فيُغاثُون بطعامٍ من ضريعٍ ، لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِى من جُوعٍ ، فيستغيثونَ بالطعامِ فيُغاثُونَ بطعامٍ ذى غُصَّةٍ ، فيذكرونَ أنهم كانوا يُجِيزُونَ الغُصَصَ فى الدنيا بالشرابِ . فيَسْتَغيثونَ بالشرابِ ، فيُرفَعُ إليهِم الحميمُ بكلاليبِ الحديدِ ، فإذا دنتْ من وجوهِهِم شوَتْ وجوهَهُم ، فإذا دخلت بطونَهم قطعت ما فى بطونِهم ، فيقولون: ادعوا خَزَنةَ جَهنَّمَ ، فيقولونَ : أَلَمْ تَكُ تَأتيكمْ رسلُكم بالبيناتِ ؟ قالوا : بَلَى ، قالوا : فادعوا ، وما دعاءُ الكافرين إلا فى ضلالٍ ، قال : فيقولونَ : آدعوا مالكًا ، فيقولون : يامالكُ ليَقْضِ علينا ربك ، قال : فيُجيبهم : إنكم ماكثون : قال الأعمشُ : نُبِّئْتُ أن بينَ دُعائِهم وبينَ اجابةِ مالك ألفَ عام . قال فيقولون : آدعوا ربَّكم ، فلا أحدَ خيرٌ من رَبِّكم ،فيقولون:ربَّنا غَلَبَتْ علينا شِقْوتُنا وكنا قومًا ضَالِّين«ربَّنا أَخْرِجْنا مِنها فإن عُدْنا فإنا ظالمون ، قال :

فيجيبهم : اخْسَئُوا فيها ولا تُكَلِّمُون ــ فعند ذلكَ يَئِسوا من كل خيرٍ ، وعند ذلك يأخذون فى الزفيرِ والحسرةِ والويلِ » .

أخرجه الترمذى

قوله : (يلقى على أهل النار الجوع) .

أى أن الله تعالى يسلط الجوع على أهل النار فينزل بهم من الجوع ألم شديد .

(فيعدل ما فيهم من العذاب) ..

أى أن الألم الذى يعتريهم من الجوع يساوى ما هم فيه من عذاب النار .

(فيستغيثون) ..

من ألم الجوع أى يطلبون طعاما يدفع عنهم ألم الجوع .

(فيغاثون بطعام من ضريع) ..

قال أبو السعود المفسر : والضَّريع : يابس الشِّبْرِق ، وهو شوك ترعاه الإبل مادام رطبا ، وإذا يبس تحامته ، وهو سم قاتل ـــ وقيل هو شجرة نارية تشبه الضريع .

وقال ابن كيسان : هو طعام ، يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون إلى الله تعالى طلبا للخلاص منه ، فسمى بذلك ..

(لا يسمن ولا يغنى من جوع) ..

أى ليس من شأنه الإسمان والإشباع كما هو شأن طعام الدنيا ، وإنما هو شيء يضطرون إلى أكله من غير أن يكون له دفع لضرورتهم . بل لزيادة ألمهم .

(فيستغيثون) أى يعودون إلى الاستغاثة (بالطعام) لدفع حرارة الجوع وتسكين ألمه .

(فيغاثون بطعام ذى غصة) .

أى بطعام ينشب فى الحلوق ، ولا يكاد ينساغ ، بل يبقى فى حلوقهم ولا ينزل إلى بطونهم .

(فيتذكرون) ..

أى يتذكرون حالهم فى الدنيا وأنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب ، أى يسعون فى مرور الغصة من الحلقوم فى الماء الذى يشربونه .

(فيستغيثون بالشراب) ..

لإجازة الغصة التى لحقتهم من الطعام .

(فيرفع إليهم الحميم) ..

الماء الحار المغلى ..

(بكلاليب من الحديد) ..

أى بخطاطيف من الحديد .

(فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم) ..

وهذا كما قال تعالى : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ولذا قال فى الحديث : (فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم) أى من الأمعاء .

(فيقولون) ..

أى يقول بعضهم لبعض ..

(ادعوا خزنة جهنم) ..

أى اطلبوا منهم أن يدعوا الله لكم لينقذكم من هذا العذاب

(فيقولون) ..

أى تقول لهم الخزنة على سبيل التوبيخ والتقريع :

﴿ ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ ..

أى بالمعجزات والآيات الواضحة وتنذركم هذا العذاب ، فلم تؤمنوا ؟ ..

(قالوا بلى) أى أتتنا الرسل .

(قالوا) ..

أى قالت لهم الخزنة . إذا كان الأمر كذلك :

(فادعوا) ..

أى ادعوا أنتم الله فلستم أهلا لشفاعة الشافعين .

﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ .

أى فى ضياع لا ينفع ولا يقبل ..

(فيقولون) ..
أى بعضهم لبعض :
(ادعوا مالكا) ..
أى ادعوا رئيس الخزنة لعله يقبل أن يدعو الله لكم ..
(فيقولون : ﴿ يا مالك ليَقْضِ علينا ربك ﴾ ..
أى اطلب لنا من ربك أن يقضى علينا فنموت ونستريح من العذاب ..
(فيجيبهم بقوله : ﴿ إنكم ماكثون ﴾ ..
أى ماكثون فى العذاب كما قال تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ ..
(فيقولون : ادعو ربكم فلا أحد خير من ربكم) ..
يلجئون إلى الله بعد اليأس من دعاء غيره ممن يظنون أن دعاءه ينفع ..
(فيقولون : ربنا غلبت علينا) أى فى الدنيا .
﴿ شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾ .
فيعترفون بذنبهم ثم يطلبون الإخراج من النار بقولهم :
﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ ..
فيجيبهم ربهم :
﴿ اخسئوا فيها ﴾

أى اسكتوا فى النار سكوت هوانٍ ، وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت ، ولا تكلمون باستدعاء الإخراج من النار ..

(فعند ذلك يئسوا من كل خير ويأخذون فى الزفير والحسرة والويل) ..

نجانا الله تعالى من عذاب النار آمين .

٨٣ – سوق الجنة :

عن سعيد بن المسيّب ، أنه لقى أبا هريرةَ ، فقال أبو هريرة – رضى الله عنهُ : أسأل أن يجمعَ بينى وبينك فى سوقِ الجنةِ ، فقال سعيد : أفيها سوقٌ ؟ قال نعم ، أخبرَنى رسولُ اللهِ ﷺ – « أن أهلَ الجنةِ إذا دخلوها نزلوا فيها بفضلِ أعمالِهم ، ثم يُؤْذَنُ لهم فى مقدارِ يوم الجُمُعةِ من أيام الدُّنيا ، فيزورُون ربَّهم ، ويبْرُزُ لهُمْ عرشُه ، ويتبدَّى لهم فى روضةٍ من رياضِ الجنَّةِ فتوضعُ لهم منابرُ من نورٍ ، ومنابرُ من ذهبٍ ومنابرُ من فضةٍ ويجلسُ أدناهم – وما فيهم من دَنِيٌّ – على كُثبانِ المسكِ والكافورِ ، وما يَرَوْنَ أنَّ أصحابَ الكراسيِّ أفضلُ منهم مَجْلِسًا ، قال أبو هريرةَ : قلتُ يارسولَ اللهِ : وهل نرى ربَّنا ؟ قال : نعم ، قال : هل تتمارَوْن من رؤيةِ الشمسِ والقمرِ ليلةَ البدرِ ؟ قلنا : لا ، قال : كذلك لا تمارون فى رؤيةِ ربِّكم ، ولا يبقى فى ذلك المجلسِ رجلٌ إلا حاضره اللهُ محاضرةً ، حتى يقولَ للرجلِ : منهم ، يا فلانُ بن فلانٍ ، أتذكُرُ يوم كذا وكذا ، فيذكَّرُ ببعضِ غدَرَاتِه فى الدنيا ، فيقول : يارَبِّ ، أفلَمْ تغفرْ لى ؟ فيقول : بلى ، فبسَعَةُ مغفرتى بلغت بك منزلتك هذه ،

فبينا هم على ذلك غَشِيَتْهم سحابةٌ من فوقِهم ، فأمطرت عليهم طِيبًا لم يجدوا مثلَ ريحِه شيئاً قَطّ ، ويقول ربُّنا — تبارك وتعالى — : قوموا إلى ماأعْددتُ لكم من الكرامة ؛ فخذوا ما اشْتهَيتمُ ؛ فنأْتى سوقاً قد حُفّتْ به الملائكةُ ما لم تنظرِ العيونُ إلى مثله ، ولم تَسْمَع الآذانُ ، ولم يخطرْ على القلوبِ ، فيحملُ لنا ما اشتهينا ، ليس يباعُ فيها ولا يُشْتَرَى . وفى ذلك السوقِ يَلْقى أهلُ الجنةِ بعضهُم بعضا ، قال : فيقبلُ الرجلُ ذو المنزِلة المرتفعةِ فيَلْقَى مَنْ هو دُونَه — وما فيها من دَنِيٍّ — فيَرُوعُه ما يرى عليه من اللِّباس ، فما ينقضى آخرُ حديثِه حتى يتخَيلَ إليه ما هو أحسنُ مِنه ، وذلك أنه لاينبغى لأحدٍ أن يَحْزَن فيها ، ثم ننصرفُ إلى منازلِنا فيتلقانا أزواجُنا ، فيقلن : مرحبا وأهلا لقد جئتَ وإن بِكَ من الجَمَال أفضلَ ما فارقتَنا عليه ، فيقول : إنا جالسَنَا اليومَ ربُّنا الجبارُ ويَحِقُّنَا أن ينقلبَ بمثلِ ما انْقَلبنا » .

رواه الترمذى

قوله : (سوق الجنة) ..

شبه المكان الذى يجتمع فيه المؤمنون ، ويحملون منه ما يشتهون مما لم تنظر مثله العيون ، ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب ... أ

يحمل إليهم ذلك ـــ بالسوق فى الدنيا ـــ ويلقى أهل الجنة بعضهم بعضا فرحين بما أوتوا وبما أوتى إخوانهم المؤمنون .

« فيزورن ربهم ويبرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة » .

هذا الكلام ونظيره من أحاديث الصفات ، وفيها من المتشابه ، وأنت تعلم مما سبق لك أن كتبنا فى حديث سابق أن مثل هذا يجرى على طريقة السلف وطريقة الخلف ، وأن مذهب السلف عدم التأويل ، بل يعتقدون تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه ، ويفوضون علم ذلك إلى الله تعالى مؤمنين ومصدقين بما وصف الله به نفسه ، أو وصفه رسوله ﷺ ـــ ومذهب الخلف ـــ التأويل فيؤولون ذلك : يتبدى لهم ملك من ملائكة ـــ أو تتبدى لهم نعمته وإحسانه فى روض الخ .. ويعتقدون أيضا تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

وقوله : (على كثبان المسك والكافور) .

الكثبان : جمع كثيب ، وهو أصلا المرتفع من الرمل وهذه الكثبان شىء كثير مرتفع ، لكن من المسك والكافور .

وقوله : (ولا يبقى فى ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله محاضرة الخ) ..

المعنى : أن الله تعالى يكلمه كلاما كثيراً يتعلق بتذكيره أعماله ، كما يذكره بنعمته عليه بالمغفرة والرحمة ، بعد أن ذكره ببعض

(غَدَراتِه) ـــ أى معاصيه الكبرى التى يعد ارتكابها غدرا لأمانة التكاليف التى حملها الانسان . وفى هذه السوق يقابل المؤمنون بعضهم بعضا ، ويتعارفون ، ويهنىء بعضهم بعضا ويفرح بعضهم لبعض ، ولا يوجد فى الجنة حزن لأحد ولا استعلاء أحد على أحد ، وكلهم راضون بما أوتوا ، فرحين مستبشرين ، كما قال تعالى : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا ﴾ وبعد السوق يذهبون لأزواجهم ، وبهم من الجمال مالا يقدر أحد على وصفه ، رزقنا الله تعالى الجنة ونعيمها ، وأنعم علينا بالنظر إلى وجهه الكريم ، وجمعنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .. والحمد لله رب العالمين .

عن عبدِ الله بن عمرو أى ابن العاص ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : صلينا مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ المغربَ ، فرجع مَنْ رجع وعَقَّبَ من عَقَّبَ ، فجاء رسولُ الله ـــ ﷺ ـــ مُسْرِعا ، قد حَفَزَهُ النَّفَسُ ، وقد حَسَرَ عن ركبتيه ، فقال : « ابشروا ، هذا ربُّكم قد فَتَحَ بابا من أبوابِ السماءِ ، يُباهِي بِكُم الملائكةَ ، يقول : انظروا إلى عبادى قد قَضَوْا فريضةً ، وهم ينتظرون أخرى » .

أخرجه ابن ماجه فى سننه

قوله : (عقب من عقب) ..

عقب بتشديد القاف من التعقيب ، فى المختار : التعقيب فى الصلاة : الجلوس بعد أن يقضيها لدعاء أو مسألة ، وفى الحديث : (من عقب فى صلاة ، فهو فى الصلاة) .

قوله : (قد حفزه النفس) ..

حفزه : دفعه من الخلف . والنفس بفتح الفاء بمعنى التنفس ، أى أن اسراعه أخرج منه النفس كثيرا كأنه يدفعه .

قوله : (وقد حسر عن ركبتيه) أى أنه من اسراعه امسك بطرف ثوبه فانكشفت ركبتاه .

قوله : (قد فتح بابا من أبواب السماء) ..

أى من أبواب رحمته ، ومنها مباهاته بالمؤمنين الملائكة الكرام ، وأن انتظار الصلاة الثانية بعد قضاء الأولى من أبواب الخير والرحمة .

والحديث بيان فضل المكث فى المساجد لانتظار الصلاة المستقبلة ، فالمساجد خير البقاع ، وفى المكث فيها انقطاع إلى الله فى بيوته ، ويشترط أن يلتزم بحرمة المساجد ؛ فلا يلهو ، ولا يتكلم .. والله أعلم .

٨٥ – دعاءُ النبيُّ ﷺ لأُمَّتِه عَشِيَّة عرفة بالمغفرة :

عن عبدِ اللهِ بنِ كِنانةَ بنِ عباسِ بنِ مِرْدَاسٍ السّلميّ ، أن أباه أخبرَه عن أبيه ، أن النبى ﷺ ــ « دعا لأمتِه عَشِيَّةَ عَرفة فأُجيبَ : إنى قد غفرتُ لهم ما خلا الظالمَ فإنى آخذُ للمظلومِ منه ، قال : أىْ رَبِّ ، إن شِئتَ أعطيتَ المظلومَ من الجنةِ وغفرتَ للظالِمِ ، فلم يُجَبْ عَشِيَّةً ، فلما أصبح بالمزدَلِفة ، أعاد الدعاءَ فأجيبَ إلى ما سألَ قال : فضحك رسولُ اللهِ ﷺ ، أو قال : تبسمَ ، فقال له أبو بكر وعمرُ : بأبى أنتَ وأمى ، إن هذه لساعةٌ ما كنتَ تضحكُ فيها ، فما الذى أضحكك ؟ ــ أَضحك اللهُ سِنَّكَ ــ قال : إنَّ عدوَّ اللهِ ابليسَ لَمَّا عَلِمَ أن اللهَ ــ عزَّ وجلَّ ــ قد استجاب دُعائى وغفرَ لأمتى ، أخذ الترابَ ، فجعلَ يحثوه على رأسِه ، ويدعو بالويلِ والثُّبورِ ، فأضحكنى ما رأيتُ من جَزَعِه »

أخرجه ابن ماجه

وأخرج النَّسائيُّ :

عن عائشةَ رضى اللهُ عنها ــ أن رسولَ اللهِ ــ ﷺ ــ

قال : ما مِنْ يومٍ أكثرَ من أن يعتقَ اللهُ ـــ عز وجل ـــ فيه عبْدًا أو أمةً من النارِ من يومِ عرفة وإنه ليدنُو ، يباهى بهم الملائكةَ ، ويقول : ما أَرادَ هؤلاءِ ! .

فى الحديث الأول : دعا النبى ﷺ لأمته : أمة الإجابة الذين صَدَّقُوا برسالته ﷺ أن يغفر الله لهم ذنوبهم ـــ وذلك عشية عرفة أى فى آخر يوم عرفة من العصر فصاعدا . فأجابه الله تعالى فى دعائه قائلا :

(إنى قد غفرت لهم ما عدا الظالم منهم لعباد الله تعالى) فلابد أن يأخذ الله منه للمظلوم ، لأن القصاص محتم وواجب ، والله هو الحكم العدل ، فقال النبى ﷺ : يارب إن شئت أعطيت المظلوم جزاءه من الجنة فضلا منك ورحمة ، وغفرتُ للظالم إحساناً منك ومِنَّةً ، فإنك غفورٌ رحيمٌ ، وذو الفضل العظيم ، هذا ما كان منه فى عرفة .

فلما أصبح من المزدلفة فى آخر الليل ، أعاد الدعاء والرجاء ، فأجابه الله تعالى فيما سأل من المغفرة للجميع وحقق له رجاءه فى المغفرة للظالم وتعويض المظلوم من الجنة فلذلك ضحك ﷺ ـــ أو تبسم واضحا قريبا من الضحك ، فالمراد من ضحكه ﷺ هو تبسمه ، لأن من وصفه ﷺ أنه كان ضحكه التبسم ، فقال له الشيخان : أبو بكر وعمر ـــ رضى الله عنهما : إن هذه لساعة ما

كنت تضحك فيها (وهى ساعة من آخر الليل) لأنها ساعة تضرع ودعاء ـــ فما الذى أضحكك ؟ ..

(أضحك الله سنك) ..

جملة دعائية منهما له ﷺ بأن يديم الله عليه هذا السرور الموجب للضحك قال : إن عدو الله إبليس ـــ عليه اللعنة ـــ لما علم أن الله عز وجل قد استجاب لدعائى وغفر لأمتى أخذ التراب ، فجعل يحثوه على رأسه ، حزنا منه وغما على الفضل العظيم الذى فاته وحصل لأمة محمد ﷺ ، ويدعو بالويل والثبور أى الهلاك اللذين نزلا به ، قال النبى ﷺ : فأضحكنى ما رأيت من جزعه . وحزنه على فوات الخير له ، وحصوله لأمة محمد ـــ ﷺ .

أما فى الحديث الثانى :

(ما من يوم أكثر من أن يعتق الله عز وجل فيه عبدا أو أمة من النار من يو م عرفة) ..

المعنى : أن الله عز وجل فى يوم عرفة يعتق من النار ذكورا وإناثا كثيرين . لا يساوى هذا اليوم أى يوم كان فى السنة كلها فى عتق الرقاب من النار فهو أكثر الأيام عتقا للخلق من النار وذلك لفضله على سائر الأيام ، وعظيم تجلى الله فيه على عباده ، فيصب عليه من رحمته صبا .

(وإنه ليدنو يباهى بهم الملائكة) ..

أى يقرب برحمته منهم ويباهى بهم الملائكة ويقول :
(ما أراد هؤلاء !) ..

ليس المقصود هنا الاستفهام بل المقصود مدح عباده الذين تركوا الأهل والأوطان وأتوا إلى مكة شعثا غبرا يؤدون فريضة الحج ويدعون الله تعالى أن يغفر لهم ويتقبل منهم توبتهم ، وقد قصدوه راجين رحمته ، خائفين من عذابه ، فهو الكريم الرحيم يغفر لهم ويرحمهم .

٨٦ – وقوفُ العبدِ بينَ يدَىْ ربِّهِ يومَ القيامةِ :

عن عَدِىِّ بنِ حاتِمٍ ــ رضى اللهُ عنهُ ــ يقولُ : كنتُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فجاءَهُ رَجُلانِ : أحدُهُما يشكو العَيْلَةَ ، والآخر يشكو قطعَ السبيلِ ، قال ﷺ : « أما قَطْعُ السبيل فإنهُ لا يأتِى عليكَ إلا قليل حتى تَخْرجَ العِيرُ إلى مكةَ بغيرِ خفيرٍ ، وأما العَيْلَةُ فإنَّ الساعةَ لا تقومُ حتَّى يطوفَ أحدُكم بِصدَقتِه ، لا يجد مَنْ يَقْبَلُها مِنه ، ثمَّ لَيَقِفَنَّ أحدُكم بين يدَىِ اللهِ ، ليسَ بينَه وبينَه حِجابٌ ولا تَرجُمانٌ يُتَرجِمُ له ، ثم لَيَقُولَنَّ لَهُ : أَلَمْ أُوتِكَ مالاً ؟ فيقولَنَّ : بَلَى ، ثم لَيقولَنَّ : أَلَمْ أُرْسِلْ إليكَ رَسولا ؟ فيقولَنَّ : بلَى ، فَينظرُ عَنْ يمينِه ، فلا يرَى إلا النارَ ، ثم يَنْظُرُ عن شِمالِه ، فلا يرى إلا النارَ ، فَلْيَتقِيَنَّ أحدُكُمْ النَّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمرةٍ ، فإنْ لَمْ يَجِدْ فبِكَلمَةٍ طَيِّبَةٍ » ..

أخرجه البخارى

وأَخرجَ البُخَارِىُّ أَيْضًا فى كتابِ بَدْءِ الخَلْقِ :

عن عدِىِّ بنِ حاتِمٍ ــ رضى اللهُ عنه ــ قال : بينا أنا عندَ النَّبِىِّ ــ ﷺ ــ إذ أتاهُ رجلٌ ، فشكا إليهِ الفاقةَ ، ثم

أتاهُ آخرُ ، فشكا إليهِ قطع السَّبيل ، فقال : « يا عَدِىُّ ، هل رأيتَ الحِيرَةَ ؟ قلت : لم أَرَهَا ، وقد أُنْبِئْتُ عَنْهَا ، قالَ : فإن طَالَتْ بك حياةٌ ، لَتَرَيَنَ الظَّعِينَةَ ترتَحِلُ مَن الْحِيرَةِ حتى تَطوف بالكعبةِ ، لاتخافُ أحداً ، إلا الله ، قلتُ فيما بيْنِي وبين نَفْسِى : فأينَ دعار طَيِّىءٍ الذين سعَّروا البلادَ ؟ — ولَئِنْ طالتْ بكَ حياةٌ لتَفْتَتِحَنَّ كنوزَ كِسْرَى ، قلت : كِسْرَى بنِ هُرْمُزَ ؟ قال : كسرى بنُ هُرمُزَ ، ولئن طالت بكَ حياةٌ ، لتَرَيَنَّ الرجلَ ، يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ من ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُه مِنْهُ ، فلا يجدُ أحدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ ، ولَيَلْقَيَنَّ اللهَ . أحدكم يومَ يَلقَاهُ ، وليس بَيْنَه وبينَهُ تَرْجُمَانٌ يُتْرِجِمُ لَهُ ، فلَيَقُولَن له : أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رسُولاً ، فيُبَلعكَ ؟

فيقولُ : بلَى ، فيقولُ : ألم أُعْطِكَ مالاً وولدًا وأُفْضِلْ علَيْكَ ؟ فيقول : بَلَى ، فينظرُ عَنْ يمينِه فلا يرَى إلا جَهَنَّمَ ، ويَنْظُرُ عن يَسارِه فلا يَرَى إلا جَهَنَّمَ — قالَ عَدِىّ : سمعتُ النبيَّ — ﷺ — يقولُ : اتقوا النارَ ولو بِشِقِّ تَمرةٍ ، فإنْ لَمْ تَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فبكلمةٍ طيبةٍ . قال عدىّ — رضى الله

عنه ـــ : فرأيتُ الظَّعينةَ ترتحلُ مِنْ الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ ، لا تخافُ إلا اللهَ ، وكنتُ فيمن افتتحَ كُنوزَ كِسرى بنِ هُرمُزَ ، وَلَئِنْ طالت بِكُمْ حَياةٌ ، لتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ ـــ أبو القاسِمُ ـــ ﷺ ـــ : يُخْرِجُ .. مِلْءَ كَفِّهِ » .

يقول الإمام القسطلانى ـــ رحمه الله ـــ شرحا لهذين الحديثين :

العَيْلَةُ : بفتح العين هى الفقر ، وقطع السبيل أى قطع الطريق على المارين به ، ويكون من طائفة يترصدون فى المكامن ، لأخذ مال ، أو لقتل نفس ، أو لإرعاب الناس ، اعتمادا على القوة والشوكة من البعد عن الغوث .

والعير : الإبل تحمل الميرة والطعام وغيرهما مما يحتاج الى حملة فى السفر .

وقوله : (بين يدى ربه ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان) .

هذا على سبيل التمثيل ؛ لأن الله تعالى لا يحيط به شىء ، ولا يحجبه حجاب وإنما يستر عن أبصارنا بما وضع فيها من الحجب ، للعجز عن الإدراك فى الدنيا ، فإن كان ذلك فى الآخرة كشفها عن أبصارنا وقوى أبصارنا ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

والحِيْرة : بكسر الحاء وسكون الياء ، كانت بلد ملوك العرب ، الذين هم تحت حكم فارس .

(دعارطيء) : قطاع الطريق .
(الذين سعروا البلاد) .
أي ملئوها شرا ، مأخوذ من — استعار النار — و هو توقدها .
(لتفتتحن) بالبناء للفاعل — (ولتفتحن) بالبناء للمجهول .
(الظعينة) المرأة فى الهودج .
(ولئن طالت بكم حياة لترون الخ) ..

أى يخرج أحدكم ملء كفه ذهبا أو فضة فلا يجد أحدا يقبله منه — أى لعدم الفقراء حينئذ — قيل : ويكون ذلك زمن عيسى عليه السلام .

وجزم البيهقى بأن ذلك كان فى زمن عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — لحديث عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : لما ولى عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهرا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، نتذاكر من نضعه فيه فلا نجده ، قد أغنى عمر الناس — وفيه تصديق ما روينا فى حديث عدى ابن حاتم . والله أعلم .

٨٧ – يدنو المؤمنُ من رَبِّه حتى يَضَعَ عليه كَنَفَه :

عن صفوانَ بنَ مُحْرِزٍ قال : بينا ابنُ عمرَ يطوفُ ، إذ عَرَضَ لهُ رَجُلٌ فقالَ : يا أبا عبدِ الرَّحْمَن ـــ أو قال يابنَ عُمَرَ ، هل سمعتَ النبيَّ ـــ ﷺ ـــ فى النَّجْوَى ؟ فقال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : يُدْنَى المؤمنُ من رَبِّهِ ـــ وقال هِشامٌ : يَدنُو المؤمنُ (أى مِنْ رَبِّهِ ـــ حتى يضعَ عليهِ كنَفَه ، فَيُقَرِّرُه بذُنوبِه ، تعرفُ ذَنْبَ كذا ؟ يقولُ : أعرفُ ، يقول : رَبِّ ، أعرفُ مَرَّتَيْنِ ، فيقول : سَتَرْتُها فى الدُّنْيَا ، وأغفِرُهَا لك الْيَومَ ، ثم تُطْوَى صحيفةُ حسناتِه ، وأما الآخرونَ ـــ أو الكفارُ ـــ فيُنَادَى على رُءُوسِ الأَشْهَادِ : ﴿ هؤلاءِ الذين كَذَبُوا على رَبِّهِمْ ألاَ لَعْنَةُ اللهِ على الظَّالِمينَ ﴾ .

أخرجه البخارى

يقول الإمام القسطلانى فى شرحه لهذا الحديث :

(قال : بينا ابن عمر) : عبد الله بن عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنهما ـــ (يطوف) أى بالكعبة .

(إذ عرض له رجل) ..

وفى المظالم بلفظ (بينا أنا أمشى مع ابن عمر رضى الله عنهما آخذ

بيده ، إذ عرض له رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ـــ أو يا ابن عمر ، هل سمعت الرسول ﷺ فى النجوى ؟) ..

أى ما قاله فى النجوى التى تكون يوم القيامة بين الله تعالى وبين المؤمنين أى حين حسابهم وفى المظالم بلفظ : كيف سمعت النبى ﷺ فى النجوى ؟ فقال :

(سمعت النبى ـــ ﷺ ـــ يقول : يدنى المؤمن من ربه) وقال هشام فى روايته : (يدنو المؤمن أى من ربه) .

وفى المظالم : (أن الله ـــ عز وجل ـــ يدنى المؤمن) أى يقربه .

(فيضع عليه كَنَفه) .

بفتح الكاف والنون معناه جانبه ، والدنو ، والكنف مجازان ، والمراد الستر ، والرحمة ـــ أى ستره ـــ والمراد يستره عن أهل الموقف ، لئلا يفتضح بين أهل الموقف .

(فيقرره بذنوبه) يقول له :

(تعرف ذنب كذا ؟) يقول العبد :

(أعرف رَبِّ ، أعرف مرتين) فيقول الله ـــ عز وجل ـــ :

(سترتها عليك فى الدنيا ، وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته) .

وفى رواية (ثم يعطى صحيفة حسناته) .

(وأما الآخرون ـــ أو الكفار) ..

شك من الراوى ، وفى المظالم : (وأما الكافر والمنافقون أو المنافق فينادى على رءوس الأشهاد : ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ .

وفى الحديث دليل على أن ستر الله فى الآخرة لمن لم يتجاهر بالمعاصى فى الدنيا وكان فى ستر الله تعالى ، أما من جهر وتجاهر بالمعصية فليس أهلا لستر الله عليه فى الآخرة ، وفى المظالم : (حتى اذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك) اللهم إنا نسألك أن تستر علينا فى الدنيا والآخرة بحبك وفضلك يا أكرم الأكرمين .. آمين ..

٨٨ - ثوابُ الصَّبْرِ عَلَى قَبْضِ الْوَلَدِ :

عن أبى هُرَيرَةَ رضىَ اللهُ عنهُ أن رسولَ الله ﷺ قالَ : « يقولُ اللهُ تعالىَ : ما لِعبدِى المُؤْمِنِ عندى ـ جَزَاءٌ ، إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ من أهلِ الدُّنيَا ، ثم احْتَسَبَهُ إلا الجَنَّةَ » .

أخرجه البخارى

وأخرج الترمذىُّ :

عن أبى موسى الأشعرىِّ ـ رضى اللهُ عنه ـ أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « إذا ماتَ ولدُ العَبْدِ ، قال اللهُ لملائكتِه : قبضتُم وَلَدَ عَبدِى ؟ فيقولون : نَعَمْ ، فيقولُ : قَبَضتُمْ ثمرَةَ فُؤَادِهِ ؟ فيقولونَ : نَعَمْ ، فيقولُ : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حَمدَكَ واستَرْجَعَ ، فيقول اللهُ : ابْنُوا لعبدى بيتًا فى الجَنَّةِ وسَمُّوه بيتَ الحَمْدِ » .

يقول الإمام القسطلانى رحمه الله تعالى فى شرح الحديث الأول :

قوله : (ما لعبدى المؤمن جزاء) أى ثواب ..

(صَفِيَّه) بفتح الصاد ، وكسر الفاء ، وتشديد الياء ـ هو الحبيب المصافى ، كالولد والأخ ، وكل من أحبه الانسان .

(من أهل الدنيا) أى حال كون هذا الصفى من أهل الدنيا .

(ثم احتسبه) أى صبر راجيا الثواب من الله تعالى .

(إلا الجنة) أى ليس له إلا الجنة ثوابا من الله له جزاء صبره على فقد صفيه واحتسبه أى دخره عند الله تعالى .

وأما قوله فى الحديث الثانى :

(قبضتم ولد عبدى ؟ قبضتم ثمرة فؤاده ؟) .

الكلام على الاستفهام ، وليس المقصود به حقيقة الاستفهام بل المقصود منه التمهيد إلى ما يأتى بعده ، وهو تحقيق الجزاء وإظهار الملائكة الكرام عليه ، وقد قالوا أولا فى شأن آدم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ .

وقوله (بيت الحمد) .

الإضافة : إما للسببية أى بيت فى الجنة سببه الحمد الذى صدر منه عند إصابته بفقد ولده ، واسترجاعه ، وقوله : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

وإما من إضافة المسمى إلى اسمه أى بيت ، اسمه الحمد .

وإما للتشريف ، مثل بيت الله للكعبة المشرفة .

تعليق :

روى النسائى رحمه الله تعالى فى فضل الصبر عند الابتلاء بفقد الولد :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة أولاد ، لم يبلغوا الحنث ، إلا أدخلهما بفضل رحمته اياهم الجنة ، قال : يقال لهم : ادخلوا الجنة ، فيقولون : حتى يدخل آباؤنا ، فيقول : ادخلوا أنتم وآباؤكم) .

وأخرج ابن ماجه فى سننه : عن على رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن السقط ليراغم ربه إذا أدخل أبويه النار ، فيقال : أيها السقط المراغم ربه ، أدخل أبويك الجنة ، فيجرهما بسرره ، حتى يدخلهما الجنة) .

(السِّقْط) : بكسر السين وسكون القاف هو الولد ذكرا كان أو أنثى يسقط قبل تمامه وهو مستبين الخلق (يراغم) : أى يجادل ويغاضب .

(بسُرره) هو ما تقطعه القابلة ، وهو السُّر بالضم أيضا . وأما السرة : فهى ما يبقى بعد القطع .

رزقنا الله الإنابة والرجوع إليه والرضا بقضائه .. آمين .

٨٩ - تيسيرُ قراءةِ القرآنِ الكريم :

عن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ ــ رضىَ اللهُ عنهُ ــ أن رسولَ اللهِ ــ ﷺ ــ كان عندَ أضاة بنى غِفَارٍ ، فأتاهُ جبريلُ ــ عليه السلامُ ــ فقالَ : « إنَّ اللهَ ــ عَزَّ وجَلَّ ــ يأمرُكَ أن تُقْرِىءَ أُمَّتَكَ القرآنَ على حَرْفٍ ، قالَ : أسألُ اللهَ معافاتَهُ ومَغْفِرَتَه ، وإنَّ أُمَّتِى لا تُطيقُ ذَلِكَ ، ثم أتاهُ الثانيةَ ، فقالَ : إن اللهَ ــ عَزَّ وجَلَّ ــ يأمرُكَ أن تُقْرِىءَ أمتَك القرآنَ على حَرْفَيْنِ ، قالَ : أسألُ اللهَ معافاته ومغفرته ، وأن أُمتى لا تُطيقُ ذلكَ ، ثم جاءَهُ الثالثةَ ، فقالَ : إن اللهَ ــ عزَّ وجَلَّ ــ يأمرُكَ أن تُقْرِىءَ أمتَكَ القرآنَ على ثلاثةِ أَحْرُفٍ ، فقالَ : أسألُ اللهَ معافاته ومغفرته وإنَّ أمَّتِى لا تطيقُ ذَلِكَ ، ثم جاءَهُ الرَّابعَةَ ، فقال : إن اللهَ ــ عزَّ وجَلَّ ــ يأمرُكَ أن تُقْرِىءَ أُمَّتَك القرآنَ على سبعةِ أَحْرُفٍ ، فأيُّما حرفٍ قرءوا عليهِ فقد أصَابُوا » .

أخرجه النسائى

قال الإمام القسطلانى ــ رحمه الله تعالى ــ عند شرح حديث (ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : أقرأنى جبريل على حرف ، فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف) :

(أقرأنى جبريل على حرف أى لغة — أو وجه من الإعراب ، (فلم أزل أستزيده) أى أطلب منه أن يطلب من الله تعالى الزيادة على الحرف — أى فما فوقه — توسعة وتخفيفا — أى على أمتى — ويسأل جبريل ربه تعالى ويزيده (حتى انتهى إلى سبعة أحرف) ثم قال :

وليس المراد أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه — والاختلاف اختلاف تنوع لا تضاد وتناقض ، إذ هو محال فى القرآن . وذلك يرجع إلى سبعة : لأنه إما فى الحركات من غير تغير فى المعنى والصورة ، نحو البُخْل والبَخَل[1] ويحسب بوجهين ، أو يتغير فى المعنى فقط ، نحو (فتلقى[2] آدم من ربه كلمات) .

وأما فى الحروف بتغير فى المعنى لا الصورة ، نحو (تبلو وتتلو) — أو عكس ذلك نحو (السراط والصراط) — أو بتغيرهما ، نحو (يأتل ويتأل) . وإما فى التقديم والتأخير (فيقتلون ويقتلون) — أو فى الزيادة والنقصان نحو (أوصى ووَصَّى) .

ثم قال : وأما نحو الاختلاف فى الإظهار[3] والإدغام وغيرهما مما يسمى بالأصول ، فليس من الاختلاف الذى يتنوع اللفظ أو المعنى ،

---

(١) البخل (بضم الباء وسكون الخاء) . منع الواجب . والبَخَل (بفتح الباء والخاء) له نفس المعنى السابق .

(٢) تلقى لها معنيان : إما بمعنى استقبل ، أو بمعنى أبلغ .

(٣) الإظهار والإدغام مصطلحان فى علم التجويد .

لأن هذه الصفات المتنوعة فى أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظا واحدا ــ ولئن فرض فيكون من الأول .

وقال القسطلانى ــ رحمه الله تعالى ــ فى باب (أنزل القرآن على سبعة أحرف) من كتاب فضائل القرآن : (ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) جمع حرف .. أى لغات أو قراءات ، فعلى الأول يكون المعنى على أوجه من اللغات ، لأن أحد معانى الحرف فى اللغة الوجه ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ ــ أى على وجه وعلى الثانى يكون إطلاق الحرف على الكلمة مجازا ، لكونه بعضها .

ثم قال : وإنما جاء ذلك التيسير ، لأن ضرورة اختلاف اللغات ، ومشقة نطقهم بغير لغتهم اقتضت التوسعة عليهم فى أول الأمر ، فأذن لكل أن يقرأ على حرفه ، أى طريقته فى اللغة ، إلى أن تدربت الألسن وتمكن الناس من النطق به على الطريقة الواحدة .. ثم قال القسطلانى فيما نقله :

لكن هذه الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهى أى أن كل واحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته ، بل ذلك مقصور على السماع من رسول الله ــ ﷺ ــ كما يشير إليه قول كل من عمر وهشام وقول كل واحد منهما (هكذا أقرأنى رسول الله ﷺ) والله أعلم .

٩٠ – ثلاثَةَ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ :

عن أبى ذَرٍّ – رضى اللهُ عَنْهُ – عن النَّبىِّ – ﷺ – قالَ : « ثلاثةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ – عزَّ وجَلَّ – : رجلٌ أتَى قَوْمًا ، فسَأَلَهمْ باللهِ ، ولم يسْأَلْهُمْ بقرابةٍ بينَه وبينَهم ، فمَنَعُوهُ ، فَتَخَلَّفَ رجلٌ ، بأعقابِهم ، فأعطاهُ سِرًّا لا يَعْلَمُ بعَطِيَّتِهِ الا اللهُ – عزَّ وجَلَّ – والذى أعطاهُ . وقومٌ سارُوا لَيْلَتَهُم ، حتى إذا كانَ النومُ أحبَّ إليْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ به ، نَزَلُوا فوضَعُوا رُءَوسَهُمْ ، فقامَ منْهُمْ رَجُلٌ يَتَمَلَّقُنى ويَتْلُو آياتى ، وَرَجُلٌ كانَ فى سَرِيَّةٍ ، فَلَقُوا العَدُوَّ فانْهزَمُوا ، فأقْبَل بِصَدْرِهِ حتى يُقْتَلَ أو يُفْتَحَ لَهُ » ..

أخرجه النسائى

ذكر فى هذا الحديث ثلاثة من الناس يخصهم الله تعالى بزيادة محبته وإقباله عليهم برحمته ، ويؤخذ من ذلك : الحض والحث على التخلق بهذه الصفات الكريمة . الأول – رجل أعطى الصدقة سرا ابتغاء وجه الله ، لا يعلم بها إلا الله تعالى والشخص الذى أخذها منه . ومصداق ذلك من حديث (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم القيامة) فقد عُدّ منهم (رجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) وذلك كناية عن غاية الكتمان والإخفاء للصدقة .

وقوله : (فسألهم بالله) أى يعطونه ابتغاء وجه الله .

الثانى ــ رجل قام من الليل فى غفلة من الناس حتى الذين كانوا معه مسافرين وصار يذكر الله ويتلو آياته فى الصلاة أو فى غيرها ، ولاسيما وهو متعب من طول السير بالليل فقد نام إخوانه من التعب .

الثالث ــ رجل أقبل بصدره على الأعداء بعد أن انهزم أصحابه ، وقاتل حتى يقتل أو يفتح له ولا شك أن مثل هذا الفعل يقوى من عزيمة المسلمين ، ويشجع المنهزمين على الرجوع إلى صف القتال ، على عكس نقيضه فإنه يثبط من عزيمتهم ، ويدعو غيره إلى الهزيمة ــ والله أعلم .

٩١ – حديثُ نزولِ سورةِ الكوثَرِ :

عن أنسِ بنِ مالكٍ – رضى اللهُ عنهُ – قالَ : بينَما ذاتَ يوم بينَ أظْهُرِنَا – (يريدُ النبىَّ ﷺ) إذْ أَغْفَى إغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ مُتَبَسِّماً ، فَقُلنَا لهُ : ما أضحَكَكَ يارسولَ اللهِ ؟ قال : نزَلَتْ علىَّ آنفًا سورةُ : ﴿بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ . إنا أعطيناكَ الكوثرَ فصلِّ لِرِبِّكَ وانحرْ إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ – ثم قال :

« هل تَدْرُونَ ما الكوثَرُ ؟ قُلْنَا : اللهُ ورسولُه أعلَمُ ، قال : فإنهُ نهرٌ وعَدَنِيهِ رَبِّى فى الجنةِ ، آنيَتُهُ أكثرُ مِنْ عَدَدِ الكواكبِ ، تَرِدُهُ على أُمَّتى ، فيُخْتَلجُ العبدُ مِنْهُم فأقولُ : يارَبِّ إنهُ مِنْ أمَّتى ، فيقولُ : إنَّكَ لا تَدرِى ما أحْدَثَ بَعْدَكَ » .

أخرجه النسائى

قوله : (أغفى اغفاءة) .

أى نام ﷺ نومة خفيفة ثم رفع رأسه أى من نومه مبتسما من السرور وانشراح صدره الشريف ﷺ من عظيم عطاء الله تعالى له من الكوثر الذى وصفه فى هذا الحديث وفى غيره من الأحاديث .

(فقلنا) : معشر الصحابة أى سألوه وقالوا له :

(ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : نزلت على آنفا) أى قريبا (سورة) أى سورة الكوثر ، وقرأها بتمامها ، وقرأ معها البسملة ، واستدل بذلك بعض الفقهاء على أن البسملة آية من السورة التى هى فيها . وقوله : (فيختلج العبد منهم) .

أى يجذب بشدة ويؤخذ من بين الواردين على الحوض ، دون أن يصل إليه والله أعلم ونسأل الله السلام . آمين .

٩٠٢ – فضل الصلاةِ والسلامِ على النبيِّ :

عن عبدِ اللهِ بنِ أبى طَلحَةَ ، عن أبيهِ ــ رضى اللهُ عنه ــ أن رسولَ اللهِ ــ ﷺ ــ جاء ذاتَ يومٍ ، والبُشْرَى فى وجهِهِ ، فقالَ : « إنه أتانى المَلَكُ ، فقال : يا محمدُ أما يُرضِيكَ أنهُ لا يصلِّى عليكَ أحدٌ إلا صليتُ عليهِ عشرًا ، ولا يُسَلِّمُ عليكَ أحدٌ ، إلا سلمتُ عليهِ عشْرًا » ..

أخرجه النسائى

قوله : (والبشرى فى وجهه) ..

أى علامة البشرى التى بشر بها ظاهرة على وجهه فكان الرسول ــ ﷺ ــ إذا ظهر السرور على وجهه يكون له ضياء يلمع كالقمر فلما سأله الصحابة رضوان الله عليهم عن سبب ذلك :

قال لهم : أنه أى أن الحال والشأن الذى تسبب عنه هذه البشرى أنه أتانى الملك يبشرنى من قبل الله تعالى ، ويقول : يا محمد أما يرضيك أنه لا يصلى عليك أحد (أى : من أمتك) إلا صَلَّيْتُ (أى : صلى الله عليه ، أو صلى عليه الملك) بسبب الصلاة الواحدة عشر مرات ، فالحسنة بعشر أمثالها ، ولا يسلم عليك أحد أى من أمتك أى : مرة واحدة ، إلا سلمتُ عليه (أى : الله ، أو الملك)

يسلم عليه عشرا ، بتضعيف جزاء العمل الى عشر . وإنما قال له الملك ذلك ، تبشيرا له بإنجاز بعض وعد الله الذى وعد رسوله ﷺ به فى قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وأنا أقول اللهم صلْ وسلم على سيدنا ومولانا وشفيعنا وحبيبنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومحبيه ، واجعله يارب لنا شفيعا وأنقذنا بشفاعته من النار .. آمين .

٩٣ - أَنَا أهلُ أنْ أُتَّقَى :

عن أنسِ بنِ مالكٍ ــ رضيَ اللهُ عنهُ ــ أن رسولَ اللهِ ــ ﷺ ــ قرَأَ هذهِ الآيةَ : ﴿هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة﴾ فقال : قال عزَّ وجَلَّ ــ : أنا أهلُ أنْ أُتَّقى ، فلا يُجْعَلْ مَعِي إلهٌ آخرُ ، فمنِ اتَّقَى أن يَجْعَلَ مَعِي إلهاً آخرَ فأنا أهلُ أنْ أغفِرَ لَهُ

(قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ ، أى الله وحده ، هو أهل ومستحق لأن يُتَّقَى ويُحذَر ويُخافُ من عقابه ، فإنه ذو البطش الشديد ، الجبار القهار ، الفعال لما يريد .

واتقاء عذابه وغضبه يكون باتخاذ الوقاية من ذلك ، وهذه الوقاية لا تكون إلا بتوحيد الله تعالى ، وعبادته بالإخلاص والخضوع له وحده لذلك قال الله تعالى فى هذا الحديث :

(أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معى إله آخر)

ولا يتحقق الاتقاء من عذاب الله تعالى إلا بالإيمان به والتصديق بوحدانيته فإن الله لا يغفر أن يُشْرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

ولذا قال : (فمن اتقى أن يجعل معى إلها آخر ، فأنا أهل أن أغفر له) ــ والمعنى أن من جعل لنفسه وقاية من عذابى بأن لم يجعل معى

إلها آخر ، فقد استوجب مغفرتى ، وأنا أهل لأن أغفر له ، لأنى أنا البر الكريم وقلت فى كتابى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

والتقوى : مصدر المبنى للمجهول ، كما فسره فى الحديث بقوله : (أنا أهل أن أتقى) ـــ ببناء الفعل للمفعول ، فالله هو المتَّقَى عذابُه وغضبُه والمغفرة مصدر الفعل المبنى للفاعل ، فالله هو الذى يغفر ذنوب العاصين ، وهو أهل لذلك ، لأن المغفرة فضل منه ورحمة ـــ ورحمته سبقت غضبه . نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ذنوبنا ، ويستر عيوبنا ويكفر عنا سيئاتنا ، كما نسأله أن يختم لنا بالإيمان ، حتى نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ـــ والحمد لله رب العالمين ـــ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٩٤ – قولُ العبدِ : لا إلهَ إلا اللهُ :

عن أبى هُريرةَ وأبى سعيدٍ الخُدْرِىِّ ــ رضىَ اللهُ عنهما ــ أنهما شَهِدا على رسولِ اللهِ ﷺ ــ قالَ : يقولُ اللهُ ــ عزّ وجلّ ــ صدقَ عبدى : لا إلهَ إلا أنا ، وأنا اللهُ أكبرُ ، وإذا قالَ العبدُ : لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ ، قالَ : صَدَقَ عَبدِى ، لا إلهَ إلا أنا وَحْدِى ، وإذا قالَ : لا إلهَ إلا اللهُ ، وحْدَهُ لا شريكَ لهُ ، قالَ : صدَقَ عَبْدِى ، لا إلهَ إلا أنَا ولا شريكَ لى ، وإذا قَالَ: لا إلهَ إلا اللهُ ، لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ ، قالَ : صَدَقَ عبدى لا إلهَ إلا أنَا لىَ المُلْكُ ولىَ الحَمْدُ ، وإذا قالَ : لا إلهَ إلا اللهُ ، ولا حَوْلَ ولا قوة الا باللهِ ، قال : صدق عبدى لا اله الا أنا ، وَلاَ حَوْلَ ولا قُوّةَ إلا بِى . قالَ أبو إسحاقَ : ثم قالَ الأغرُّ شيئا لم أفهمه ، قال : فقلتُ لأبى جعفر : ما قالَ ؟ فقالَ :

(من رُزِقَهُنَّ عِنْدَ مَوْتِهِ لم تَمَسَّهُ النارُ) .

وأبو إسحاق ، والأَغَرُّ من رواةِ الحديث .

أخرجه ابن ماجه

وأخرج النسائى فى سننه من باب ـ فضل الحامدين ..

عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ـ رضىَ اللهُ عنهما ـ أَنَّ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ حدَّثَهُمْ أَنَّ عبدًا من عبادِ اللهِ قالَ : ياربِّ ، لك الحمدُ . كَمَا ينبغى لجلالِ وجهِك ولعظيمِ سلطانِك ، فَعَضَلَتْ بالملَكَيْن ، فلم يَدْرِيَا كيف يَكْتُبَانِها ، فصَعِدا إلى السّماءِ ، وقالا : ياربَّنا إن عبدَكَ قالَ مَقالةً ، لا ندرى كيفَ نكتبُها ؟ قال اللهُ ـ عزّ وجلَّ ـ وهو أعلمُ بما قالهُ عبدُه ـ : ماذا قالَ عبدى ؟ قالا : ياربِّ إنه قالَ : ياربِّ لكَ الحمدُ كما ينْبَغِى لِجَلالِ وجهِك وعظيمِ سُلطانِكَ فقال اللهُ ـ عزّ وجلّ ـ لهما : اكتُبَاهَا كما قالَ عبْدى ، حتى يَلْقانى فأَجزِيَهُ به » .

المعنى فى الحديث الأول أن أبا هريرة وأبا سعيد الخدرى رضى الله عنهما أخبرا عن رسول الله ﷺ بهذا الحديث الذى قاله عن الله سبحانه وتعالى ، والحال أنهما على يقين مما سمعا منه وبما أخبر به ، وهى شهادة حق منهما ليس فيها شك ولا توهم ، ويتحملان عاقبة إثمها وإن كانت على خلاف الواقع فالكلام لتأكيد الخبر .

ومعنى الحديث أن الله تبارك وتعالى يرضى عما يقوله العبد من أنواع الذكر الموجود فى الحديث ، ويصدقه فيما يقول .

وثمرة تصديقه رضاه عنه وإثابته على ما يقول بحسن الجزاء ، وعظيم المثوبة والمراد بقوله : (من رزقهن عند موته ، لم تمسه النار) أن العبد إذا لم يزل معتقدا لما كان يقوله من هذا الذكر ، حتى إنه رزقهن عند موته ، قولا واعتقادا ، فبذلك ينجيه الله تعالى من النار ، لأنه كثيرا ما كان يقول : (لا إله إلا الله والله أكبر ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لا إله إلا الله له الملك وله الحمد ، لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) فهذا جملة الذكر ينبغى الإكثار منه والله أعلم .

والحديث الثانى : يبين فضل الحامدين : أن عبدا من عباد الله قال : يارب لك الحمد ، كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها .

أى اشتدت على الملكين هذه الكلمة فلم يعلما مقدار ما يكتب لها من الثواب ليكتباه لقائلها ، لأن أجرها عظيم لا يعلمه الا الله تعالى ، ولم يطلعهما على مقداره .

قال فى القاموس : عضل به الأمر أى اشتد به الأمر كأعضل ، فالمعنى اشتدت هذه الكلمة عليهما .

٩٥ - فى خلقِ آدمَ عليه السلامُ :

عن أبى هريرةَ رضى اللهُ عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : ـــ لَمَّا خلق اللهُ آدمَ مسحَ ظهرَهُ ، فسقطَ من ظهرِه كلُّ نسَمَةٍ ، هو خالِقُها إلى يومِ القيامةِ ، وجعل بينَ عيْنَىْ كُلِّ إنسانٍ مِنهُمْ وَميضًا من نورٍ ، ثم عرَضَهُم على آدمَ ، فقالَ : أىْ رَبِّ ، مَنْ هؤلاءِ ذريّتُك ، فرأى رجلاً منهم فأَعْجَبَهُ وبيصُ[1] ما بينَ عَيْنَيْهِ ، فقالَ : أىْ رَبِّ ، مَنْ هذا ؟ قال هذا رجلٌ من آخرِ الأُمَمِ من ذُرِّيَّتِكَ ، يُقالُ لَهُ داودُ ، فقالَ : رَبِّ ، كَمْ جَعَلْتَ عُمرَهُ ؟ قال : ستينَ سنةً ، قال : أىْ رَبِّ ، زِدهُ من عمرى أربعينَ سَنَةً ، فلما قضى عمرُ آدمَ جاءهُ مَلَكُ الموتِ ، فقالَ : أَوَ لَمْ يبقَ مِنْ عُمْرى أربعون سَنَةً ؟ قال : أَوَلَمْ تُعْطِها ابنَك داودَ ؟ قال : فجَحَد آدمُ ، فجَحَدَتْ ذُرِّيتُه ، ونَسِىَ فنَسِيَتْ ذُرِّيتُهُ ، وخَطِىءَ آدمُ فخَطِئتْ ذرِّيتُه .

أخرجه الترمذى

وأخرجَ التِّرمِذِىُّ أيضا :

عن مُسلِم بنِ يَسارٍ الجهنىّ أن عمرَ بنَ الخطّابِ رضى

[1] الوبيص : البريق واللمعان .

اللهُ عنه ـــ سُئِلَ عن هذه الآيةِ :

﴿وإذ أخذَ ربُّكَ مِن بنى آدمَ مِن ظُهورِهِمْ ذُرِّيتَهم وأشهدَهم على أنفُسِهِم ألَسْتُ بربِّكُمْ قالوا بَلى شَهِدنا أن تقولُوا يومَ القيامةِ إنا كُنَّا عن هذا غافلين﴾ ـــ قال عمرُ بنُ الخطابِ رضىَ اللهُ عنه : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يُسْئَل عنها ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : إن اللهَ خلق آدمَ ثم مَسَحَ ظهرَهُ بيمينِه ، فاستخرَجَ منهُ ذُرِّيةً ، فقالَ : خلَقتُ هؤلاءِ للجنةِ ، وَبِعمَلِ أهلِ الجنةِ يعملونَ ، ثم مسَحَ على ظَهْرِهِ ، فاسْتخرَجَ مِنهُ ذُرِّيةً فقالَ : هؤلاءِ خَلقتُ لِلنارِ ، وبِعَمَلِ أهلِ النّارِ يعمَلونَ ، فقال رجلٌ يا رسولَ اللهِ ، ففيمَ العملُ ؟ قالَ : فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : إن اللهَ إذا خَلقَ العبدَ لِلْجَنَّةِ ، استَعْمَلَه بعملِ أهلِ الجنةِ ، حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ الجنةِ ، فيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وإذا خَلَقَ العبدَ للنارِ ، اسْتَعمَلَه بعملِ أهلِ النّارِ ، حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النَّارِ ، فيُدْخِلَهُ اللهُ النارَ .

قوله : (لما خلق الله آدم مسح ظهره .. الخ) للعلماء فى ذلك رأيان :

أولا : بعضهم يفسر ذلك على الحقيقة ، ويحمل المسح على معنى يليق به تعالى ، وهو قوله للشيء كن فيكون ـــ أو يأمر بعض ملائكته الموكلين بأرواح بنى آدم ، أن يمسحوا ظهره ويستخرجوا منه نسم بنيه .

وقد ذكر ذلك العلامة أبو السعود ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ . الآية فقال :

وقد حملت هذه المقالة على الحقيقة ، كما روى عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ من أنه لما خلق الله آدم عليه السلام مسح على ظهره .. ثم ذكر الحديث المذكور .

ثم قال : وليس المعنى أنه أخرج الكل من ظهر آدم عليه السلام بالذات ، بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناء الصلبية ، وأخرج من ظهورهم أبناءهم الصلبية وهكذا ، إلى آخر السلسلة ، أى كما يرشد اليه قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ .

ثم قال العلامة أبو السعود رحمه الله تعالى : لما كان المظهر الأصلى ظهره عليه السلام ، وكان مساق الحديثين بيان حال الفريقين

إجمالا ، من غير أن يتعلق بذكر الوسائط غرض ــ نسب إخراج الكل إليه ــ أى فى الحديث الشريف .

وأما الآية الكريمة فحيث كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله ﷺ وبيان عدم إفادة الاعتذار بإسناد الإشراك إلى آبائهم اقتضى الحال نسبة الإخراج إلى ظهور آبائهم ، من غير تعرض لإخراج الأبناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعا ، وعدم بيان أخذ الميثاق فى حديث عمر رضى الله عنه ليس بيانا لعدمه ولا مستلزما له .

واعترض بأن أخذ الميثاق عليهم لإسقاط عذر الغفلة ، حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ لا يكون ذلك حجة عليهم ؛ لأن ذلك لا يكون دافعا لعظمتهم فى دار التكليف ، إذ لا فرد من أفراد البشر يذكر ذلك الميثاق المأخوذ عليهم .

وأجيب بأن ذلك مردود ، لأن قوله تعالى : (أن تقولوا .. الآيتين) ليس مفعولا له لقوله : (وأشهدهم) وما يتفرع عليه ، من قولهم : (بلى شهدنا أن تقولوا .. الخ) حتى يجب أن يكون ذلك الإشهاد والشهادة محفوظا كل منهما لهم ، فيتم إلزامهم به ، بل هو مفعول لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام

والمعنى : فعلنا ما فعلنا من الأمر : بذكر الميثاق وتذكيركم به ، وبيناه لكم فيما أنزلنا على رسولنا ، كراهة أن تقولوا : الآيتين — أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين — أى هذا الميثاق ، ولم ينبهنا إليه أحد فى دار التكليف ، ولو نبهنا إليه أحد لعلمنا بموجبه .

هذا على قراءة الجمهور : (أن تقولوا) بالتاء — أو على القراء بالياء (أن يقولوا) فهو مفعول له لفعل الأمر ا لمضمر الذى تعلق به الظرف ، وهو — إذ — فى قوله : (وإذ أخذ ربك) والمعنى : واذكر لهم الميثاق المأخوذ عليهم فيما مضى ، لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه ، أو بتقليد آبائهم فى الإشراك وترك التوحيد .

ثانيا : قال العلامة أبو السعود رحمه الله تعالى قبل ذلك فى معنى الآية :

وهذا تمثيل لخلقه تعالى إياهم جميعا فى مبدأ الفطرة ، مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق وفى الأنفس ، المؤدية إلى التوحيد والإسلام ، كما ينطق به وله عليه الصلاة والسلام : (كل مولود يولد على الفطرة .. الحديث) — أى وكذا قوله تعالى : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ أى لا تبدلوا خلق الله الذى خلقه فطرة سليمة .

ثم قال رحمه الله : وهذا التمثيل مبنى على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه تعالى إياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها ، بما ركز فيهم من

العقول والبصائر ، ونصب لهم فى الآفاق والأنفس من الدلائل تمكينا تاما . ومن تمكنهم منها تمكنا كاملا ، وتعرضهم لها تعرضا قويا ، شبهت هذه الهيئة ــ بهيئة منتزعة من حمله تعالى إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ، ومن مسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلا ، من غير أن يكون هناك أخذ وإشهاد ، وسؤال وجواب ، كما فى قوله تعالى :

﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ .

أقول : وبقية الحديث كقوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

قال العلامة أبو السعود رحمه الله تعالى : فى تفسير الآية :

أى خلقناهم لدخول جهنم ، لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قِبَلِهم ، ما يؤدى إلى ذلك ، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدا ، بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ، ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر .

وقوله : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ .

القلوب هنا نكرة لإبهامها وكونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس ، فاقدة لكماله بالكلية ، لكن لا بحسب الفطرة حقيقة ، بل

بسبب امتناعهم عن صرفها إلى تحصيل الحق .

وهذا وصف لها بكمال الإغراق فى القساوة ، فإنها حيث لم يتأت منها الفقه بحال ، فكأنها غير قابلة له رأسا .

أقول : ومن ذلك يفهم ما ذكر فى أحاديث الترمذى : من مسح ظهر آدم واخراج ذريته من ظهره ؛ وأن الله تعالى قد قضى لبعضهم بدخول الجنة ، ويوفقه للعمل الذى يكون سببا لدخول الجنة ، وقضى لبعضهم بدخول النار ، ويعملون كل عمل يكون سببا لدخولهم النار ، فيدخلون النار ، من غير أن يكون هناك جبر لهم على عمل قطعا ، بل الكل مختار فى عمله ، قال تعالى :

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .. والله أعلم .

اللهم إنا نضرع اليك ، وندعوك أن توفقنا لعمل الخير ، حتى نستوجب دار كرامتك ونفوز برضوانك .. والحمد لله رب العالمين .. آمين .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحه

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ٨٥/٤٩٦٣

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

طبع على نفقة
إدارة إحياء التراث الإسلامى
بدولة قطر